



دكتورة  
نبيلة حسن محمد

أستاذة التاريخ والضيافة الإسلامية المساعد  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

# في تاريخ حضارة الإسلام

دار المعرفة الجامعية

شارع بورسعيد - الإسكندرية - ٤٨٢٠١٦٣

٩٧٣١٤٦ - ٩٧٣١٤٦







# في تاريخ أحضارة الإسلاميين

دكتورة  
نبيلة حسن محمد  
أستاذة التاريخ والحضارة الإسلامية العام  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية  
١٠ من مسقط، الأزهر، القاهرة ١١٢ - ١١٢



” الحضارة هي تفرغ في الترف واحكام الصنائع  
المستعملة في وجوهه ومذامبه“  
ابن خلدون ، المقدمة.





## مقدمة

يتناول هذا الكتاب جوانب من الحضارة الإسلامية في المشرق والسودان الغربي أو (سودان المغرب).

القسم الأول يحتوي على أربعة فصول يتناول.

الفصل الأول: الحضارة الإسلامية.

تكلّمنا فيه عن مفهوم الحضارة الإسلامية - وعن كلمة المدينة ومعناها وعرفنا الحضارة عند ابن خلدون، وتحدثنا عن اللغة كعامل من العوامل الرئيسية في نشأة وتطور الحضارة الإسلامية، ثم تطرق الحديث عن الدعائم التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية.

الفصل الثاني: النظم الإسلامية.

تطرقنا في هذا الفصل إلى المصادر التي ينبغى الرجوع إليها لدراسة النظم الإسلامية وفي مقدمتها كتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» للماوردي. ثم تكلّمنا عن خطة:

٢- السوزارة.

١- الخلافة.

الفصل الثالث:

أفرد للكلام عن القضاة وعن نشأة جماعة الشهود منذ عصر الخليفة العباسي المنصور، وعن النظر في المظالم،  
الفصل الرابع: الحركات الفكرية.

في هذا الفصل تعرضنا للكلام عن الجبرية والقدرية والمعتزلة مع الإشارة إلى بعض مشاهير علمائهم، وتحدثنا أيضا عن الخوارج وفرقهم المختلفة، ثم عن الشيعة وفرقهم وعن أشهر متكلميهم.

أما القسم الثاني فيتناول جوانب حضارية من السودان الغربي أو (سودان المغرب) الذي كان يشمل غانة ومالي وكوكوا والذي يعادل حاليا جمهورية مالي.

والغرض من هذه الدراسة هو تتبع انتشار الإسلام في بلاد السودان .  
وأول الظواهر التي تسترعى الانتباه أنه على عكس انتشار الإسلام في  
معظم أنحاء المشرق والمغرب وراء الجيوش الإسلامية، فإن الإسلام دخل إلى  
السودان مع قوافل التجار التي كانت تتردد ما بين المغرب والسودان .  
وإلى جانب التجارة دخل الإسلام عن طريق التبشير، ويرجع الفضل في  
ذلك إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الإباضية الذين عملوا على نشر  
الإسلام والعمل على توطيد أركانه في هذه البلاد النائية التي كانت تعتبر آخر  
المعمور من الأرض .

وتوغل الإسلام في قلب بلاد السودان مع مطلع القرن الخامس الهجري  
وبفضل قبائل صنهاجة أصحاب اللثام (المرابطون) .

ويشتمل هذا القسم إلى جانب المقدمة الخاصة بالمصادر على بابين:  
الباب الأول: يتضمن التعريف بالبلاد والسكان والأحوال الاجتماعية  
والمعتقدات الدينية قبل الإسلام .

الباب الثاني: عن الإسلام في الصحراء وبداية تعرف العرب على بلاد  
السودان ثم انتشار الإسلام في السودان الغربي .

وبعد فهذا الكتاب محاولة حاولت أن أسهم بها في إبراز بعض الجوانب  
الهامة من تاريخ الحضارة الإسلامية - سواء في المشرق أو السودان الغربي -  
بحياد وموضوعية .

وبعد..... ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾

صدق الله العظيم

نبيلة حسن

## القسم الأول

جوانب من الحضارة الإسلامية في المشرق  
الحضارة الإسلامية مع دراسة لبعض الخطط والحركات  
الفكرية



الفصل الأول  
الحضارة الإسلامية

## الحضارة الإسلامية

مفهوم الحضارة الإسلامية واسع شامل، فالحضارة مشتقة من الفعل حضر حضوراً و حضارة. والحضور، كما هو معروف، ضد المغيب ولكن أصل الحضور المقصود هنا يكون إلى موارد الماء، ولذلك يقال (فى اللغة) للمناهل الحاضر، وذلك للاجتماع والحضور عليها. ولما كان تجمع الناس فى مواطنهم لا يكون الا حول الماء أو بالقرب منه، لذلك اطلقت كلمة الحاضرة والحضرة والحضر على المدن والقرى والريف وأصبحت كلمة الحاضرة الحضرة (بالكسر أو بالفتح) خلاف البادية والبدوة والبدو. والكلمات الأخيرة من الفعل بنا يبدو أى برز وظهر، وربما كان ذلك بمعنى برز وظهر خارج الحاضرة والحواضر أقدم من كلمة البادية والبوادى - رغم ما هو معروف من أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه كما يقول ابن خلدون. وإذا كانت الحاضرة ضد البادية كانت كلمة الحضارة خاصة بالمدن والقرى والريف وأهلها، ولهذا السبب تطلق على الحضارة أيضاً كلمة المدنية التى تعادل كلمة Civilisation فى اللغات الأوربية، لأنها مشتقة من كلمة Civitas اللاتينية التى تعنى المدنية. ولما كانت كلمة المدنية الآن تعنى الرقى والتقدم ضد التوحش (البربرية) والتأخر، فهمت المدنية على أنها خاصة بالمجتمعات الراقية (أو المهذبة) صاحبة العلوم والمعارف، ورأى البعض أن المدنية أشبه بالنهضة كما فعل آدم متز Die Renaissance des Islam وهو فعلاً يقصد النهضة على زعم أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى الذى يكتب عنه.

ومن الجائز أن تقبل كلمة المدنية على أنها النهضة ولكن المفهوم يكون محدوداً ضيقاً، فالنهضة خاصة بالمجتمعات المتقدمة المتطورة وهى عادة لا تخص كل المجتمع بل الطبقات المتأخرة من المجتمع دون غيرها. وإذا جاز ذلك فى

القديم عندما كان الاهتمام ينصب على تاريخ الملوك والأمراء والطبقات العليا من المجتمع فان ذلك لم يعد جائزا في العصر الحديث بعد أن أنصب الاهتمام على الشعوب والجماهير وأصبح الهدف من الدراسة هو خدمة المجتمع جميعا بطبقاته المختلفة.

وهكذا أصبحت كلمة المدنية أو الحضارة الخاصة بمجتمع من المجتمعات لا تعنى فقط الثقافة والتهديب، ولا تعنى النهضة أى الرقى والتقدم بل أصبحت تعنى طريقة الحياة فى هذا المجتمع ولكل طبقاته سواء فى المدن أو فى الريف أو فى البادية، بمعنى أن الحضارة الواحدة يمكن أن تنقسم إلى طبقات تبعاً لطبقات المجتمع. فهناك حضارة المدينة التى تتفاوت تبعاً لموقف المدينة سواء كانت عاصمة كبيرة أو مركزاً إقليمياً، وهناك حضارة الريف أو الزراعة، وهناك حضارة الرعاة أو أهل البادية.

والحضارة بهذا المعنى تشمل كل أنواع النشاط الإنسانى من مادية أو عقلية أو روحية. وهذه الحضارة هى التى يقصدها ابن خلدون فى مقدمته والتى يسميها بشكل عام العمران، والتى يعرفه بالاجتماع الإنسانى، والتى يجعل التعريف بها أساساً لفهم التاريخ الإسلامى أو أنه بفضل هذه المقدمة يفهم التاريخ الإسلامى على أنه حضارة الإسلام<sup>(١)</sup>.

والذى يفهم من المقدمة أن ابن خلدون يقسم - حسب طريقته المنهجية - العمران إلى مراحل ثلاث: أولها البداوة (اذ يجعل البادية أصل العمران) وهو يخصص فصلاً «فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل». وثانيها «العمران» الذى يقصده بشكل عام وهو الوضع الطبيعى لمجتمعات الجواضر والامصار والقرى والأرياف فى حياتها المعتادة. وثالثها «الحضارة» وهى تفنن فى الترف وأحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المظانج

(١) أ.د. سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٢-٣.

والملابس، والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجابه والتأق به، ويتلو بعضها بعضا وتتكرر باختلاف ما تنتزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد<sup>(١)</sup>.

وهذه المراحل الثلاث يتلو بعضها بعضا في تطور طبيعي وذلك بفضل «الملك» الذي يقصد به السلطان أى السلطة أو الدولة أو التنظيم السياسى الذى تقوم به الأمم الوحشية لأنها أقدر على التغلب ممن سواها. ثم يبدأ أهل الدولة الجديدة «يقلدون» فى طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم فى الغالب يأخذون<sup>(٢)</sup>. وأخيرا تأتي «الحضارة» غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنه بفساده<sup>(٣)</sup>. وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها فى الحضارة اذ أمور الحضارة من نواحي الترف، والترف من نواحي الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من نواحي الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله<sup>(٤)</sup>.

والحضارة الإسلامية هى التى قامت مع قيام الإسلام وانتشرت فى كل بقاع الدولة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وحلت محل الحضارات القديمة فى الشام (التي عرفت الحضارات الفينيقية والآرامية والكنعانية والتي انصبت آخر الأمر بالحضارة الرومانية البيزنطية) وفى العراق

---

(١) المرجع السابق، ص ٣-٤، ابن خلدون، كتاب العبر، طبع دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧، المجلد الأول (المقدمة)، ص ٣٠٤ الفصل الخامس عشر (فى انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٠٤.

(٣) انظر ١، ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٦١، الفصل الثامن عشر (فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده).

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٠٨.



(حيث قامت حضارات بابل وآشور القديمة أو التي تأثرت بحضارة الفرس)، وفي مصر (حيث عاشت الحضارة الفرعونية ثم القبطية التي انصبت بالصيغة اليونانية)، وكذلك حضارة إيران القديمة (البرثية والساسانية)، إلى جانب حضارة البربر في المغرب وحضارة القوط في الاندلس.

ومع أن دولة الإسلام أخذت من كل هذه الحضارات القديمة إلا أنها تمثلت كل ما أخذته منها وصبغته بالصيغة الإسلامية. ولما كان الإسلام هو رسالة العرب، ولما كان العرب هم مادة الدولة الإسلامية في عصورها الأولى كان من الطبيعي أن يصبح طابع هذه الحضارة هو الطابع العربي. وبناء على ذلك فهي الحضارة العربية قبل أن تكون الحضارة الإسلامية. فقبل أن يأخذ العرب من الشعوب التي دخلت في نطاق دولتهم، أخذت هذه الشعوب من العرب، وذلك اتفاقاً مع النظرية التي تقول أن المغلوب كلف بتقليد الغالب والتي يسجلها ابن خلدون عندما يقول: «المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»<sup>(١)</sup>.

وكان أول ما ينبغي على الشعوب المغلوبة أن تقلده هو لغة العرب بطبيعة الحال - فهي وسيلة التفاهم مع الفاتحين أصحاب الدولة، وهي وسيلة فهم الدين الجديد الذي أخذ العرب على عاتقهم نشره في كل أرجاء الدولة (الامصار). وهكذا سار التعريب جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام وكان من الطبيعي الا يقتصر التعريب على اللغة بل شمل العادات والتقاليد العربية.

وهكذا كانت اللغة العربية عاملاً من العوامل الرئيسية في نشأة وتطور الحضارة الإسلامية التي هي بحق الحضارة العربية.

---

(١) أ.د. سعد زقلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٤-٥، ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٨، الفصل الثالث والعشرون (في أن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده).

ولقد ساعد على تعريب البلاد المفتوحة وجود نوع من القرابة بينها وبين العرب. فعند بداية الفتوح كان للعرب أثرهم السريع والعميق في البلاد التي وجدت بها آثار اللغات والمعادن السامية. ففي العراق والشام كانت اللغة العربية واللغة الآرامية القريية منها سائدتين في كثير من الأقاليم. كذلك كانت القرابة قريبة بين أهل الساحل الفينيقي وبين العرب.

وقبل هذا يمكن أن يقال عن المغرب والأندلس حيث سهل على العرب الاستقرار وجود قرابة لغوية بين اللهجات البربرية والاسبانية وبين اللغات السامية نتيجة لأعمال القرطاجنيين. وإذا صح ذلك يكون التوسع العربي قد توقف غربا عند الحدود اللغوية التاريخية لقرطاجنة، بمعنى أن آثار الفينيقيين في البحر المتوسط مهدت التربة لاستقرار العرب في تلك الأقاليم بشكل طبيعي - كما يرى المشتغلون بالدراسات اللغوية.

هذا ولاشك أن الفضل في انتشار اللغة العربية يرجع إلى الإسلام الذي تبنى عليه كل أسس الحضارة العربية (الإسلامية). فالقرآن - دستور الإسلام ومعجزة عبقرية اللغة العربية - كان وحده ذورة العلوم والمعارف، به يبدأ التعليم وعنده ينتهي. ولهذا السبب ومن أجل الداخلين في الإسلام من أهل الأمصار بدأت دراسة اللغة العربية دراسة منطقية منظمة، وظهرت الرسائل الأولى في قواعد اللغة العربية التي استخدمها المشتغلون بالوظائف العامة.

ولقد وقعت مسئولية هذا العمل إلى حد كبير على عاتق أهل البلاد المفتوحة (الذين كانوا أكثر تحضرا من العرب) فكرس العلماء منهم جهودهم لتقنين اللغة مستدين في ذلك إلى القرآن والمنطق اليوناني الذي عرفوه.

ومع مرور الوقت أصبحت اللغة العربية أكثر ملاءمة من اللغات الوطنية الأخرى للوفاء بكل مطالب الحياة، وبعد أن كانت لغة الإدارة والتشريع والسياسة أصبحت لغة المجتمع والتجارة والفكر والأدب. وظلت العربية سائدة

دون منازع حتى في المشرق الايراني الذي أخذ يعمل على احياء لغته القومية منذ القرن الرابع الهجرى (١٠م) حتى استغنى عن اللغة العربية ابتداء من القرن السابع الهجرى (١٣م) حينما أصبحت لغته الفارسية هي لغة السياسة والأدب.

ولاشك في أن اللغة والدين اللذين نميا سويا قاما بدور حاسم في تعريب وإسلام الدولة الضخمة. فلقد عملت هاتان القوتان على تحطيم الحواجز التي كانت تفصل بين العرب وبين أهل البلاد المفتوحة وألفتا بين العناصر المتنافرة بشكل لم تعرفه روما في القديم ولا الا انجلوسكسون في الوقت المعاصر - كما يلاحظ ريسلر Risler - فالرجل الذي اعتنق الإسلام كان يتكلم العربية ويكتبها بدرجة تجعله عربيا خالصا، وهذا عامل خطير في تاريخ الحضارة الإسلامية. فهذه القوة الموحدة محت في نفس الوقت الحواجز السياسية وأعطت للبلاد المختلفة الممتدة في القارات الثلاث شكلا موحدا. فكان المسلم يجد في كل مكان نفس اللغة والدين ونفس الصلوات والقوانين حتى أنه كان يشعر دائما بأنه في وطنه خلال رحلاته البعيدة أو أثناء عملياته التجارية خارج بلاده، مما كان أكثر من جواز سفر يضمن لصاحبه حرية التنقل والمرور - كما يقول البعض، إذ كان قومية ووطنية وأخوة.

وخلال قرون طويلة ظل علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم يكتبون اللغة العربية التي اغتنت وأغنت الفكر وعملت الترجمات العربية للعلوم والفلسفة اليونانية على انتشار الأفكار واللغة انتشارا لانظير له. فدرس منطق ارسطاليس الذي احتوى البلاغة والشعر مع قواعد اللغة العربية، وأصبح ذلك أساس الإنسانيات الإسلامية. وعن هذا الطريق حققت اللغة العربية بين الشعوب التي اتخذتها لغة لها مايمكن أن يشبه بدولية الآداب والعلوم. فأثر فلسفة ابن سينا وهو من أهل ماوراء النهر يظهر في أعمال ابن رشد القرطبي،

وكذلك كان للادريسي الذي عاش في المغرب والأندلس وصقلية أثره على  
ياقوت الحموي الذي درس في خوارزم على نخوم ماوراء النهر.

وهكذا دخلت اللغة العربية، بصفتها القوة المعبرة في الدولة الكبرى  
وبفضل ما وصلت إليه في مجالات العلوم والفكر في اللغات العربية من  
الايبيرية واللاتينية التي مازالت مليئة بالتعبيرات والكلمات العربية الأصل رغم  
أن هذا التسرب كان صعبا لاختلاف طريقة الكتابة. وبسبب صعوبة الكتابة  
العربية بالنسبة للغريين فقدت النهضة الأوربية ذكريات الحضارة العربية واتجه  
الأوربيون نحو الحضارة اليونانية واللاتينية القديمة يأخذون منها ما كان  
ينقصهم.

وهكذا كان للغة العربية أهميتها الكبرى في تاريخ المجتمعات الإسلامية  
ونظمها، حتى أن جودفروا ديمومبين يقول - بحق - أن النظم الإسلامية  
تكون إسلامية على قدر قرابتها من اللغة العربية لغة القرآن والشريعة. وكما  
تدين اللغة العربية بانتشارها ونموها وتطورها إلى الأصول الأولى للإسلام،  
وخاصة القرآن، كذلك نبعت من الإسلام كل المبادئ التي تنظم الحياة  
العامة والخاصة للمسلمين، وأثبتت على أسسه وقواعده كل مظاهر الحضارة  
العربية الإسلامية.

«إذ الحقيقة أن الإسلام الآن هو دين أولا ثم دولة ثانية وأخيرا - هو  
ثقافة وبالاحتمار هو حضارة»<sup>(١)</sup>. فالصلاة وهي ثاني الفرائض الواجبة على  
المسلم، وصلاة الجماعة هي التي حتمت بناء المسجد وبالتالي كان للصلاة  
أثرها على العمارة الإسلامية.

والمسجد الذي بناه الرسول ﷺ بالمدينة هو أول مسجد بني في الإسلام،  
وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل يتكون من صحن، يحيط به سور، وفي

(١) انظر، ا.د. سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٩

المقدمة سقيفة من سعف النخل لوقاية المصلين من وهج الشمس. وقد وسع عثمان مسجد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>. ثم اعاد بناءه الوليد بن عبد الملك. أما بناء المسجد فحدد اتجاهها بمكة، لأن الكعبة هي قبلة العالم الإسلامي. وجعل المحراب تجويفا في وسط الضلع القبلي من ظلة القبلة، وذلك كي يتخذ المصلون جميعا مواضعهم الصحيحة باتجاه الكعبة. وتكون الأعمدة في نفس الوقت صفوفًا تمتد من صحن المسجد إلى جدار القبلة. وتكون صفوف المصلين عمودية على صفوف الأعمدة وموازية لجدار القبلة.

أما ظلة الصلاة في أغلب المساجد، فتفتح على الصحن ومنه تستمد النور والهواء اللذين لا يدخلون بصورة مباشرة، بل عن طريق كوى ضيقة في الجدران الثلاثة للمسجد، ومن هذه الكوى تنفذ حرم من أشعة النور تتلألأ على زخارف الأعمدة وفي البناءات الجميلة تكون الجدران من الخارج عارية في حين أنها من الداخل حيث تطل على رواق الصلاة مزينة بألواح الرخام والفسيفساء وقطع الخزف والقيشاني، والسقوف مستوية وبمظلة أو معقودة أو مؤلفة من عقادات مفروشة بالرخام أو بالقاشاني الأخضر. ويحاط الصحن بأروقة ضيقة حيث يميل المصلون إلى الجلوس فيها. وفي الصحن تفتح البوابة الرئيسية عادة تحت المنارة أو بجانبها، ويتكون المدخل المباشر من الخارج إلى ظلة الصلاة من بايين متواجهين.

أن ظلة القبلة التي تمتد من الصحن إلى المحراب تكون عادة أعرض من الجنبات الثانوية الأخرى وإن كانت بنفس عرض الظلة المقابلة التي تكون في الطرف الآخر من المسجد. ويقف الإمام في مقدمة المؤمنين ليؤمهم في الصلاة. وقد هجر الخليفة عادة الوقوف وسط المصلين في صدر الإسلام. واتخذ إلى جانب حماية الحرم له مقصورة مقلدة من الخشب أبدع الفنانون

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٧٠، أحداث سنة ٢٩ هـ.

المسلمون في تصميمها وتزيينها. ويقع المنبر إلى يمين المحراب، وهو منصة قد تصنع من الخشب يصعد إليها بدرجات. وقد اتخذ الرسول منبرا ثلاث درجات، أما في العهد الأموي فأصبح للمنبر سلما ذا تسع درجات، ولا يصعد المنبر سوى الإمام.

ينفتح المدخل الأمامي لظلة الصلاة على صحن المسجد المبلط عادة بالأجر المرصوف، ويحوى المسجد ميضأة (حوض للوضوء) وعلو المسجد المنارة أو (المشذنة أو الصومعة) يعلوها سطح يقف عليه المؤذن لالقاء الأذان ودعوة المسلمين إلى الصلاة في أوقات الصلوات الخمسة. أما شكل المنائر وزخرفتها والمواد التي تصنع منها كالأجر والحجر فتختلف حسب الموارد الطبيعية للبلد وتقاليده. ففي بلاد الشام ومصر والمغرب، كانت المنائر أبراجا مضلعة تحوى غرقا يمكن استعمالها كملاجيء. أما في فارس وتركيا، فالمنائر اسطوانية الشكل لا تحوى سوى السلم الذي يرقى بواسطته إلى غرفة المؤذن. وهذان الشكلان بالاضافة إلى الشكل الثماني اتلفت جميعا في بعض المنائر الشرقية ذات القواعد المربعة التي يقوم عليها شكل ثماني ينتهى بشكل اسطواني (١).

والزكاة هي الأخرى مهمة بالنسبة للتنظيم المالي، إذ كانت تشكل موردا هاما من موارد الدولة. «ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها، قال رسول الله ﷺ: «ليس في المال حق سوى الزكاة» (٢).

والزكاة صدقة، والصدقة زكاة، يفترق الاسم ويتفق المسمى (٣). فالآية

(١) انظر، جودفروا ديمومين، النظم الإسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماخ، دار النشر للجامعيين، بيروت، ص ٩٠-٩٣.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة الباني الحلبي، مصر، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦، ص ١١٣، الباب الحادي عشر (في ولاية الصدقات)

(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١١٣

خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها . ﴿١١﴾ والأموال المزكاة نوعان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي مالا يمكن إخفاؤه، مثل الزروع والشمار والمواشى، أما الباطنة فهي ما يمكن إخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجارة، وليس لوالى الصدقات نظر فى زكاة المال الباطن، وأربابه أحق باخراج زكاته (٢).

أما عن كيفية توزيع الصدقات فى مستحقيها، فهي لمن ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله: ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (٣).

وأول من يستفيد منها كما تنص الآية الكريمة: هم: الفقراء والمساكين، ثم العاملين عليها: أى جباة الضريبة، ثم المؤلفة قلوبهم وهم طبقة اختفت فيما بعد، وأن كانت كما يقول ديمومبين ذات خطر فى بدء الإسلام، حين كان رسول بحاجة إلى مبلغ يضحى به ليدفع عنه عداء قريش. ويخصص قسم رابع لفك رقاب العبيد وشراء حريتهم من أسيادهم، والقسم الخامس للغارمين، أى لهولاء الذين تراكمت عليهم ديون بسبب قيامهم بنصرة الدين، أما القسم السادس فقد خصص للانفاق على المتطوعة للجهاد ضد الكفار، والقسم السابع جعل للانفاق على جميع المؤسسات التى تنفع الجماعة الإسلامية، والتى أسست فى سبيل الله. وأخيرا كان هناك قسم أفرد للمصرف على أبناء السبيل أى المسافرين الفقراء.

أما عن الحج - الذى عرفه العرب قبل الإسلام - فكان فريضة مهمة

(١) المارردى، الاحكام السلطانية، ص ١٢٠.

(٢) المارردى، الاحكام السلطانية، ص ١١٣.

(٣) المارردى، الاحكام السلطانية، ص ١٢٢.

بالنسبة لتطور الحضارة الإسلامية، فرغم الأحداث السياسية التي آلت بدولة الإسلام فإن بلاد العرب - مهد الإسلام - احتفظت بمكانة ممتازة في العالم الإسلامي، بفضل قوافل الحج المتجهة من أقصى المغرب ومن أقصى المشرق نحو الحجاز، كما أن النقاء آلاف المؤمنين من شتى أنحاء العالم في موسم الحج، كان ولا زال عاملا مهما من عوامل الارتباط المعنوي والأدبي بين أجزاء العالم الإسلامي. كما كان لرحلة الحج أثرها في انتشار الثقافة خلال العالم الإسلامي.

ولكن إذا كان تنظيم الحياة العامة والخاصة للمسلمين يبنى على الأصول الإسلامية الأولية فإن الإسلام يدين بتطوره وارتقائه إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي ترتبت على التوسع الاقليمي الكبير والاتصال بشعوب وحضارات راقية قديمة. اذ سرعان ما يرتفع العرب بفضل ضرورة تنظيم الحكم والتمتع بمباهج الحياة إلى درجة سامية من التقدم في مجال الفكر الديني وقواعد الأخلاق وكذلك فيما يخص بالمشاعر الفنية.<sup>(١)</sup>

وبعد العصر الأموي من أهم فترات التاريخ الإسلامي. ففي هذا العصر وضعت جميع النظم الإسلامية، بدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما أخذت الأفكار تتجاوز حدودها الاقليمية إلى آفاق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الإسلامية وسط ثراء مادي غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م، للدولة العباسية بأن تكون مركزا مهما للحياة العقلية<sup>(٢)</sup>.

وخلقت الدولة العباسية الدولة الأموية، وغدت بذلك الخلافة وراثية في آل النبي.

(١) أد سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ١١-١٢.

(٢) ديمومين، النظم الإسلامية، ص ٢٦.



وبقدوم العباسيين، استطاع المسلمون الجدد والفرس خاصة أن يصلوا إلى السلطة وقد حملوا معهم إلى المجتمع الجديد ميولا وأذواقا تبدت في كل ناحية من نواحي الحياة العملية. وسرعان ما هجرت دمشق - حاضرة الأمويين - لتحل محلها بغداد، التي اتخذت خلافتها اتجاها شرقيا حيث الأقاليم الفارسية - واهتمت الخلافة كذلك بالخليج الفارسي والبحار الهندية حيث كان التجار يجلبون إلى الخلفاء منها طرائف الشرق البعيد.

وادعى الخليفة العباسي أنه سعيده الجماعة الإسلامية إلى طريق الإسلام الأولى التي انحرف عنها الأمويون، فقد اعتبر خلفاء الدولة العباسية أنفسهم وريثة النبي ﷺ الذين يسرون بالجماعة الإسلامية في الطريق القويم المستقيم. وإذا ما تأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة.

وصورة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتاب أشبه ماتكون بصورة كسرى فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرويق والعظمة كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زخرف بلاط الخليفة بأهل العلم والفقهاء من يتصفون بالورع والتقوى، إلى جانب الأدباء والمغنين والشعراء، والأطباء والأخيار، والقضاة، وكذلك المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديمومبين ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الوردية تنشد الأغاني وتدار كؤوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات، ويختلج على رنين قطرات التنايب ويهتز الجو طربا للأصوات القوية المفردة المنبعثة من أفواه المغنيات وألحان الأعواد. وقد يعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين ليق ذى فصاحة مفعمة، أو زيارة ناسك متسول ذى كبرياء وفظاظة، وقد يحز رأس بينما تدور الاقداح. وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل الخمر قلوب النشأوى،

وتنهمل الدموع، وقد ينشد شاعر قصيدة ينمى فيها العمر القصير. وفي الختام يبرز الفجر بأضوائه التهيبية، فيؤدى صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعى بخشوع وتقوى. أنها حياة ملأى بالأحاسيس، عنيفة رقيقة معاً، تحفل بالمفاظة ورقة الطبع في آن واحد، نجد مثيلاً لها لكن بصورة أوضح وأعنف، وذلك في عصر النهضة الأوربية، وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة، والأغاني، ومروج الذهب، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء.

ولكن وراء هذا الوجه الرومنتيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر .. وقد شهد القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والإنسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل. وكان عصر ازدهار الأدب العربى كذلك، وبداية احياء آخر للفن الإسلامى بصورة فعالة. وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلى والمادى قد تحققت بوضوح فى السنوات الأخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد.

بدأ مغيب شمس خلافة بغداد فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) اذ انفصلت الأقاليم الفارسية، وسيطر البويهيون الشيعة على مقاليد الأمور فى بغداد، وغدوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد، وفرضوا وصايتهم على الخليفة.

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حكم الامراء الترك السلاجقة العراق والجزيرة وجزءاً من بلاد الشام، وقسموا هذه البلاد إلى امارات صغيرة متنافسة وحلوا محل البويهيين فى بغداد واتخذوا لقب السلطان ففدت الخلافة الشرقية تركية بعد أن كانت عربية فارسية.

وقد كان انقسام دولة السلاجقة، وازمحلال الخلافة الفاطمية فى مصر، من أسباب نجاح الصليبيين من الفرنجة فى سنة ١٠٩٦م. وقد أدى

وجودهم إلى رد فعل في العالم الإسلامي، فتوجد تحت راية أمراء بني زنكي والأمراء الأيوبيين، وأولهم نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الذي استعاد بيت المقدس (سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) وأعاد للشرق المذهب السني، ومنذ ذلك الوقت اقتضت الشيعة عدا فارس على أقلية منفصلة هنا وهناك. إلا أنه تكون منهم طائفة كبيرة من الفقهاء حذقوا عقيدتهم في المدارس التي أسسها الشيعة.

أما الانتعاش السني فقد ظهر رد فعله في التقدم الذي أحرزته الصوفية حين غمرت الشرق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وبفضل نعاليم الغزالي (توفي سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م) انضم أهل التصوف تحت لواء السنة. لقد ثبت الصوفية في الإسلام نزعات وجدانية أغوت صفوة الناس، وبسطت نفوذها على كتل الشعب، وأصبحت الصوفية أحياء صورة للإسلام لمدة قرون. وفي الغرب في مراكش في القرنين ٥، ٦هـ - ١١، ١٢ قاد المرابطون والموحدون إصلاحاً دينياً هدغه أحياء القوة الدينية للكفاح ضد استعادة الأسيان للأندلس.

وفي القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) قضى المغول على الخلافة العباسية، وعم البلاد الاضطراب والفوضى، وركدت الحياة الفكرية الإسلامية حتى القرن التاسع عشر.

إلا أنه في هذه الفترة الحالكة الظلام، وجد الإسلام بين حين وآخر رجالاً صادقين بذلوا الكثير من الجهد من أجل أن يعيدوا الإسلام إلى المذهب الحنبلي المتشدد. ففي القرن الثامن الهجري (١٤م) جاهد ابن تيمية لكي يعيد السنية إلى الحنبلية الخالصة كما كانت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وعلى الرغم من المقاومة التي لقيتها جهوده فإن هذه كانت

دليلا على حيوية الفكر الدينى<sup>(١)</sup>.

وقد كان اكتشاف فاسكو دى جاما فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى لطريق رأس الرجاء الصالح وتحول طرق تجارة الهند وبلاد العرب من موانئ مصر والشام ايلانا بضعفهما - من الناحية الاقتصادية - وسقوطهما فى ايدي الأتراك العثمانيين فى بداية القرن السادس عشر الميلادى.

وما لاشك فيه أن العرب قد استفادوا من الانضواء تحت لواء العثمانيين حينما، اذ حالت قوة العثمانيين واحتلالهم لمعرات الشرق الأوسط فى القسطنطينية والسويس والشام والبصرة وجنوب الجزيرة العربية، وكذلك الشمال الأفريقى، دون وصول الاستغلال الاقتصادى والأوروبى وامتداد نطاق الامبراطوريات الغربية الاستعمارية إلى هذه المناطق فى وقت مبكر كما حدث فى جنوب شرق آسيا. كما ساعدت السيطرة العثمانية على خلق وحدة سياسية فى الشرق الأوسط بعد تفكك الامبراطورية العربية، فأضفى ذلك على الشرق العربى نوعا من الاستقرار النسبى كان فى مسيس الحاجة إليه منذ القرن الثانى عشر. وعلى ذلك يحق للمؤرخ أن يتخذ من هذه الوحدة أساسا للتاريخ الحديث فى الشرق العربى.

ولكن اذا كانت القوة العثمانية قد أحاطت الشرق العربى بسياج منيع لحمايته من خطر الاستعمار الغربى، فانها حالت بلا شك دون اتصاله بالحضارات الأجنبية عموما وبالحضارة الأوربية الناهضة خصوصا، ولم يكن العثمانيون، من ناحية أخرى رجال معارف وثقافة وحضارة، فلم يقدملكهم على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة. ولم يفهموا دور الشرق العربى ولا مركزه الاستراتيجى والحضارى من حيث أنه كان دائما منطقة تفاعل وتجاذب حضارى باستمرار. فعزل العثمانيون الشرق العربى عن حلبة النشاط

(١) ديمومين، النظم الإسلامية، ص ٣٢.

العالمى وقاوموا كل مشروع يهدف إلى إعادة شرايينه التجارية والثقافية  
والحضارية.<sup>(١١)</sup>

---

(١١) انظر، أ.د. عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث (١) الشرق العربى من الفتح  
العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، طبع دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٨.



الفصل الثاني  
النظم الإسلامية

- الخلافة.

- السوزارة.





## النظم الإسلامية

فيما يتعلق بالمصادر التي ينبغي الرجوع إليها لدراسة النظم الإسلامية نلاحظ ندرة الكتب التي تعالج، النظم والقوانين التي عرفتها دول الإسلام. بالنسبة للكتب التي تتناول علوم الدين، والأدب والتاريخ والجغرافية، وحتى بالنسبة لكتب الفلسفة والهندسة والكيمياء.

ويرجع السبب في قلة كتب النظم والقوانين الإسلامية إلى أنه لم تكن هناك حاجة، في بداية الأمر، إلى النظم والقوانين. فعلى أيام الخلفاء الراشدين كانت الدولة تخكم دون مجهود كبير ودون تعقيدات إدارية وذلك حسب كتاب الله وسنة رسوله، بمعرفة خليفة النبي وهو الإمام الشرعي. وزعم مايقوله الكتاب من أنه ابتداء من الدولة الأموية انقلبت خلافة الرسول إلى ملك عضود، وأنه منذ ذلك الوقت حكمت الجماعة الإسلامية بنظام لا علاقة له بالشرع، فإن هذا الأمر ليس صحيحا على وجه الإطلاق.

حقيقة أن رئاسة الدولة أى الخلافة أصبحت وراثية، كما ستظل على أيام العباسيين، ولكن الدولة الأموية لم تقلب الأوضاع رأسا على عقب، كما كان يظن. فالنظام الذي عرفته الدولة على أيام الخلفاء الراشدين، وهو النظام الذي ينسب الكتاب إلى عمر بن الخطاب، ظل معمولا به بشكل عام في كل الأقاليم. والحقيقة أن عمر بن الخطاب، بما عرف عنه من الواقعية والحزم وسداد الرأي، أبقى على النظم التي كانت موجودة في البلاد المفتوحة، مع اجراء التعديلات اللازمة عليها حتى تتسجم مع مبادئ الإسلام. وبطبيعة الحال كانت أهم التنظيمات هي الخاصة بحماية الأموال، والتي أنشئ من أجلها الديوان في الحجاز.

وهكذا كانت مبادئ الإسلام هي التي تخكم الدولة العربية، ولكن بقيت لأهل البلاد المفتوحة، الذين احتفظوا بدياناتهم الخاصة، وقوانينهم

الشخصية ومحاكمهم الخاصة، وهذا يعنى ازدواجية القوانين الخاصة فى الدولة. ومع مرور الوقت كان أهل البلاد المفتوحة يدخلون فى الإسلام، ويتعمقون فى دراسة القرآن والسنة إلى جانب دراستهم للغة العربية، وعلى عاتقهم إلى جانب وقع عبء التقنين للغة العربية، وكذلك استتباط الأحكام من الشريعة الإسلامية.

والحقيقة أنه ربما كان للكتاب الأوائل العذر عندما قالوا: «أن الخلافة (أى الحكم الدينى) انقلبت إلى ملك (أى حكم دنيوى) على أيام الأمويين». فهم يقصدون بذلك استبداد بنى أمية الذين عمدوا، فى سبيل اقرار سلطانهم، إلى اتخاذ اجراءات ربما لم تكن متسجمة مع مبادئ الإسلام فى بعض الأحيان، وذلك خشية الفتنة أو افتراق الكلمة كما يرى ابن خلدون. وهنا، وفى مجال القانون الجنائى أو قانون العقوبات يمكن الاشارة إلى الاجراءات التى اتخذها زياد بن أبية فى البصرة وفى الكوفة، على أيام معاوية. فهو فى خطبته الشهيرة المعروفة بالبراء يقرر عددا من المبادئ القانونية منها العام، مثل المسئولية الجماعية التى يعبر عنها فى قوله: «لأخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل المدبر»، ومثل الأخذ بالظن والعقوبة على الشبهة، ومنها الخاص مثل سن العقوبات الجديدة للجرائم المستحدثة: فجرمة اغراق شخص عقوبتها تفريق الجنائى، والاحراق عقوبته الحرق وعقوبة نبش القبور هى دفن الجنائى حيا (ابن الأثير، احداث سنة ٤٥ هـ). والذى نلاحظه هنا هو أن زياد بن أبية استخدم القياس فى التقنين للجرائم التى ليس لها نصوص مباشرة فى القرآن والسنة مع المبالغة فى الشدة. ونحن نرى أن اجراءات زياد هذه هى بداية لظهور تشريع جديد سيظل ينمو ويتطور تحت أسماء مختلفة، مثل العرف الذى عمل به منذ زمن بعيد فى كثير من الأقاليم، ومثل ما سيعرف مؤخرا باسم القانون المدنى، ونقصد به المتأثر بالتشريعات الأوربية الحديثة.

ولكنه رغم بداية ظهور هذا اللون من القانون الوضعي في ذلك الوقت المبكر منذ منتصف القرن الأول الهجري (٧م) ، فقط ظلت مبادئ الإسلام هي التي تحكم الدولة. ومنها كان العلماء والفقهاء يستنبطون الأحكام، بفضل التفسير والتأويل إلى جانب الاجماع والرأى والقياس، إلى أن انتهى الأمر بظهور المذاهب السنية الأربعة، واتفاق جمهرة الفقهاء على انتهاء الاجتهاد ابتداء من القرن الرابع الهجري (١٠م).

بدأ ذلك اذن على أيام الأمويين وتم على أيام العباسيين. وهذا يعنى أن النظام العباسي، رغم أنه بدأ بشورة ضد النظام الأموي، ودعوة إلى هدم كل مايمت إليه بصلة، ورغم مايشربه من العودة إلى المبادئ الإسلامية الصحيحة في الحكم، وتحت اشراف الأئمة الجدد من آل البيت، بصفتهم الأئمة على السنن النبوية فانه ترك أمور الحكم تجرى على ماكانت تجرى عليه من قبل، مع مايتطلبه حتمية التغير والتطور. فبعد أن كانت الدولة الأموية تسترشد في الحكم بالتقاليد الرومية (اليونانية - الرومانية) التي كانت معروفة في بلاد الشام ومصر، مالت الدولة العباسية إلى الأخذ بالتقاليد الفارسية في تنظيم الدولة، بحكم أن مركز الشقل انتقل إلى العراق والمشرق الإيراني، حيث عاشت التقاليد السامانية أو الفارسية.

#### خصائص التنظيم الادارى والسياسى فى الإسلام:

وهكذا سارت التنظيمات الغربية (من يونانية ورومانية) والشرقية ( من فارسية وهندية) ، بالاضافة إلى اجتهادات الامراء والولاة فى نظم الحكم والادارة وهى مستقلة جميعا بمبادئ الشريعة الإسلامية التابعة من القرآن والسنة، وماقرره السلف الصالح، لتكون قواعد وأصول الحكم فى الإسلام. وهكذا أصبحت النظم الإسلامية تعنى مجموعة المبادئ والقوانين الإسلامية التى تحكم الدولة، إلى جانب ماعارف عليه الناس من التقاليد والعادات، وما

أقرته الجماعة من أعمال السلف التي اتخذت قوة القانون. وهذا الأمر الأخير يعني أن الاطار التاريخي كان البوتقة التي مزجت كل هذا وصهرته على مر الزمن لتخرج منه نوعا جديدا من قواعد السياسة وأصول الحكم هو النظم الإسلامية<sup>(١)</sup>.

### الاحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردى:

الماوردى هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب، البصرى البغدادى تقلد منصب القاضى، وأصبح أفضى القضاة فى بغداد سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م، ولقد عرف بالتدين والورع. وكتب فى تفسير القرآن والفقه والنحو إلى جانب ماكتبه فى أصول الحكم<sup>(٢)</sup>. ويمثل كتاب الاحكام السلطانية النموذج للفكر السياسى وقوانين الحكم فى الإسلام<sup>(٣)</sup>.

ويتضمن كتاب الاحكام السلطانية، عشرون بابا: فى عقد الامامة، وتقليد الوزارة، وتقليد الإمارة على البلاد، وتقليد الإمارة على الجهاد.. وولاية القضاء الخ. يعتبر الباب الخاص بعقد الإمارة أو الخلافة، وهو أولها أهم الموضوعات التى عالجهها الماوردى، وهو يستند فى معالجته للتقنين للخلافة إلى القرآن والسنة والاجماع إلى جانب السوابق التاريخية.

---

(١) انظر، أ.د سعد زغلول عبد الحميد، سياسة نامة لنظام الملك، تراث الإنسانية المجلد التاسع (٢)، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) انظر، ياقوت، معجم الأدياء، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، طبع مصر، ح ١٥، ترجمة رقم (٢)، ص ٥٢-٥٥ - السيكى، طبقات الشافعية، تحقيق محمود محمد الطناحى، عيسى عبد الفتاح محمد الجلو، طبعة البايى الحلبي، مصر سنة ١٩٦٧، ص ٥٥، ص ٢٦٧-٢٦٨، ترجمة رقم (٥٠٩).

(٣) أ.د سعد زغلول، سياسة نامة، ص ١٧٢.

## الخلافة

الخلافة كما يعرفها ابن خلدون - «هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخرى والدينية، الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به»<sup>(١)</sup>. وبناء على ذلك لا يقبل ابن خلدون «الملك الطبيعي» لأنه فى نظره، «حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة»<sup>(٢)</sup>، كما لا يقبل «الملك السياسي»، الذى يعرفه بأنه «حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار». وعلى ذلك «فكلاهما مذموم لأنه نظر بغير نور الله، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور»<sup>(٣)</sup>.

ولقد اجتمع الفقهاء على ضرورة هذا المنصب، ولكنهم اختلفوا فى هل هو ضرورى شرعا أم عقلا. فالذين قالوا أنه ضرورى عقلا احتجوا بأنه لا بد من وجود رئيس أو زعيم لأى جماعة حتى لا يكون الأمر فوضى، وذلك «لضرورة الاجتماع للبشر» كما يقول ابن خلدون<sup>(٤)</sup>. أما الذين قالوا انه ضرورى شرعا فقد نهبوا إلى أن الشؤون الدينية فى الإسلام لا تنفصل عن الشؤون الدنيوية أو السياسة، فلو أن العقل هو الذى يوجب وجود هذا المنصب، فلن تكون هناك ضرورة لتدبير وتنظيم الأمور الدينية، إذ أنها ليست واجبة عقلا، وهذا ما لا يجوز فى الجماعة الإسلامية وأن جاز فى غيرها. إلى جانب ذلك ينبى الإشارة إلى أن بعض المفكرين (من الخوارج والمعتزلة) من

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٢٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٢٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٨.

أصحاب الأفكار المثالية الذين رأوا أن وجود هذا المنصب ليس ضرورياً - وأنه يمكن للجماعة الاستغناء عنه. «والواجب عند هؤلاء إنما هو امضاء أحكام الشرع، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه. وهؤلاء محجوجون بالإجماع»<sup>(١)</sup> كما يذكر ابن خلدون الذي ينص على «أن الذي حملهم على هذا المذهب إنما هو القرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشرعية معتقة بدم ذلك، والنعي على أهله». ثم يتبع ذلك بقوله: «واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به، وإنما ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات»<sup>(٢)</sup>.

والخلافة مشتقة من الفعل «خلف ي خلف» لأن صاحب المنصب يخلف النبي ﷺ في رئاسة الجماعة الإسلامية، فهو إذن خليفة رسول الله - كما سمي أبو بكر رضي الله عنه. ولقد رأى البعض أن الخليفة إنما هو «خليفة الله» استشهادا بالآية الكريمة التي تقول: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾. والآية التي تقول: ﴿ابني جاعل في الأرض خليفة﴾. والآية التي تقول: ﴿جعلكم خلائف الأرض﴾. وقد رفض أبو بكر أن يطلق عليه لقب «خليفة الله»، وقال: «لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

وكما يقول الماوردي فقد «امتنع جمهور العلماء من جواز ذلك، ونسبوا قائله إلى الفجور» واحتجوا بأن معنى الآية لا يتعلق بهذا الموضوع. كما قالوا: «يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤١-٢٤٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤١.

(٣) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٩.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٥.

والخلافة هي الإمامة إذ أن أول اختصاصات الخليفة وأهمها هي إمامة المسلمين في الصلاة، وخاصة الصلوات الكبرى، وهي أهم فرائض الإسلام. ولقد كان استخلاف الرسول ﷺ لأبي بكر في إمامة الناس في الصلاة - عندما مرض - هي أساس اختياره يوم السقيفة إذ قال الصحابة: «ارتضاة رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدينانا»<sup>(١)</sup>. والإمامة تغلب عليها الصفة الدينية ويطلق على الخليفة أو الإمام لقب «أمير المؤمنين» وهذا اللقب له صبغة دنيوية أكثر منها دينية. ولقد كان الرسول ﷺ يعرف باسم «أمير مكة وأمير الحجاز». ويفهم من رواية ابن خلدون أن أول من حمل لقب أمير المؤمنين هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بوصفه أميراً على جيش القادسية. وانتشر هذا اللقب، وتذكر الرواية أن بعض الصحابة دعوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين «فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به»<sup>(٢)</sup> وتضيف الرواية أن أول من دعا عمر بذلك اللقب، عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيل يزيد جاء بالفتح ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: «أين أمير المؤمنين». ويستشف من الرواية أن عمر لقب في أول الأمر بخليفة رسول الله، ولما كان اللقب ثقيلاً لأن الموقف يتطلب إضافة كلمة خليفة كلما يوبع خليفة جديد، فضل استعمال لقب «أمير المؤمنين» وتوارثه الخلفاء من بعد عمر وغدا «سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم»<sup>(٣)</sup>.

### كيفية الوصول إلى تقلد المنصب:

وصل الخلفاء الأوائل إلى رئاسة الجماعة الإسلامية، حسب مقتضى الأحوال وبشكل انتخابي محدود، إذ اقتصر الأمر على المهاجرين من صحابة

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠١.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠٢.

التي ﷺ. وعلى أيام الأمويين انقلبت الخلافة إلى ملكية يغلب فيها مبدأ الوراثة على مبدأ الانتخاب، واستمر الوضع كذلك على أيام العباسيين. وحتى ذلك الوقت كانت الخلافة واحدة لاتعدد. ثم تكونت دول إسلامية انفصلت عن خلافة بغداد، وحمل أصحابها لقب الإمامة إلى جانب خليفة بغداد، مثل الأمويون في الأندلس الذين حملوا اللقب ابتداء من سنة ٣١٦ هـ / ٩٨٢ م، والفواطم الشيعية في أفريقية (المغرب) ومصر، والخوارج الإباضية في المغرب الأوسط، (الذين حملوا لقب الإمام). أما الدول التي اعترفت بسطان خلافة العباسيين مثل المرابطين في المغرب فانهم اقتصروا على لقب «أمير المسلمين» وهو أقل درجة من «أمير المؤمنين» بينما حمل امراء السلاجقة لقب «السلطان».

«هذا التطور التاريخي هو الذي اتخذ أساسا عند كتاب المسلمين الذين عالجوا فلسفة السياسة، وحاولوا رسم قوانينها، مما ترتب عليه أن قواعد تشريعهم كانت تاريخية أكثر منها اجتهادية فكرية»<sup>(١)</sup>.

ويرى الشيعة «أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتمين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي اغفاله ولا نفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر».

على عكس الشيعة رأى أهل السنة أن هذا المنصب واجب باجماع، فهو من فروض الكفاية، أي الذي يمكن أن يقوم به بعض الناس، كما رأوا أنه اختياري أي انتخابي. هذا الانتخاب أو الاختيار يشترك في القيام به ثلاثة أطراف:

(١) أ.د. سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٨٥.



١ - أهل الاختيار أى الهيئة التى نها حق الانتخاب و هؤلاء يطلق عليهم اسم «أهل الحل والعقد»

٢ - أهل الإمامة أى المرشحون لشغل المنصب السامى

٣ - بقية الأمة وهؤلاء عليهم بعد البيعة طاعة الإمام لقوله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ (١).

والخلافة أو الإمامة حسب رأى الماوردى ماهى إلا «عقد مراضاة واختيار» (٢) والمرشحون لتولى المنصب الخلافى لابد أن تتوفر فيهم شروط خمسة:

١ - العدالة.

٢ - العلم: يجب أن يكون المرشح لتقلد المنصب مجتهدا على الأقل، وذلك أن صاحبه أنما يكون منفذا لاحكام الله.

٣ - سلامة الحواس والأعضاء: من سمع وبصر ولسان وادراك .. وسلامة الأعضاء (من اليدين والرجلين) من نقص يمنع عن استيفاء الحركة، مما يؤثر فى العمل.

٤ - رأى المفضى إلى سلامة الرعية، والتجدة لجهاد العدو وحماية البلاد.

٥ - النسب القرشى، وهذا الشرط لم يجمع عليه كل العلماء . خاصة الخوارج (٣) ولكنه اتخذ أهمية كبرى لأسباب تاريخية.

أولها: ما اجمع عليه فى يوم السقيفة، وما احتجت به قريش على الانصار، لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد، وقالوا: «منا أمير ومنكم أمير»،

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٢.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٧

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٢. الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٦

بقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»، ومن أن الرسول ﷺ «أوصاهم بالأنصار خيرا، وأن يحسنوا إلى محسنهم ويتجاوزوا عن مسيئهم، ولو كانت الامارة فيهم لم تكن الرصية بهم. إلى جانب ما نسب إلى الرسول من أنه قال: «لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش»<sup>(١)</sup>.

والشرط الأخير، وهو اشتراط القرشية، اشتهبه كما يقول ابن خلدون، على كثير من المحققين حتى نفوه، واحتجوا بقوله ﷺ «اسمعوا واطيعوا وأن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبينة». ويقول ابن خلدون «وهذا لا تقوم به حجة، فإنه خرج مخرج التمثيل والغرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة»، ويعلل ابن خلدون ذلك بتغلب الاعاجم على الخلافة وانتقال الحل والعقد اليهم<sup>(٢)</sup>. وهو يؤيد رأى الغالبية من العلماء الذين نادوا بهذا الشرط وفضلوا إمامة القرشي «ولو كان عاجزا عن القيام بأمر المسلمين». وهو يبين أن الحكمة من اشتراط النسب القرشي ليس فقط «التبرك بوصلة النبي ﷺ» لأن التبرك ليس من المقاصد الشرعية انما المقصد من ذلك هو العصية<sup>(٣)</sup>.

أما عن أهل الاختيار، أي من لهم حق الانتخاب، فينبغي أن تتوفر فيهم شروط ثلاثة هي:

١- العدالة.

٢- العلم الذي يتوصل به إلى من يستحق الإمامة.

٣- الرأى والحكمة التي تؤدي إلى اختيار من هو للإمامة أصلح.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٥، الفصل السادس والعشرون (في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه).

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٤٥.

والذين تتوفر فيهم هذه الشروط هم أهل الحل والعقد، وعليهم مسئولية تعيين الإمام

وقد اختلف في عدد من تتعد به الإمامة من أهل الحل والعقد، فقالت جماعة «لا تتعد - أى الإمامة - إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاما والتسليم لإمامته إجماعا. ولكن الظروف التاريخية - والعرف - انتهت بتقرير أن الموجودين في بلد الإمام هم الذين يتولون وخدمهم عقد الإمامة، وذلك لسبق علمهم بموت الإمام، ولأن من يصلح للخلافة فى الأغلب موجودون فى بلده»<sup>(١)</sup>. فهذا هو ما حدث فى بيعة أبى بكر رضى الله عنه بالخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر بيعته قدوم غائب عنها. ونفس الشيء بالنسبة لعمر وعثمان رضى الله عنهما. وهذا ما حدث عندما تم انتخاب على، وعندما ظهرت بوادر الفتنة، وأعلن البعض عدم شرعية خلافة على رضى الله عنه، ونادوا بانتظار عودة كبار الصحابة من الامصار حتى يتم الاجماع، اشتبه الأمر على الكثيرين، ولما كانت وسائل المواصلات صعبة، ومن الخطورة أن يظل منصب الخلافة شاغرا، حتى يجتمع كبار الصحابة من أهل الحل والعقد، رأى المحققون - فيما بعد - أن الموجودين فى بلد الإمام منهم هم أصحاب الحق وخدمهم فى تعيينه. وهكذا «اتفقوا على بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين، وصوبوا رأيه (على) إذ قال : «أن بيعته اتعدت ولزمت من تأخر عنها»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا ضاقت دائرة أهل الحل والعقد، وأصبحت قاصرة على أهل الحاضرة فقط، وستضيق عندما ينظر فى العدد المناسب منهم، فتترك فكرة الإجماع، ويؤخذ بالشواهد التاريخية، وبناء على ذلك قالت طائفة - من

(١) المارردى، الاحكام السلطانية، ص ٦-٧

(٢) انظر ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧٨ - ٢٧٩

الفقهاء - من أهل الصرة ، أن أهل الحل والعقد الذين يعينون الإمام يجب  
الايقل عددهم عن خمسة، كما حدث في بيعة أبي بكر رضى الله عنه، إذ  
انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس. وقد جعل عمر رضى الله  
عنه «الشورى في ستة ليعقد لاحدهم برضا الخمسة»<sup>(١)</sup>.

هذا وذهب علماء الكوفة إلى مقارنة عقد الإمامة بعقد الزواج، فحددوا  
عدد أصحاب الاختيار بثلاثة، يقوم اثنان منهم باختيار الثالث «ليكونوا حاكما  
وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين» وقالت طائفة أخرى انعقد  
بواحد، وضربوا لذلك مثلا بالعباس عم النبي عندما قال لعلى رضوان الله  
عليهما: «أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله بايع أبني عمه فلا  
يختلف عليك اثنان»<sup>(٢)</sup>.

كيفية عقد الإمامة وولاية العهد:

ويتم عقد الإمامة من وجهين:

١- باختيار أهل الحل والعقد.

٢- بعهد الإمام من قبل.

بعد موت الإمام يجمع أهل الحد والعقد للاختيار، فينظروا في المرشحين  
لتولى المنصب، ويستعرضوا أحوال من يستحق تقلد خطة الإمامة. وعليهم أن  
يقدموا أكثر الناس «فضلا وأكملهم شروطا ومن يسرع الناس إلى طاعته  
ولا يتوقفون عن بيعته»<sup>(٣)</sup>. وذلك حسب مقتضى الأحوال والوقت. فإذا كان  
الوقت حرب وفتن، روعى اختيار الأشجع، وإذا كان وقت سلام واستقرار،

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٧

(٢) نفس المصدر، ص ٧

(٣) نفس المصدر ص ٧

روعى اختيار الأعلّم. وإذا تكافأ في شروط الإمامة اثنان قدم أسنهما. وبعد أن يختار أهل الحل والعقد أفضل المرشحين للإمامة عليهم أن يعرضوها عليه لكي يقبلها أو يرفضها، فإن امتنع عن قبولها ولم يجبر عليها لأنها عقد مرضاة واختيار لا يدخله إكراه ولا اجبار» (١).

وفي حالة إذا ما تنازعا أكثر من واحد، كأن يقع الاختيار على واحد من اثنين في تنازعاها، فقد اختلف الفقهاء في هذا الأمر فقال البعض بعدم أهليتهما جميعا والعدول عنهما إلى غيرهما، وقال آخرون يعمل القرعة بينهما ويقدم من قرع منهما. ورأى البعض أن الرأي الأخير، لأهل الاختيار رأى أهل الحل والعقد - «بالخيار في بيعة أيهما شاءوا من غير قرعة» (٢).

ويعرض الماوردي بعض أمثلة لهذه المشاكل، والحلول التي يراها: مثل أن يسابع أسلم ثم يظهر بعد ذلك من هو أفضل منه، هنا تكون بيعة الأول صحيحة، حسب مبدأ «جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل، لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار» (٣).

وقد تعتقد الإمامة، كذلك، لامامين في بلدين مختلفين، وهنا لا تصح امامتهما لأنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد بحسب رأى أغلبية الفقهاء، ولو أنه وجدت أقلية منهم أجازت ذلك تحت ضغط الظروف التاريخية. واختلف في حل هذا الاشكال، فقال بعض الفقهاء بأحقية الذي وجد في البلد الذي مات فيه الإمام. وقال البعض بل ينبغي على كل منهما أن يتركها لأهل الحل والعقد، ورأى آخرون يعمل القرعة بينهما «دفعاً للتنازع وقطعا للتخاصم». ولكن الماوردي يقول: بما أن الإمامة عقد، فهي

(١) نفس المصدر، ص ٧.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٨.

(٣) نفس المصدر، ص ٨.

اذن أقرب ما تكون إلى عقد الزواج، وبناء على ذلك فهي لأسبق المتنازعين في البيعة، مثلها في ذلك مثل أهل المرأة إذا زوجها باثنين<sup>(١)</sup> كان النكاح لاسبقهما عقدها<sup>(٢)</sup>. وإذا حدث واختلف في أيهما أسبق لم يجز أخذ رأيهما كما ليس لهما أن يحلفا عليهما، إذ أن الحق فيها ليس من اختصاصهما، «إنما هو حق المسلمين جميعاً». وإذا طالت مدة الاشتباه بطل عقدي الإمامة، وأصبح لأهل الحل والعقد الحق في اختيار إمام جديد<sup>(٣)</sup>.

هذا عن المبدأ الأول وهو الاختيار في تعيين الإمام

أما عن المبدأ الثاني وهو العهد من قبل الإمام السابق، وهو شبيه بإشراك ولي العهد في الحكم حتى إذا قامت الإمام اعترض ولي العهد العرش، ولم يخل المنصب. وهنا يكون نصوت المنتخبين في هذه الحالة ليس ضرورياً. وهكذا ظهرت نظرية ولاية العهد بالتعيين التي أجمع الفقهاء على جوازها لأسباب تاريخية أولها: عهد أبي بكر إلى عمر<sup>(٤)</sup> بمحضر من الصحابة وأجازوه، وثانيهما: عهد عمر إلى أهل الشورى واتفاق الجماعة على صحة هذا العهد<sup>(٥)</sup>.

ولكن في هذين المثالين فإن المعين لولاية العهد لم يكن من قرابة الإمام. والذي حدث فيما بعد، أن ولاية العهد انحصرت في عائلة الإمام، وكان المقدم دائماً ابن الخليفة، واختلفت الآراء في صحة هذا المبدأ. فرأى البعض أنه يجوز أن ينفرد الإمام بالعهد إذا لم يكن المعين ابنه أو والده، واقتصر البعض على حالة الولد فقط دون الوالد - واشترط آخرون موافقة أهل الحل والعقد حتى لا يطنخي مبدأ الوراثة على مبدأ الانتخاب.

(١) الماوردي، ص ٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٢ - الماوردي، ص ١٠.

ولكن الرأى الأخير قال بجواز انفراد الإمام بعقدها للولد أو للوالد، حتى لا تسفه السوابق التاريخية. ويرى ابن خلدون أنه «لا يتهم الإمام فى هذا الأمر .. لأنه مأمون على النظر لهم فى حياته، فأولى أن لا ياحتمل فيها تبعة بعد مماته .. فانه بعيدا على الظنة فى ذلك كله، لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من ايشار مصلحة أو توقع مفسدة فتتفى الظنة عند ذلك رأسا»<sup>(١)</sup>. وهو يعطى مثلا لذلك بعهد معاوية لابنه يزيد ويرى أن ذلك العهد كان مثار أخذ ورد لأن يزيد لم يكن فوق مستوى الشبهات<sup>(٢)</sup>. ولكن ابن خلدون يحتج بعادلة معاوية ويعلل فعله ذلك بقوله: «والذى دعا معاوية لا يشار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حيثئذ من بنى أمية، اذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم. فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أن أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الاهواء»<sup>(٣)</sup>.

ولا يعين الإمام ولى العهد فقط، بل يجوز له كذلك أن ينص على تعيين أهل الاختيار، والمثل لذلك ما فعله عمر مع أهل الشورى. ويجوز للإمام أن ينص على أهل العهد كذلك فيرتبهم، وأن يعهد لأكثر من واحد، ويضرب لذلك مثلا بما فعله النبي ﷺ، فقد جعل ثلاثة قواد على جيش مؤته. وعمل بهذا المبدأ فى الدولتين الأموية والعباسية، وهو الأمر الذى لم ينكره علماء العصر. فسلیمان بن عبد الملك عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده إلى يزيد بن عبد الملك، وقد رتبها الرشيد رضى الله عنه، فى ثلاثة من بنيه، فى

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

الأمين ثم المأمون ثم المؤمن، عن مشورة من عاصره من فضلاء العلماء<sup>(١)</sup>.  
ولئن لم يكن سليمان حجة كما يقول الماوردي، فأقرار من عاصره من علماء  
التابعين ومن لا يخافون في الله لومة لائم هو الحجة.

### معنى البيعة:

عن طريق البيعة - وبعد قبول المرشح - يتأكد عقد الإمامة بالاختيار أو  
بالمعهد. والامر كذلك بالنسبة لولاية العهد. ويعرف ابن خلدون البيعة بقوله  
«هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في  
أمر نفسه وأمر المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به  
من الأمر على المنشط والمكروه». أما عن اشتقاق الكلمة فهي من باع يبيع.  
وقد جرت العادة على أنهم إذا «بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في  
يده تأكيداً للعهد، كما يفعل البائع والمشتري»<sup>(٢)</sup>.

وبدخول التقاليد الكسروية - الساسانية - في بلاط الخلافة، أصبح  
المبايع يقبل الأرض بين يدي الأمير، أو يقبل يده أو رجله أو ذيل الثوب<sup>(٣)</sup>.

وقد غلب على البيعة الاكراه، وفقدت صفة الاختيار، ولهذا أفتى فقيه  
دار الهجرة مالك بن أنس بسقوط يمين الاكراه في البيعة، وذلك عندما قال  
لأهل المدينة عند ثورة محمد النفس الزكية، «ليس على مكره يمين»<sup>(٤)</sup>.

وإذا تم عقد الإمامة أو ولاية العهد بالبيعة لا يجوز عزل صاحبها ما لم يخل  
بشروط الأهلية. وإذا قبض الخليفة انتقلت الخلافة إلى ولي العهد، ونفس

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٠.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧١.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٠-٣٧١ - انظر، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، أحداث سنة ١٤٥هـ.



الشيء يحدث اذا ما خلع الخليفة نفسه أما ولي العهد فاذا استعفى فان ولايته للعهد لا تبطل حتى يقبل استعفاؤه، وذلك بعد وجود غيره «للزومه من جهة المولى» (١).

وفي حالة اذا ما انتقلت الإمامة إلى ولي العهد، وكان هناك من يليه في الولاية، اختلف الفقهاء فيما اذا كان للإمام الجديد الحق في أن يعهد بولاية عهده إلى آخرين. ورأى البعض أنه لا يجوز له ذلك إلا اذا قبل صاحب الولاية أن يتنازل عنها طوعاً، وضربوا لذلك مثلاً ما فعله المنصور بعبسى بن موسى وعهده لابنه المهدي. ولكن الرأي الذي عليه جمهور الفقهاء، والظاهر من مذهب الشافعي رحمه الله هو: «أنه يجوز لمن أفضت إليه الخلافة من أولياء العهد أن يعهد بها إلى من شاء ويصرفها عن من كان مرتباً معه» (٢).

وإذا استقرت الخلافة لمن تقلدها سواء عن طريق الاختيار أو العهد، فان على الأمة جميعاً أن تعرف باعتلاء الإمام الجديد عرش الخلافة، وأن تعرف الخليفة بصفاته اذا لا يلزم «أن يعرفوه بعينه واسمه الا أهل الاختيار» (٣).

### واجبات الخليفة:

وتتلخص واجبات الخليفة في الآتي:

- ١ - المحافظة على الدين من خطر البدع والزيغ واقامة الحدود.
- ٢ - تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين، حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم. أو بعبارة أخرى اقامة العدل بين الناس.

(١) الماردي، الاحكام السلطانية، ص ١١

(٢) الماردي، ص ١٤

(٣) الماردي، الاحكام السلطانية، ص ١٥

٣- حماية البيضة والدفاع عن الحريم وتحقيق الامن للناس في معابشهم حتى ينتشروا في الاسعار آمين

٤- اقامة الحدود.

٥- تخصيص الثغور.

٦- جهاد من خرج على الإسلام حتى يسلم أو يدخل في العهد

٧- جباية الاموال الشرعية: الفىء والصدقات «على ما أوجه الشرع»

٨- تقدير العطايا لمن يستحقها من بيت المال دون اسراف أو تقتير.

٩- تقليد وتفويض بعض سلطاته إلى الأمناء والنصحاء من العمال.

١٠- أن يباشر الأمور بنفسه ويتصفح الاحوال، لينهض بسياسة الأمة، وحراسة

الملة، ولا يعول على التفويض ... اذ قد يخون الأمين ويغش الناصح<sup>(١)</sup>.

والا يتشاغل عن واجباته هذه بلذاته.

أما عن حقوقه تجاه الأمة. فله عليها الطاعة والتصرة، طالما يقوم بواجباته

خير قيام.

أما عن الظروف والاحداث التي تؤدي إلى فقدان الامام لامامته فهي:

١- الجرح في عدالته بارتكابه المحظورات والتعلق بالشبهات أى البدع

والضلال.

٢- النقص في بدنة ، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

أ- نقص الحواس وهو ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام.

---

(١) المازدي، ص ١٥- ١٦

- ١ - منها ما يمنع من الإمامة مثل زوال العقل والبصر.
  - ٢ - منها ما لا يمنع مثل: الخشم في الأنف وفقد الذوق.
  - ٣ - منها ما اختلف في قدر خطره مثل: الصم والخرس<sup>(١)</sup>.
- ب - فقد الأعضاء وهذا ينقسم إلى أربعة أنواع هي:
- ١ - ما يمنع من الإمامة مثل: فقد اليدين أو الرجلين لأنه يمنع من العمل.
  - ٢ - ما يمنع واختلف فيه مثل: فقد إحدى اليدين أو الرجلين، لأنه يمنع من بعض العمل.
  - ٣ - ما لا يمنع واختلف في منعه من ابتداء عقد الإمامة، مثل: ما يشين ويقبح، ولم يؤثر في عمل ولا في نهضة من جدع الأنف وسمل إحدى العينين.
  - ٤ - ما لا يمنع فلا يؤثر في رأى ولا عمل مثل: «قطع الذكر والاثين»<sup>(٢)</sup>.
- ج - نقص التصرف وهو على ضربين:
- ١ - الحجر: وذلك بأن يستولى عليه من أعوانه من يستبد بتنفيذ الأمور في غير تظاهر بعصية، وهذا ما لا يمنع من الإمامة.
  - ٢ - القهر: وذلك بأن يصير مأسورا في يد عدو. وهذا يمنع من الإمامة<sup>(٣)</sup>.
- ويختتم الماوردي الباب الخاص بعقد الإمامة بما يصدره الخليفة من أنواع الولايات وهو يقسمها إلى أربعة أقسام:

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٧ - ١٨.

(٢) الماوردي، ص ١٨ - ١٩.

(٣) الماوردي، ص ١٩ - ٢٠.

- ١- من تكون ولايته عامة في الأعمال العامة، مثل الوزراء
- ٢- من تكون ولايته عامة في أعمال خاصة، مثل امراء الاقليم
- ٣- من تكون ولايته خاصة في الأعمال العامة مثل. قاضي القضاة، ونقيب الجيوش، وحامي الثغور
- ٤- من تكون ولايته خاصة في الأعمال الخاصة، مثل: قاضي البلد أو الاقليم أو مستوفى خراج<sup>(١)</sup>.

---

(١) المازدي، الاحكام السلطانية. ص ٢٠

## السوزرة

وهي كما عرفها ابن خلدون «أم الخطط السلطانية والرنب الملوكية»<sup>(١)</sup>.  
ويعتبر الوزير أهم موظف في الدولة، بعد الخليفة.

والكلمة عربية الأصل، كما ينص على ذلك الكتاب، وهي مشتقة أما من المؤازرة وهي المعاونة، أو أنها مأخوذة من الوزر وهو الثقل والحمل، فكان الوزير قد حمل عن الأمير ائقاله وأوزاره. أو من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر<sup>(٢)</sup>. والكلمة موجودة في القرآن، كما ورد به أيضا اختصاصات صاحبها اذ تقول الآية على لسان موسى: «واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى»<sup>(٣)</sup>.

هذا بينما يرى بعض المشرقين أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من فيشيرا Vi-Chira ومعناه الامر أو التقرير.

ويقول ابن خلدون ان النبى ﷺ كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخصر مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره، ويتبع ابن خلدون ذلك بقوله: «وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر»<sup>(٤)</sup>. ولكنه يقرر أن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين لذهاب ربة الملك بسذاجة الإسلام. أما مايقوله بعض الكتاب من أنه بعد أن عظم (استفحل) الملك بعد ذلك «ظهر المشاور والمعين فى أمور القبائل

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٤١٩.

(٢) المارودى، الاحكام السلطانية، ص ٢٤.

(٣) المارودى، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٢٠.

والعصائب واستثلافهم، واطلق عليه اسم الوزير<sup>(١)</sup> وذلك على أيام دولة بى أمية، فهو غير صحيح والمقصود بذلك هو الكاتب الذى كان يوكل إليه حفظ السجلات (الدواوين) وتدبير المراسلات، وكان معظمهم من الموالى وأهل الذمة.

أما منصب الوزير بمفهومه المعروف فلم يظهر الا على أيام الدولة العباسية وذلك عندما «صارت - إلى الوزير - النيابة فى انفاذ الحل والعقد»<sup>(٢)</sup>. وأول من حمل اللقب هو أبو سلمة الخلال «وزير آل محمد»، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الإسم، لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها من الدول، كما يقول ابن خلدون<sup>(٣)</sup>. وبعد ذلك ظهرت أسر توارث أفرادها خطة الوزارة أشهرها أسرة البرامكة. وأول من تقلد الوزارة منهم خالد بن برمك. ثم استفحل سلطان الوزير حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إلى عموم نظره وقيامه بالدولة<sup>(٤)</sup>.

وفرق الفقهاء بين نوعين من الوزارة، احدهما وزارة التنفيذ، وفيها يعمل الوزير بأمر الأمير، والأخرى وزارة التفويض، وفيها يستبد الوزير بالامر من دون الخليفة كما يقول ابن خلدون<sup>(٥)</sup>. وعندما غلب على الدولة العباسية قواد الترك وصار اليهم الحل والعقد «استكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب» وتركوا اسم الوزارة إلى من يتقلدها للخليفة من معاونيه واتخذوا لقب «أمير الأمراء». ثم عندما ملكوا الدولة تلقبوا بلقب السلطان<sup>(٦)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٢ - ٤٢٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

أما دولة بنى أمية بالاندلس فقد احتفظوا بالتقاليد الشامية فى ادارة دولتهم بالاندلس، فاتخذوا فى أول الأمر الحاجب، ثم عظمت اختصاصاته حتى قرئت من اختصاصات الوزير فى بغداد، ولكنهم لم يتخذوا الاسم الذى استخدمه العباسيون بل ظلوا يحتفظون لمن يعاونهم بلقب الحاجب. وعلى أيام عبد الرحمن (الثانى) بن الحكم الرضى تطورت الحجابة حتى أصبحت أشبه ماتكون برياسة الوزارة فى العصر الحديث، ولكن ظل صاحبها يحمل نفس اللقب. وفى ذلك يقول ابن خلدون عن أموى الاندلس: «وأما دولة بنى أمية بالاندلس فأنقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته اصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا: فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللنظر فى أحوال أهل الشهور وزيرا، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش متضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له. وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب....»<sup>(١)</sup>.

أما أشهر الحجاب فى الأندلس قاطبة فهو المنصور بن ابي عامر الذى غلب على الخليفة فى قرطبة.

ولقد ورثت دول المغرب من الاندلس نظام الوزارة مثل : الموحدىن حيث حمل لقب الوزير من يعاون الأمير وبعض كبار رجال الدولة. ومثل دولة الحفصيين فى تونس التى اتخذت ثلاث وزراء، وزير الرأى والمشورة (وكان له التقديم)، وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، ووزير

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢٤-٤٢٥.

الحسبان والديوان (صاحب الاشغال)، وهو ينظر في الدخل والخرج، والثالث للرسائل (القلم)<sup>(١)</sup>.

واستمر الحال على ذلك في دول المغرب، فخطبة الوزارة أما واحدة أو متكررة حسب حداثة الدولة أو عراقتها وتحضرها.  
الوزارة في كتاب الاحكام السلطانية للماردي:

فيما يتعلق بالناحية النظرية، وهي المتعلقة بطبيعة المنصب وشروط وكيفية شغله، فقد تكلم فيها الفقهاء وهي ملخصة في كتاب الاحكام السلطانية للماردي. وهذه الناحية ليست نظرية مجردة أو اجتهادية صرفة، كما قد يظن، انما هي مبنية على أسس تاريخية أي أنها تستمد أصولها من الواقع والتاريخ<sup>(٢)</sup>.

وقد قسم الفقهاء الوزارة في الإسلام إلى نوعين: الأول هو الوزارة بمدلولها المعروف، أي بمعنى النيابة عن ولي الأمر في إدارة شؤون الدولة، وهي التي أطلقوا عليها اسم وزارة التفويض. ومع أن كتاب السياسة يصرون على أن يباشر الأمير أموره بنفسه إلا أن الفقهاء وجدوا في القرآن سندا شرعيا للتقليد الذي ابتدعه العباسيون عندما عهدوا بسلطاتهم إلى الوزير حتى أصبح شريكا لهم في الحكم. فموسى عندما يطلب أن يكون أخوه هارون وزيرا له، يقول: «واشركه في أمرى». فاذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة أجوز<sup>(٣)</sup>.

والنوع الثاني هو الوزارة بمعنى المعاونة والمساعدة لولي الأمر في مباشرة

(١) المصدر السابق، ص ٤٢٧.

(٢) أ.د سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٩٩.

(٣) الماردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٢.



شئون الدولة حسب الجزء الأول من الآية: «أشدد به أزرى». فصاحب هذه الوزارة هو مساعد ومعاون للأمير. ولذلك سميت هذه الوزارة باسم «وزارة التنفيذ». وهي أقل رتبة من الأولى. وقد ترتب على اختلاف طبيعة كل من النوعين، واختلاف اختصاصاتهما أن اختلفت القواعد والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتقلد كل منهما.

### وزارة التفويض:

بوصف وزير التفويض نائبا للإمام يدخل في اختصاصاته المباشرة الحكم، أى الشئون السياسية، والنظر فى المظالم (القضائية)، وينفرد بتسيير الجيوش وتديير الحروب (العسكري)، وأن يتصرف فى أموال بيت المال (المالية) وأن يستبد بتقليد الولاية (الادارية). ولذلك كانت الشروط الواجبة فىمن يتولى هذا المنصب هى نفس الشروط الواجبة فىمن يتقلد منصب الإمامة، الا شرط واحد هو النسب، فليس من الواجب أن يكون الوزير قرشيا. ولكن يحتاج إلى شرط زائد على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج خيرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فانه مباشر لهما تارة ومستتبع فيهما أخرى، فلا يصل إلى استتابة الكفاية الا أن يكون منهم<sup>(١)</sup>.

هذا وهناك صفات يجب أن يتحلى بها الوزير، تلخص فيما كتبه المأمون فى اختيار وزير فيجب أن يكون «جامعا لخصال الخير، ذاعقة فى خلاته واستقامة.. قد هذبتة الآداب وأحكمتة التجارب، أن أؤتمن على الاسرار قام بها وأن قلده مهمات الأمور نهض فيها، يسكنه الحلم، وينطقه العلم.. له صولة الامراء، واناة الحكماء وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء.. يسترى قلوب الرجال بخلاية لسانه وحسن بيانه<sup>(٢)</sup>. هذه الأوصاف اذا كملت فى الزعيم

(١) المازدى، الاحكام السلطانية، ص ٢٢.

(٢) المازدى، ص ٢٢.

وقل ماتكمل فالصلاح بنظره عام، وما يناط برأيه وتدييره تام<sup>(١)</sup>.

التقليد:

إذا كملت شروط الوزارة هذه فيمن هو أهل لتولى المنصب فلا بد لصحة تقليده من لفظ الخليفة، بمعنى أنه يجب على الخليفة أن يشرح لمن استوزره طبيعة العمل الموكول إليه إذ أن هذه الولاية محتاج إلى عقد والعقود لا تصح إلا بالقول الصريح<sup>(٢)</sup>. وبناء على ذلك أن وقع له (كتب له) بالنظر فهو غير كافي وأن امضاء الولاة عرفاء، ولكن ينبغي أن يشمل لفظ التفويض على شرطين معاً:

١- عموم النظر (اختصاصات عامة).

٢- النيابة (عن ولي الأمر).

والمثل لذلك أن يقول له: «قد قلدتك ما إلى نيابة عني» ففي ذلك يتضح الجمع بين عموم النظر والاستتابة. أما إذا قال له: «تب عني فيما ألي» فمع أنه جمع الوجهين في هذا اللفظ جاز أن يكون الأمر موضع شك لأن هذا إذن يحتاج إلى أن يتقدمه عقد والأذن في أحكام العقود لا تصح به العقود. هذا، ولو أنه لا يتطلب «فيما يباشره الخلفاء وملوك الأمم من العقود العامة ما يراعى في الخاصة من الشروط المؤكدة لأمرين: أحدهما أن من عادنهم الاكتفاء بيسير القول والاشارة. والثاني، أن قلة العقود التي يقومون بها توجب حمل لفظهم المجمع على الغرض المقصود دون الاحتمال المجرد<sup>(٣)</sup>.

(١) الماردي، ص ٢٢.

(٢) الماردي، ص ٢٢.

(٣) الماردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٢، أ.د. سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص

## سلطات وزير التفويض:

بعد أن يتم تقليد الوزير يصبح له الحق في ممارسة كل سلطات الخليفة، ولكن رغم عموم النظر فهناك شرطان يقع الفرق بهما بين الإمامة والوزارة:

١- أحدهما خاص بالوزير، فعليه أن يطلع الإمام لما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد (أي الحصول على موافقة الإمام باستمرار) «لئلا يصير بالاستبداد كالإمام».

٢- والثاني خاص بالإمام، وهو أن يتصفح أعمال الوزير وتديبره للأمر ليقر الصحيح منها، ويستدرك المخالفات التي وقع فيها «وباستثناء ذلك تكون سلطات الوزير واسعة، إذ هي مستمدة من سلطات الإمام، وناقذة مثلها إلا ثلاثة أشياء:

- ١- ولاية العهد، فإن الإمام من حقه أن يعهد لمن يرى ولا يجوز ذلك للوزير.
- ٢- الاستعفاء، يجوز للإمام أن يستعفى الأمة من الأمامة، وليس ذلك للوزير.
- ٣- للإمام الحق في أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام<sup>(١)</sup>.

وهذا الشرط الأخير ليس مطلقاً. ففي حالة الأحكام التي نفذت أو الأموال التي صرفت في أوجهها الصحيحة لا يجوز للإمام نقضها. أما فيما يختص بتقليد الولاية أو تجهيز الجيوش وتديبر حرب فيجوز للإمام أن يعارض في تصرفات الوزير. وهناك أمثلة لتنازع الاختصاص بين الإمام والوزير: ففي حالة إذا ما قلده الإمام واليا على عمل وقلده الوزير غيره على نفس العمل، تصح ولاية الأول إذا كان الإمام يعلم بأمر من ولاء الوزير؛ أما إذا كان لا يعلم فتقليد الوزير أثبت<sup>(٢)</sup>.

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) الماوردي، ص ٢٥.

## وزارة التنفيذ:

أما عن وزارة التنفيذ فحكمتها أضعف وشروطها أقل من وزارة التفويض، أما عن طبيعة عمل وزير التنفيذ فهو وسيط بين الإمام وبين الرعايا والولاية، ينفذ أوامر الإمام، ويمضى أحكامه فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلدا لها، وربما كانت طبيعة عمله أشبه بالواسطة أو السفارة، ومن الجائز أن يشارك الإمام في الرأي، ولذلك كان عمله أقرب إلى عمل الوزير<sup>(١)</sup>.

## شروط وزارة التنفيذ:

ليست هناك شروط صعبة لشغل هذا المنصب إنما يجب أن تتوفر في صاحبه سبع (٧) خصائص، أو ثمان:

- ١- الأمانة حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه ولا يقش.
  - ٢- صدق اللهجة، حتى يوثق بخبره فيما يؤديه (أى حسن التدبير).
  - ٣- قلة الطمع حتى لا يرتشى فيما يلي.
  - ٤- يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء.
  - ٥- أن يكون ذكورا لما يؤديه للخليفة (أى يتمتع بقوة الذاكرة).
  - ٦- الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشبهه.
  - ٧- ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل.
- هذا إذا اقتصر عمله على الوساطة، أما إذا كان الوزير مشاركا في الرأي فهناك إلى جانب هذه الخصال خصلة ثامنة، هي:

---

(١)، ص ٢٦.

٨- الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صحة الرأي وصواب التدبير فان في التجارب خبرة بعواقب الأمور<sup>(١)</sup>.

وإذا وجد من استوفى هذه الشروط فالتقليد ليس ضروريا لكي يقوم بمهامه بل يكفي اذن الإمام. كما أن شرطى الحرية والعلم ليسا واجبين لأنه لن يتفرد بولاية ولاتقليد. ولا يجوز اسناد هذا المنصب إلى امرأة «لما تضمنه من معنى الولاية المصروفة عن النساء»، ولأن فيها من طلب الرأى وثبات العزم ماتضعف عنه النساء، وكذلك الظهور المحظور عليهن. ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، «وأن لم يجر أن يكون وزير التفويض منهم».

ومن الجائز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ على اجتماع وانفراد - وذلك كما كان يحدث فى الأندلس - أما وزير التفويض فهو أشبه بالإمام، فكما لايجوز تقليد أمامين لأنهما ربما تعارضا فى العقد والحل والتقليد والعزل وقد قال الله تعالى : « لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا » ، فانه لايجوز تقليد وزيرى تفويض ، لانهما ربما تنازعا على الاختصاص<sup>(٢)</sup>.

### مشاكل التقليد لوزيرين :

يورد الماوردى بعض القضايا التي قد تعترض مشكلة تقليد وزيرى تفويض معا. وأولها أن هذا التقليد باطل اذا صدر لهما فى وقت واحد. وأن قلده أحدهما بعد الآخر، كان تقليده باطلا. وفساد التقليد بدوره ينتج عنه بعض المشاكل ، اذ أن بطلان التقليد ليس كالعزل، وذلك أن العزل لايمنع من نفوذ الأوامر والأحكام التي سبق أن أصدرها أو نفذها المعزول بينما يبطلها فساد التقليد.

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) الماوردى ، ص ٢٧ .

ويمكن للإمام أن يقلد وزيرى تفويض وذلك على شرط أن يمضيا الأمور  
سويا، فلا يجوز لاحدهما أن ينفرد بأمر. أما ماختلفا فيه فلا نفاذ له. ويمكن  
للإمام أيضا أن يستوزر وزيرى تفويض على أن لا يشرك بينهما فى النظر ويفرد  
كل واحد منهما بما ليس فيه للآخر نظره. أى يفرق بين اختصاصات كل  
منهما، والمثل لذلك أن يولى أحدهما وزارة بلاد المشرق والآخر وزارة بلاد  
المغرب، فيكون عام النظر خاص العمل.

ويجوز بطبيعة الحال للخليفة أن يقلد وزيرين إذا ما كان أحدهما وزير  
تفويض والآخر وزير تنفيذ، فيكون وزير التفويض مطلق التصرف، ووزير التنفيذ  
مقصورا على تنفيذ ماوردت به أوامر الخليفة، ولا يجوز لوزير التنفيذ أن يولى  
معزولا ولا أن يعزل مولى، ويجوز لوزير التفويض أن يولى المعزول ويعزل من  
ولاه ولا يعزل من ولاء الخليفة.

وإذا عزل الخليفة وزير التنفيذ لم يعزل به أحد من الولاة، وإذا عزل  
الخليفة وزير التفويض اعزل به عمال التنفيذ، ولم يعزل به عمال التفويض،  
لأن عمال التنفيذ وعمال التفويض ولاية.

ويختتم الماوردى الباب الخاص «بتقليد الوزارة» بشرعية وزراء الامراء  
والملوك والمتغلبين على الاطراف، فيقول: «وإذا فوض الخليفة تدير الاقاليم  
إلى ولايتها ووكل النظر فيها إلى المستولين عليها كما الذى عليه أهل زماننا،  
جاز لمالك كل اقليم أن يستوزر وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة  
مع الخليفة فى اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين<sup>(١)</sup>».

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٨ - ٢٩.

الفصل الثالث

القضاء

## القضاة

لم يفكر المسلمون الا قليلا في المبدأ الذي يقضى بالفصل الأساسى بين السلطتين: القضائية والتنفيذية، وكان هذا أيضا هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور. فقد كان النبي هو القاضى الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه. ثم أن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة، كما يحكى عن المختار، فانه كان يجلس للقضاء بنفسه، وقد نشط في ذلك وأحسن، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة. ولهذا السبب نفسه لم يحدد اختصاص القاضى بالنسبة لاختصاص الوالى تحديدا دقيقا. وقد احتفظ الوالى لنفسه بما كان «يعجز عنه القاضى». وإذا لم يقبل الوالى حكم القاضى لم يكن أمام القاضى الا ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس فى منزله مضربا على الاقل. ولكن مثل هذا الاهمال لحكم القاضى لم يكن كثير الوقوع، فلم يذكر الكندى صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة التصادم بين حكم القاضى وبين الوالى فى مسائل مما يمس الاحوال الشخصية الا حادثتين طوال القرون الأولى، وكان احدى هاتين الحادثتين مسألة هامة جدا من حيث المبدأ، وذلك أن امرأة تزوجها رجل ليس من أكفائها، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزواج، وترافعوا إلى القاضى ليفسخ النكاح، فأبى، فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضى بفسخ النكاح، فامتنع أيضا، ثم فرق الأمير بينهما. ونجد هنا اصطداما ما بين مبدأين: المبدأ العربى القائم على الارستقراطية والدم، ومبدأ الإسلام الديمقراطى الذى يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة «ان أكرمكم عند الله أتقاكم».

وكان من أثر القضاء على الادارة الاقطاعية فى عهد العباسيين أن خرج



القاضي عن سلطان الوالي، وصار يعينه الخليفة مباشرة أو يقر تعيينه على الأقل. وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولي قضاء الامصار من قبله. ولما قدم هارون بن عبد الله قاضيا على مصر من قبل المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٢٣ م) جلس معه صاحب البريد في مجلسه، فأخرجه منه، وقال: هذا مجلس أمير المؤمنين، ليس يجلس فيه أحد الا بأمره. وظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى في العصور السيئة، باعتبار أن القضاء آخر ما بقي من المناصب الهامة. ولما بويح للمستكفي عام ٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م، وجلس على عرش الخلافة، سأل عن القضاة وكشف عن أمر الشهود بالحضرة، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم، فامتثل القضاة ما أمر به وقال العامة ساخرين: «إلى هنا بلغ سلطانه وانتهى في الخلافة أمره ونهيه». وفي سنة ٣٤٢ هـ - ٩٣٥ م سلم الاخشيد قضاء مصر إلى أبي بكر بن الحناد، فألف البعض فيه الاشعار متهمكين، لأنه تولى القضاء من قبل الاخشيد لا من قبل الخليفة. وفي سنة ٣٥٤ هـ - ١٠٠٤ م قلد السلطان بهاء الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاة والحج والمظالم، فلم ينظر في قضاء القضاة لامتناع الخليفة القادر بالله من الأذن له بذلك، هذا مع عظم سلطان بهاء الدولة. ولا يزال من الحقوق القليل الباقية التي يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضي القضاة بمصر.

وقد عظم شأن القضاة وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس، فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاة إلى مجالسهم، فلما قدم محمد بن مسروق الكندي قاضيا على مصر من قبل الرشيد عام ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م أرسل إليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه، فقال: لو كنت تقدمت إليك في هذا لفعلت بك وفعلت كذا وكذا، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ. بل نجد أن الآية قد انعكست في القرن الثالث الهجري،

فكان الولاية يحضرون مجلس القاضى فى كل صباح إلى أيام القاضى ابن حربويه عام ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م، فكان آخر من ركب إليه الأمراء، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه.

وكان هذا القاضى مثلاً أعلى للعدالة، لا يظعن فى حكمه ولا تلحقه نهمه، وكان لا يؤمر أحداً من ولاية مصر، بل كان يدعوهم بأسمائهم، ويحكى من تصميمه أن مؤنسا الخادم، وهو أكبر أمراء المقتدر، وكان فى خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه، وكان يخطب له على جميع المنابر مع الخليفة، عرض له بمصر مرض فأرسل إلى القاضى يطلب شهوداً أنه أوصى بوقف على سبيل البر، فقال القاضى: لأفعل حتى يثبت عندى أن مؤنسا حر، وقال: أن لم يرد على كتاب المقتدر أنه أعتقه، والا فلا أفعل. ولما وصل الكتاب أبى القاضى إلا أن يشهد عدلاً أنه كتاب أمير المؤمنين، هذا ومؤنس أكبر أمراء الإسلام. وكان ابن حربويه مهيباً وافر الحرمة، لم يره أحد يأكل ولا يشرب، ولا يغسل يده، وإنما يفعل ذلك فى خلوة، ولا يراه أحد يتمسخت ولا يصق ولا يحك جسمه، ولا يمسح وجهه، وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد، ولا يصلح رداءه، وكان عليه من الوقار والحشمة ما يتذاكره أهل البلد، وكان يختار فى أحكامه، ويرى أن من قلده فهو متعصب أو غيبى، وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، فم ينكر عليه أحد، ولم يكن يلحق علمه طعن، ولا رشده نهمه. وكان لا يحيف فى حكم. وقد اختصم عنده رجلان، وكان المدعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدعى صاحب الحق، فضحك خصمه متعجباً، وعند ذلك صاح ابن حربويه صيحة ملأت الدار، وقال: م فضحك وقاضيك بين الجنة والنار؟ فأرعب القاضى الرجل، ومرض ثلاثة أشهر، وكان إذا عادته صاحبه يقول له: صيحة القاضى فى قلبى إلى الساعة وأحسبها تقتلنى.

وكان القاضي أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الاسفرائيني قاضي بغداد المتوفى عام ٤٠٦هـ - ١٠١٥م رفيع الجاه في الدنيا، وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد: أعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولايتها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك.

ومما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أننا نجد الامراء والوزراء كثيرا ما يساقون إلى السجن، ولا يحكى مثل ذلك الا على قليل من القضاة، ولم يمت في أثناء السجن الا قاضي واحد، ولا يعلم أن قاضيا مات في السجن سواء، وهو القاضي أبو أمية المتوفى عام ٣٠٠هـ وكان أمر هذا القاضي غريبا، فانه كان قليل العلم، وكان يتجر في البر ببغداد، فاستر عنده الوزير ابن الفرات أيام محنته، وقال له: أن وليت الوزارة فأى شيء تحب أن أصنع بك؟ فقال: تقلدني شيئا من أعمال السلطان، قال: ويحك! لا يجيء منك عامل ولا أمير ولا قائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة، فأبش أقلدك؟ قال: لأدرى، قال: أقلدك القضاء، قال: قد رضيت. ثم خرج ابن الفرات، وولى الوزارة وأحسن إلى أبي أمية، وولاه قضاء البصرة وواسط والاهواز، وربما أراد بذلك أن يغيط الفقهاء، ولكن عفة أبي أمية وتصونه غطيا على نقصه في العلم، وكان يتبه على أمير البصرة، ولا يركب إليه، حتى ورد على الأمير كتاب مع طائر بنكبة ابن الفرات، والقبض عليه، فقبض على أبي أمية وأدخله السجن، فأقام فيه مدة، ثم مات.

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا، ونجد الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجري، ويقول السمرقندي المتوفى عام ٣٧٥هـ - ٩٨٥م: اختلف

الناس في قبول القضاء: قال بعضهم : لا ينبغي أن يقبل القضاء، وقال بعضهم: إذا ولى رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبي ﷺ من شأنها أن ترهب القضاة حتى العادل منهم.

ولما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنة على القضاء أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين، فقال كعب والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا إذا أنجاه الله منها، وأبى أن يقبل القضاء.

وفي سنة ٧٠ هـ - ٦٨٩ م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة، فلما بلغ آياه ذلك قال: انا لله وانا إليه راجعون، هلك الرجل، ويروى أنه قال: هلك ابني وأهلك.

ولا أعلم كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء، أما المسلمون فأنهم تمسكوا بالوصية التي جاءت في خطبة الجبل (انجيل متى) من عدم التعرض للحكم على الناس.

ويحكى لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلا دعى للقضاء، فهرب من العراق حتى أتى الشام، فوافق ذلك عزل قاضيهما، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة. وروى عن سفيان الثوري أنه دعى إلى القضاء، فهرب إلى البصرة حتى مات وهو متوار. وروى عن أي حنيفة أنه ابتلى بالضرب والحبس فلم يقبل حتى مات. وقد حكى الطبري أن قوما من أهل الحديث تخاموا حديث أبي يوسف القاضي من أجل غلبة الرأي عليه من صحبة السلطان وتقلده القضاء. وفي عهد الخليفة المهدي أُلزم قاضي المدينة ولاية القضاء بعد أن أشرف عليه والي المدينة بضرب السياط.

وكان القاضي شريك قد ولى القضاء حوالى هذا العصر بعد تأب، وذهب إلى الصيرفى ليأخذ رزقه، فضايقه فى النقد فقال له الصيرفى: أنك لم تبع به بزا، فقال له شريك: بل والله بعث أكثر من البز، بعث به دينى. بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هربا من تولى منصب القضاء.

وكان الصوفية بنوع خاص يقفون من القضاة الذين يسمونهم علماء الدنيا على طرفى نقيض، ويقولون: «أن العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين». ويحكى لنا أبو طالب المكى أن اسماعيل بن اسحاق القاضي كان من علماء أهل الدنيا، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم، وكان مؤاخيا لأبى الحسن بن أبى الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولى اسماعيل القضاء هجره ابن أبى الورد، ثم أنه اضطر إلى أن دخل عليه فى شهادة، فضرب ابن أبى الورد على كتف اسماعيل القاضي، وقال: يا اسماعيل! علم أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خبير منه، فوضع اسماعيل رداءه على وجهه، وبكى حتى بله.

وكان الخنفة فيما يتعلق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة، وهذا شأنهم بالاجمال فيما عدا ذلك. ويحكى عن الفقيه الشافعى ابن خيران المتوفى عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م أنه كان يعيب صاحبه ابن سريج على تولى القضاء، ويقول له: هذا الامر لم يكن فى أصحابنا، انما كان فى أصحاب أبى حنيفة. وكان ابن خيران قد امتنع من تولى قضاء بغداد، فوكل الوزير به فى داره وختم الباب بضعة عشر يوما. ولكن أبى بكر الرازى المتوفى عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م، وكان امام أهل الرأى فى عصره، خوطب فى أن يلى قضاء القضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل. وكانت العادة حتى أواخر القرن الرابع تقضى ألا يقبل أحد منصب القضاء الا بعد أحجام وتردد.

ولما صرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وحل محله أبو الحسن ابن أبي الشوارب وذلك في عام ٣٩٩هـ - ١٠٠٩م قال المصفرى الشاعر:

عندى حديث ظريف      بمثله يتسلفنى  
من قاضيين يعزى      هـذا، وذاك يهـنى  
فلذا يقول : أكرهونا      وذا يقول : استبرحنا  
ويكذبان جميعاً      فمن يصدق منا

وقد اختلف هل يأخذ القاضى عن القضاء رزقا؟ ويقال أن عمر بن الخطاب منع من ذلك. أما الخصاف الفقيه الحنفى المتوفى عام ٢٦١ هـ - ٨٧٤م فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضى لرزق من بيت المال مستندا فى ذلك إلى احاديث نبوية وإلى أمثلة جرت فى الصدر الأول.

ولما ولى القضاء بمصر ابن حجيرة سنة ٧٠هـ - ٦٨٩م كان رزقه فى السنة من القضاء مائتى دينار، وكان لابن حجيرة إلى جانب ولاية القضاء القصاص وادارة بيت المال. وكان رزقه من القصاص ومن ادارة بيت المال أربعمائة دينار، وكان عطاؤه مائتى دينار، وكانت جائزته مائتى دينار، فكان مجموع رزقه فى السنة ألف دينار، وفى سنة ١٣١هـ - ٧٤٨م كان رزق قاضى مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين دينارا فى الشهر، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفى للاتفاق على كتاب القاضى وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه، ومع أن القاضى ابن حجيرة كان يأخذ الف دينار فى كل سنة، فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء يفضل على أهله واخوانه.

وقد دخل رجل على قاضى القسطنطين فى سنة ٩٠هـ - ٧٠٩م وقد

تغدى، فقال: أنتغدى؟ قال: نعم، فأنت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء، فقال ابلل، وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز. وكان القاضى خير بن نعيم الحضرمى الذى تولى القضاء والقصاص بمصر عام ١٢٠هـ - ٧٣٨م يتجر - الى جانب منصبه - بالزيت، فقال له رجل حديث السن من حضرموت كان يلازمه: وأنت أيضا تتجر! يحكى لنا هذا الحضرمى الصغير فيقول: «فضرب (خير بن نعيم) يده على كتفى، ثم قال انتظر حتى تجوع ببطن غيرك، قلت فى نفسى كيف يجوع انسان يبطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال اذا أجوع يبطنونهم.

وكان القاضى ابو خزيمه ابراهيم بن يزيد الرعينى الذى ولى قضاء مصر عام ١٤٤هـ - ٧٦١م، متحرزا جدا فيما يتعلق برزقه، فكان اذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل، وقال: انما أنا عامل للمسلمين، فاذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لى أخذ مالهم، وكان يعمل الأرسان، كل يوم رسنين، واحد ينفقه على نفسه وأهله، وآخر يبعث به إلى اخوان له من أهل الاسكندرية، لكل واحد منهم رسن، وكان ذلك فى سبيل الله.

وكما أن العباسيين جعلوا للقاضى منصبا رفيعا مستقلا فانهم رفعوا رزقه أيضا، فكان رزق عبد الله بن لهيعة الذى ولى القضاء على مصر من قبل المنصور عام ١٥٥هـ ثلاثين ديناراً فى كل شهر. وكان رزق المفضل بن فضالة قاضى مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً فى كل شهر أيضا، وكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها. أما فى عصر المأمون بما كان فيه من كرم فقد أجرى والى مصر على القاضى الفضل بن يغانم الذى ولى القضاء عام ١٩٨

هـ مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر، وكان الفضل أول قاض أجرى عليه هذا الرزق الكبير.

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر، وكان مشهوراً بالكرم، قلد عيسى بن المنكدر القضاء عام ٢١٢هـ، ولما عرف أنه مقل أجرى عليه سبعة دنائير كل يوم، «فجرت في القضاء إلى اليوم». ويحدثنا المسعودي عن إبراهيم بن جابر القاضى انه كان ييغذاه يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصرًا للفقر على الغنى، فما مضت أيام حتى لقيته بحلب من جند قنشرين والعواصم من أرض الشام، وذلك في سنة ٣٠٩ هـ - ٩٢١ م، وإذا هو بالضد مما عهدته متولياً للقضاء على ما وصفنا، ناصرًا ومسرِّقًا للغنى على الفقر. وقد اخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوباً تستريا وقصباً وأشياء ذلك من الثياب على مقراض واحد، وخلف مالا عظيماً لغيره.

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الاموال بغير حق، فأمر بأن يضعف للحسين بن علي بن التعمان رزقه وصلاته واقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه.

ويحدثنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أن رزق قاضى القضاة بمصر ألفاً ديناراً في الشهر. ويذكر في ملحق أخبار القضاة للكندي أن دخل القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في السنة كان يزيد على عشرين ألف دينار.

وكان القاضى فى المشرق يعطى رزقه من بيت المال، ولكن عندنا من النصوص ما يدل على أنه كان لا يأخذ شيئاً من رزقه، أما لأنه لا يكفيه أو رغبة عن رزق القضاة على سبيل اتقاء الشبهة والرغبة فى التحرز. ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق، فإن الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ - ٩٧٨ م)



لبث على قضاء مدينة سیراف خمسين عاما، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة، فقد كان الحسن يعيش مما يبيعه من منسوخاته المشهورة بجودة خطها.

وقد امتنع قاضى المدينة فى عهد المهدي أن يأخذ رزقا، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المنصب الذى يكرهه.

ولما ولى قضاء القضاة بينداد محمد بن صالح بن أم شيان الهاشمى هم سنة ٣٦٢هـ - ٩٧٢م وكان يتفقه لمالك اشترط عند تولي منصبه شروطا منها ألا يتناول على القضاء أجرا، ولا يقبل شفاعاة فى فعل مالا يجوز ولا فى البات حق، ولا يغير ملبوسه.

وكان على بن الحسن التنوخى المتوفى عام ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م قد تقلد قضاء عدة نواح، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً فى الشهر.

وفى سنة ٣٢٤هـ - ٩٤٥م كسب اللصوص دار أحد القضاة بينداد، وأخذوا جميع ما كان فى منزله ولم يكن شيئا مذكورا، لأنه كان مشهورا بالفقر، وكانوا يقدرون أن للقاضى مالا، فضربوه ليستخرجوه منه، فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ماجاوره فسقط فمات.

وفى سنة ٣٥٢هـ - ٩٦٣م تقلد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء بينداد، على ألا يأخذ رزقا.

وكان للقاضى أبى الطيب الطبرى عمارة وقميص بينه وبين أخيه، اذا خرج ذلك قعد هذا فى البيت، واذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد.

وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشامى قاضى قضاء بغداد المتوفى عام

٤٨٨ - ١٠٩٥ م زاهدا ورعا، وقد شرط عند تولي القضاء ألا يأخذ رزقا، وكان له كراء بيت قدره في الشهر دينار ونصف، وكان من ذلك قوته، وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن، وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز، فاذا أراد الأكل جعل من الفتيت في قصعته، ووضع عليه قليلا من الماء وأكل منه.

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضي الأندلسي يختلف إلى غلة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها. ويحدثنا بيترمان (Peterman) وهو في دمشق عام ١٨٥٢ م: «في كل سنة يرسل قاض جديد من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله، وهو يأخذ نصيبا ثابتا من تركة كل من يموت (قبيل لي أنه الربيع، وهو كثير بالطبع)، ويأخذ نصف العشر عن كل قضية يحكم فيها، وهذا هو المقدار الذي يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالي عن القضية التي يتقدم بها (ولو خسرها). أما الرعايا الأوروبيون فأنهم يدفعون خمس العشر».

وفي مراكش اليوم يأخذ القضاة، باعتبارهم عمالا دينيين، أرزاقهم من الحبوس (الأوقاف الخيرية). ولما كان هذا نادرا فإنهم يتركون لقبول الهدايا من المتحاكمين اليهم.

وفي سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١ م تقلد أبو العباس بن أبي الشوارب قضاء بغداد، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة. وكان هذا القاضي «مع قبح فعله قبيح الصورة مشوهها»، وقد اتهم «بالغلمان والشهوات والخمور»، ولكن الأمور لم تسر معه على عادتها، فقد خلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من أن يصل إليه، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه في يوم موكب ولا غيره، ثم عزل من منصبه بعد عامين، وتولى مكانه أبو بشر عمر بن أكثم المتقدم الذكر وأعفى عما كان

يحمله ابي الشوارب، وأمر بالآ يمضى شيئا من أحكام ابن أبي الشوارب  
وسجلاته، لأنه اشترى منصبه شراء.

وقد كان القاضي توبة بن نمر الحضرمي المتوفى عام ١٢٠ هـ - ٧٢٨م  
أول قاضي بمصر وضع يده على الاحباس، وإنما كانت الاحباس في يد  
أهلها وأيدي أوصيائهم، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظا لها، فلم يمت  
حتى صارت الاحباس ديوانا عظيما. وكان القاضي إلى جانب هذا يتولى  
أموال اليتامى، ومنذ عام ١٢٣ هـ - ٧٥١م أوردتها القاضي خير بن نعيم  
بيت المال وسجل في كل مال منها سجلا بما يدخل منها وما يخرج.

وفي سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩م توفي القاضي محمد بن النعمان، فوجد  
عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله  
أن تصادر أمواله، وأرسل فهد النصراني، كاتب الوزير، فاحتاط عليها، وشرع  
في البيع وفي تغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم (وهم خيار أهل  
البلد) إلى أن تحصل نصف الدين، وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد  
الشهود مال يتيم ولا غائب. وأفرد موضع يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة  
من الشهود لا يفتح الا بحضورهم.

ولم يدخل في اختصاص القاضي النظر في الموارث بصورة نهائية الا في  
القرن الرابع الهجري، ثم صار إليه أخيرا الاشراف على سجون البلاد التي يلي  
قضاءها، واختص القضاة من ذلك بما سمي «حبوس القضاة»، وهي الخاصة  
بمن يحبس لدين عليه، وذلك في مقابل حبوس المعونة التي يحبس فيها  
أصحاب الجنايات. وفي سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١م أمر فخر الدولة ليلة الفطر  
بتأمل من في حبوس القضاة، فمن كان محبوسا على دينار إلى عشرة أطلاق،

وما كان أكثر من ذلك كفل، وأخرج ليعود بعد التعيد، وأوعز بتميز من في حبس المعونة، فمن صغرت جنايته أطلق ووقعت نوبته.

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضي برقاع في الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه، وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل مجيء القاضي، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي، وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضي أن يدعربها كلها في يوم، فترقبها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته في الجلوس والصبر.

وكانت جلسات القاضي للحكم علنية، وقد خصص رجل المأمون مرة، وأذن المأمون للقاضي يحيى بن أكرم في القضاء بينهما في دار الخلافة، فقال القاضي: فاني أبدأ بالعامه أولا ليصح المجلس للقضاء، ثم أمر بفتح الباب وقعد في ناحية من دار الخلافة، وأذن للعامه في الدخول وتنادى المنادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس، ثم قضى بين الخليفة وخصمه. ومن أجل أن جلسات القضاء كانت علنية، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستندا إلى اسطوانة من أساطين المسجد، وكذلك كان القاضي يجلس أحيانا للقضاء في طاره، ويحكى عن خير بن نعيم الذي تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ - ٧٢٨ م انه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصوم من الكلام.

وقد ولي قضاء مصر ابراهيم بن الجراح سنة ٢٠٥ هـ - ٩١٩ م، وقد سخط المصريون عليه، وكان مصلاه موضوعا في المسجد الجامع، فجاء المصريون وألقوه في الطريق، فجلس للحكم في منزله، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صرف. ولم يكن هذا القاضي بالمدموم في أول الأمر، حتى قدم

عليه ابنه من العراق، فأفسد أمره وخدعه وأخذ الرشا من الناس، فسخط  
المصريون على القاضي.

ولما ولي القاضي هرون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م  
جعل مجلسه في الشتاء في مقدم المسجد، واستدير القبلة، وأسند ظهره بجدار  
المسجد، ومنع المصلين أن يقربوا منه، وباعد كتابه عنه، وباعد الخصوم، وكان  
أول من فعل ذلك. واتخذ مجلسا للصيف في صحن المسجد وأسند ظهره  
للحائط الغربي.

وقد رأى أهل السنة بعد انتصارهم حوالي منتصف القرن الثالث الهجري  
أن جلوس القاضي في المسجد يناقئ ما يجب لبيوت الله من الحرمة، فأمر  
المتنشد سنة ٢٧٩ هـ ألا يقعد القضاة في المسجد. ولكن هذا الأمر لم يثمر  
إلا قليلا، فقد كان قاضي القضاة بيغداد حوالي عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م  
يجلس للقضاء في داره. أما في مصر فكان القاضي يجلس للقضاء في داره  
أحيانا، وفي الجامع أحيانا أخرى.

ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين البسطامي (المتوفى عام ٤٠٧ هـ -  
١٠١٦ م) قضاء نيسابور أجلس في مجلس القضاء في المسجد في الساعة التي  
قرئ فيها عهده.

يقول المعري شاكيا حال العدول وسوء فعلهم:

في البدو خراب أذواد مسومة	وفي الجوامع والاسواق خراب
فهؤلاء تسموا بالعدول أو التجار	واسم أولئك القسوم أعراب
ويقول في العدول في موضع آخر:	
عدول لهم ظالم الضعيف سجية	يسمون أعراب القرى والجوامع

أما في عصر الفاطميين فكان قاضي القضاة بالقاهرة يجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير. وكان الشهود يجلسون حوالبه بحنة وسرة بحسب تاريخ عدالتهم، وبين يديه خمسة من الحجاب، اثنان بين يديه، واثنان على باب المقصورة، وواحد ينفذ الخصوم إليه، وأمامه كرسي الدواة، وهي دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور.

وكان المتحاكمون إلى القاضي في العصر الأول يسيطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه، وقد أتى الأمير الأموي عبد الملك بن مروان النصيري إلى القاضي خير بن نعيم يخاصم ابن عم له، فقعده على مفرش القاضي، فقال له القاضي: قم مع ابن عمك، فغضب الأمير، وقام ولم يخاصم.

ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدي القاضي صفا متساوين.

وقد وقع بين أم المهدي وبين أبي جعفر المنصور خصومة، فقالت لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان، وكان هذا قاضيا على مصر من قبل المهدي، فحجبل إلى العراق للحكم بينهما، فوكلت أم المهدي عنها وكيلا، جلس أمام القاضي، فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يساوي خصمه في مجلسه فانحط عن فرشه، وجلس مع الخصم، وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على أمير المؤمنين.

وقد جاء في مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكثم، فتودى الخليفة ليجلس مع خصمه، ومعه غلام يحمل مصلى، فأمره القاضي بالجلوس، فطرح المصلى ليقعد عليه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين ! لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه.

وقد خوصم مولى السيلة زبيدة، زوجة الرشيد، ووكيلها إلى القاضي

محمد ابن مسروق، فأمر باحضاره فجلس متربعا، فأمر به ابن مسروق فبطح وضرب عشرا، هذا مع أنه وكيل السيدة ذات النفوذ العظيم.

وقد تعرض أهل النظر للبحث في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضى، هل يجوز للمتخاصمين أن يسلّموا على القاضى؟ إذا سلم عليه أحد الخصمين فقال: «السلام عليكم» فإن كلمة السلام زيادة فى الجواب. ولهذا ذهب قوم إلى أنه لا يتنقى للخصوم أن يسلّموا على القاضى.

وكذلك شدد أهل العدالة على القاضى فى ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير، فلا يصح على أحدهم ليستخرج منه الاجابة التي يريد بها. وقد كانت هذه المعاملة اللينة من القضاة لمن يختصم إليهم وعجز القضاة أحيانا عن الزام أحد الخصمين باعطاء المال لصاحبه، سببا فى أن اخترعت عند أهل الفكاهاة بمصر قصة القاضى النطاح الذى ثبت فى قلنسوته قرنى ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين. وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك، فلام القاضى على ما فعل، فطلب القاضى من الخليفة أن يجلس وراء الستار فى مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلاة الناس. فحضر الخليفة، ومثل بين يدي القاضى خصمان يطالب احدهما الآخر بمائة دينار، فاعترف المدعى عليه بالدين، ولكنه طلب أن يدفعه مقسطا، فاقترح القاضى فى أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير فى كل شهر، ولكنه اعترض فخفض القاضى ذلك إلى خمسة دنانير، ثم إلى دينارين، ثم إلى دينار، ثم نصف دينار، فأظهر المعجز، وأخيرا سأله القاضى أن يبين ما يستطيع أن يدفعه فقال أنه يدفع ربع دينار فى كل عام، ولكنه شرط أن يتقى خصمه فى السجن، لأنه اذا أطلق وعجز هو عن أداء ما عليه فريما قتله. عند ذلك سأل الحاكم القاضى: كم نطحته فقال: واحدة، فقال الحاكم: انطحه مرتين، أو انطحه مرة وأنا أنطحه أخرى.

وكان القاضى يلبس السواد على هيئة عمال بنى العباس، وكان المفضل ابن فضالة قاضى مصر من قبل المهدي عام ١٦٨ هـ - ٧٨٤ م يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة. ولما ولي الحارث بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م، طلب إليه أن يلبس السواد، فامتنع، فخوفه أصحابه سطوة السلطان به، وقالوا له: يقال انك من موالى بنى أمية، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف. وفي غضون القرن الثالث الهجرى كانت القلنسوة وتسمى أيضا الدنية فى لغة المستهزئين هى لباس القضاة الذى يميزهم، وكانت تلبس مع الطيلسان.

ولما صرف القاضى أحمد التتوخى عن القضاء، ثم أعيد إليه قال: أحب أن يكون بين الصرف والقبر فرجة، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة. وقد شبه أحد الكتاب رجلا فقد الملاحه فقال مثل قاض بلا دنية.

وكان ببغداد فى سنة ٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م قاض يعرف بأحمد بن سيار، وكانت له هيئة وجثة مهولة ولحية طويلة، فقدم إليه امرأتان أدعت احدهما على الأخرى، فقال لهذه: ماتقولين فى دعواها؟ قالت: أفزع، أيد الله القاضى. قال: بماذا، قالت: «لحية طولها ذراع، ووجهه طوله ذراع، ودنية طولها ذراع، فأخذتني هيبتها، فوضع القاضى دنيته، وغطى بكمه لحيته، وقال: قد نقصتك ذراعين، أجيبنى عن دعوتها.

وكان قضاة الفاطميين يحملون سيفا.

وكان موظفو ديوان قاضى القضاة ببغداد فى سنة ٣٣٦ هـ هم:

- الكاتب، وقد رتب له فى كل شهر ثلثمائة درهم.

- الحاجب، ورزقه مائة وخمسون درهما فى الشهر.



- ومن يعرض الاحكام، وراتبه في الشهر مائة درهم.

- وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان، ولهم ستمائة درهم.

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما استلقت النظر في النظام القضائي، وهو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضي، ويخبرنا الكندي، وهو مؤرخ ثقة، عن نشأة الشهود، فيقول: كان القضاة إذا شهد عندهم أحد، وكان معروفاً بالسلامة، قبله القاضي، وأن كان غير معروف بها أوقف، وأن كان الشاهد مجهولاً لا يعرف سئل عنه جيرانه، فما ذكره به من خير أو شر عمل به، حتى كان غوث بن سليمان في خلافة المنصور، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر في السر، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث، وكان من عدل عنده قبله، ثم يعود الشاهد واحداً من الناس، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بها.

ثم أن القاضي المفضل بن فضالة عين رجلاً يسمى صاحب المسائل ليسأل عن الشهود ويشهد عليهم، وكان المفضل أول من استعمل هذا السائل، فتحديث الناس أنه كان يرتشي من أقوام ليذكرهم بالعدالة. ثم جاء القاضي المصري علي قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ - ٨٠١ م، فاتخذ الشهود وجعل أسماءهم في كتاب، وهو أول من فعل ذلك، ودونهم وأسقط سائر الناس، ثم فعلت القضاة ذلك من بعده حتى اليوم.

وقد سخر الشعراء من هذا القاضي لأنه اتخذ من أهل المدينة من موالى قریش والانصار وغيرهم نحواً من مائة شاهد، ثم أسقط جمعاً منهم، وحط عليهم نحو من ثلاثين رجلاً عن ألب عليه من الفرس.

ومن الشهود نشأت بطانة القاضي، وقد أمر القاضي لهيعة بن عيسى الذي تولى القضاء بمصر عام ١٩٩ هـ صاحب مسأله أن يجدد السؤال عن

الشهود والموسمين بالشهادة في كل ستة أشهر، ليقف من حدثت له جرحه،  
واتخذ من بين الشهود قوما جعلهم بطانته، وكانوا نحواً من ثلاثين رجلاً.

وقد أهتم أحد القضاة، وهو عيسى بن المنكر الذي تولى القضاء عام  
٢١٢هـ، بأمر الشهود اهتماماً كبيراً، فكان يتنكر بالليل، ويغطي رأسه،  
ويمشى في السكك ليسأل عن الشهود. ونجد في عهد بولاية القضاء في  
كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر أن التثبت في شهادة الشهود، والمبالغة في  
المسألة عنهم، والفحص عن وجوه عدالتهم، والبحث عن حالاتهم، من أهم  
واجبات القاضي.

وكان عضد الدولة لا يجعل للشفاعات طريقاً، ويحكي أن مقدم جيشه  
شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيتهم، ويعدله. فقال  
عضد الدولة: ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة  
قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي  
وليس لنا ولا لك الكلام فيه.

ويحكي أن الخليفة الحاكم جرى في هذه المسألة، مسألة العدول، على  
ما عرف عنه من فعل الشيء ثم نقضه، ففي سنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م سأله  
جماعة من المصريين أن يؤهلهم للعدالة، فأذن لهم في ذلك، وتشبه بهم  
غيرهم في سؤاله، حتى بلغ عدد العدول ألفاً ومائتين ونيقاً، فأعلمه قاضي  
القضاة أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة، ولا يوثق بهم في شهادة فأذن له،  
على حسب عادته، بتصفيحهم وإقرار من يرى إقراره منهم.

ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاضي ويعدلهم بنفسه، فإنهم كانوا  
يعزلون بعزله أو موته.

وكان القاضي اسماعيل بن عبد الواحد، قاضي مصر سنة ٣٢١ هـ -

٩٣٣ م يلزم الشهود أن يركبوا معه.

وحوالى ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاضى عند نظرة فى القضايا أربعة شهود، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره.

وفى القرن الرابع الهجرى نجد الشهود قد أصبحوا نوعا من العمالى الثابتين، بعد أن كانوا فى أول الأمر من حاشية القضاة الأمتاء الذين يوثق بشهادتهم. وهذا القرن أيضا هو الذى أوجد هذا النظام الذى لا يزال باقيا إلى اليوم وأحل محل النظام الإسلامى القديم، بل نجد أن القاضى التميمى فى القرن الثالث الهجرى بالبيصرة قد عين فى أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد، منهم عشرون ألفا لم يشهدوا بعد تعيينهم، فلم يحظوا بشرف منصبهم. وكان بسفداد حوالى عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م نحو من ألف وثمانمائة شاهد.

وفى سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م أكثر الشهود التردد على القاضى محمد بن موسى بمصر، فقال لهم: مالكم معاش عندنا، فلا يجيء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة. فكان الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين، ولكن القاضى كان على رأى القديم فى أمر الشهود.

وفى سنة ٣٨٢ هـ - ٩٩٢ م بلغ عدد الشهود بسفداد ثلاثمائة وثلاثة، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيرا، وفى أواخر القرن الرابع أنقص قاضى القضاة بالقاهرة عدد الشهود.

وقد أوصى الدمشقى التاجر الماهر أن يحتاط فى شهادة من يشهدون على العقود التى يريد إمضاها، فيسأل عنهم أن لم يكن خبيرا بهم، حتى يعرف المشهورين بالامانة والنزاهة فى الدين واليسار فيأخذ بشهادتهم، وذلك لأنه فى أكثر الأوقات يدخل فى الشهود من لا يستحق منزلة العدالة لعناية به أو جاء

بعض أقاربه ولبث مدة، ثم ربما حدث أمر آخر فيسقط الشاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذي شهد عليه.

وكان ينوب عن القاضى شاهد فى كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضيا مستقلا يحكم فى القضايا الصغيرة.

وكان الشهود فى عصر لين Lane يجلسون فى دهليز المحكمة الكبرى، ويقدم الشاكي قضيته لمن يجده غير مشغول منهم، فيقيدها هنا، ويأخذ عن تقييدها قرشا أو أكثر، فان كانت القضية صغيرة، ورضى المدعى عليه بحكم الشاهد حكم هذا فيها، والا أدخل الخصمين إلى القاضى.

وقد أوصى الخليفة الطائع فى عهده لقاضى القضاة أبى محمد بن معروف، وهو العهد الذى كتبه الصابى فى سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦م، وصية متكررة بالاكثر من تلاوة القرآن وأن يتخذوه إماما يهتدى بآياته، وبالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها، وبالجلوس للخصوم وفتح بابهم على العموم، وأن يوازى بين الفريقين المتحاكمين إليه، ولا يحابى مليا على ذمى. وأمره بالقصد فى مشيته، وبالفض من صوته، وحذف الفضول من لفظه، وأن يخفف من حركاته ولفظاته، ويتوقر من سائر جنباته وجهاته، وأن يستصحب كاتباً درياً بالمحاضر والسجلات، ماهراً فى القضايا والحكومة غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين فى طهارة ذيله ونقاء جبهه، وحاجبا سدنيا رشيدا لايسف إلى دنيته، ولا يقبل رشوة، ولا يلتبس جعلاً، وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه، ويجمل لكل من هذه الطوائف رزقا يكفه ويكفيه، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم، وأمره أن يضبط مايجرى فى عمله من الوقوف الثابتة فى ديوان حكمه، ويحتاط على أموال الايتام ويسندها إلى أعف وأوثق القوام، وأمره أن

ورد عليه أمر يعييه الفصل فيه أن يرد إلى كتاب الله، فإن وجد فيه الحكم  
وإلا ففي السنة، فإن أدركه ولا استفتى ذوى الفقه وأهل الدراية، وأمره الا  
ينقض حكما حكم به من كان قبله الا اذا كان خارجا عن الاجماع وأنكره  
جميع العلماء، عند ذلك ينقضه نقضا يشيع ويذيع. وهذا الاجماع الذى  
يتعقد من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة  
الإسلامية العليا، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم فى ميدان الاحكام  
القضائية الهامة هم المظهر الذى أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها،  
لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين.

وكان فى الحياة الديوانية نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب  
إلى الأبن، وأظهر ما كان ذلك فى مناصب القضاء، فى القرنين الثالث  
والرابع تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هى أسرة أبى الشوارب ثمانية رجال  
ببغداد، هنا عدا ستة عشر قاضيا آخرين من هذه الأسرة. وظل بنو أبى بردة  
منذ حوالى عام ٣٢٥هـ - ٩٣٧م يتقلدون قضاء القضاة بفارس أجيالا  
كثيرة، كما ظلوا قرونا كثيرة منذ ٤٠٠هـ قضاء فى غزة. وكذلك توارث آل  
النعمان قضاء القضاة ثمانين سنة فى عهد الفاطميين بمصر.

وقد زادت شوكة هذه الأسر التى توارثت القضاء زيادة هائلة، وذلك لأن  
نظام الاستخلاف فى المناصب ظهر فى القضاء، كما كان فى مناصب  
الولاية وحكم الأقاليم ونجد فى صور الخطابات التى ترجع إلى أوائل القرن  
الرابع الهجرى أنه كان بمصر قاض واحد، وأن فارس والاهواز كان يجتمعان  
لقاض واحد. وكان القاضى عبد الجبار قاضى قضاء بنى بويه يجمع بين  
قضاء الرى وهمدان والجيل. وكان قاضى مكة فى سنة ٣٣٦هـ - ٩٤٧م له  
قضاء مصر وغيرها. وفى عهد الفاطميين كان ربما جمع قضاء الديار

المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد. ونجد في العهد الذي كتب لقاضى القضاة محمد بن صالح الهاشمى سنة ٣٦٣هـ - ٩٧٤م، ما يجعله قاضيا على المملكة الإسلامية كلها تقريبا من البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر، وكان تحته حكام فى البلاد عهد إليه فى تصفح أحوالهم واستشراف مايجرى من الاحكام فى سائر النواحي.

وكان هناك إلى جانب القضاء النظر فى المظالم، وكان الناظر فى المظالم ينظر فى كل «حكم يعجز عنه القاضى، فينظر فيه من هو أقوى منه يدا». وكان القضاء والنظر فى المظالم يقومان جنبا لجنب فى جميع البلاد الإسلامية. ولكن اختصاص كل من هذين القضاءين لم يحدد تحديدا دقيقا. وكانت المسألة الهامة دائما هى هذه: أيهما أقوى: سلطان الإسلام الذى يمثله القاضى أم السلطة الدنيوية؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تقدم إلى صاحب المظالم. وكان القاضى أحيانا ينظر فى المظالم، وكان قاضى القضاة يتنوع خصاص ينظر فى المظالم بدار السلطان. وكان الوزير هو الذى يعين أصحاب المظالم فى البلاد.

وقد حاول رجال الشرع مرتين فى القرن الرابع الهجرى أن يشرفوا على أعمال الشرطة. ففى سنة ٣٠٦هـ - ٩١٨م أمر الخليفة المقتدر يمنا الطولونى صاحب الشرطة ببغداد بأن يجلس فى كل ربح من الأرباع فقيها يسمع من الناس ظلاماتهم، ويفتى فى مسائلهم حتى لايجرى على أحد ظلم، فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب شرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم، ويقول ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المتوفى عام ٧٢٥هـ بعد ذكر هذا النظام: «فضعفت هيئة السلطة بذلك، وطمع اللصوص والعيارون، وكثرت الفتن، وكبست دور التجار، وأخذت ثياب الناس فى الطرق المنقطعة».

وكذلك نصب الخليفة الحاكم بمصر فى الشرطة وفى كل بلد شاهدين من العدول، وأمر ألا يقام على ذى جريرة أو مرتكب جريمة حد الا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك. ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لهما تأثير، بل نجد الآية قد انعكست، فكانت ترفع الظالمات من حكم القضاة إلى أصحاب المظالم ولاسيما إلى الوزير الذى يجلس للمظالم، وهذا يخالف النظرية الفقهية. وقد جاء وصف لجمهور المستصرخين إلى الوزير الذى كان يقعد للمظالم بأنهم كانوا «قوما كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين متظلمين، فهذا من أمير وهذا من عامل، وهذا من قاض وهذا من متمرزة».

وقد حدث حوالى سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٩ م أن مات رجل بمصر وترك مالا جزيلا، ولم يخلف سوى بنت واحدة، فورثت جميع المال، وتناول الناس لتزوجها لكثرة مالها، ومن جعلتهم القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى، فامتعت عليه، فحنق عليها، وأقام أربعة شهود بأنها سفية، وأخذ مالها، فهربت إلى الوزير، وعرفته بما فعله القاضى، فعمل محضرا برشدتها وأشهد عليه، وأمر باحضار القاضى، فأحضر مهاتنا، وأخذ المال منه، وأنيب ولده عنه فى الاحكام، ولزم داره فلم يخرج منها، ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفيتها فأودعهم السجن، وخلع على من شهد له بالرشد.

وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر النظر فى المظالم بكل عناية، «حتى استغنى الناس عن القاضى»، وحتى كان القاضى ربما نعى فى محله، ثم انصرف إلى منزله ولم يتقدم إليه أحد. ولم يكن فى مصر قاض فى ذلك العهد سبع سنين، فكان كل شىء يرد إليه إلى الناظر فى المظالم.

وكذلك كان كافور الاخشيدي الأسود يجلس للمظالم حتى كان القاضي كالمجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم.

وفي سنة ٣٦٩هـ - ٩٧٩م وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضي، وذلك أن صاحب الشرطة حكم في شيء ليس من اختصاصه، فأنكر القاضي حكمه، واعترض فيه، فوقع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به.

وفي حوالي سنة ٤٠٠هـ منع القاضي أصحاب الشرطة من التكلم في الاحكام الشرعية، ثم انتهى الخليفة النزاع بأن أضاف للقاضي النظر في المظالم.

وكانت الظلمات تقدم مكتوبة، وكان يحدث أحيانا حوالي عام ٣٢٠هـ - ٩٣٢م أن ترمى الرقعة في ورق المظالم أمام القاضي في المجلس.

وكانت الاحكام تصدر مكتوبة. وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبية المشهورة التي تؤثر لحسنها وبهي شبهة بحواشي فرهادريك الأكبر التي كان يكتبها على هامش ما يرفع إليه.

وكان يخصص في دار الخلافة يوم في الأسبوع لسماع المظالم، وكذلك كان الحال من قبل في العصر البوزنطي، ففي سنة ٤٩٦م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة في الكتيبة للقضاء.

وفي عصر الخليفة الأمون مثلا تخصص يوم الأحد للنظر في المظالم.

وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين في الأسبوع.

وكان الأخشيدي يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء، وبعده كان كافور يجلس كل سبت، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والفضلاء والشهود ووجوه البلد.



وأول من جلس من الحلفاء المهتدي، وآخرهم المهتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ = ٨٦٨ - ٨٦٩م). وكان المهتدي يجلس للمظالم وينظر فيما يرفعه إليه العام والخاص، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم، وكان تقياً، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤم بهم. وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كواتين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرك البرد، فإذا جلس المتظلم أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويشوب إلى عقله، ويتذكر حجته، ثم يديه، ويسمع منه، ويقول: متى يلحن المتظلم بحجته إذا لم يفعل به هذا، وقد تداخلت رهبة الخلافة وألم البرد؟.

وكان مما وعد به الخليفة القاهر، وهو يطلب الخلافة، أن يقعد للنظر في المظالم بنفسه.

وفي عهد الخليفة المعتضد قام مقام الخليفة في النظر في مظالم العامة الوزير عبيد الله بن سليمان، وناب عنه القائد بدر في النظر في مظالم الخاصة، وكان يوم المظالم يوم الجمعة. ولكننا نجد الوزير في أوائل القرن الرابع يجلس للمظالم يوم الثلاثاء، وكان أكثر الكتاب يحضر مجلسه.

وفي سنة ٣٠٦هـ-٩١٨م جلست للمظالم قهرمانة لأم المقتدر تسمى ثعل.

ولما كان النظر في المظالم غير مقيد بتدقيقات الفقهاء، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي. وقد بين الماوردي بما له من قدرة على الاحصاء وبيان القروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه: أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاء بكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من

الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل ، وانه يستطيع رد الخصوم اذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء، ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض، وليس للقاضي ذلك الا عند رضا الخصمين بالرد، وانه يجوز له احلاف الشهود عند ارتياحه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وانه يجوز له ان يتبدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعى احضار بيعة، ولا يسمعون البيعة الا بعد سؤاله. ولكن هذا كله لا يعدو الكلام النظري، وكان يعمل في كل بلد بحسب قانونها وعاداتها. وكانت الوسائل القديمة التي أثبتت التجربة قيمتها كالضرب مثلا منتشرة، وان كانت محرمة على القاضي<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظره آدم سنز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٢٧.

## الفصل الرابع الحركات الفكرية

- الجبرية.

- القدرية.

- المعتزلة.

- الخوارج.

- الشيعة.



## الحركات الفكرية

الشؤون الدينية في الإسلام وثيقة الصلة بالاحداث السياسية. ولكن رغم اهتمام المسلمين بالأمور الدينية فقد وجهوا عنايتهم لكل ألوان الفكر المختلفة، وساهموا باخلاص في المشاكل الأساسية التي انبعثت عن التأمل في مصير الإنسان والاحاطة بالكون والوجود.

والحقيقة أن مفكرى الإسلام عندما عالجوا مسائل الفقه الراقية هذه كانوا متأثرين بالفلسفة والفكر اليونانى منذ ازدهار الحضارة العباسية فى بغداد. ولكن هذا لايعنى أن المسلمين عرفوا بالفلسفة والجدل فى أمور الدين منذ بداية الإسلام. فالجماعة الإسلامية الأولى، اكتفوا بطاعة الناموس الذى جاءهم باسم الله والسير على تعاليم الرسول ﷺ والاهتداء بهديه. وكان لهذه الجماعة ايمان قوى. ولكن بعد أن اتصلوا بأهل الامصار المفتوحة الذين عرفوا بكلفهم بالمنازعات الدينية بدأوا بدورهم يتأثرون بما كان يثيره أهل الديانات الأخرى حول مصير الإنسان وبداية العالم وفى ذلك يقول ابن خلدون: «أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. فاذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ باذية مثلهم، ولايعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب<sup>(١)</sup>».

ويبدو أن الجدل الذى أقام الكنيسة المسيحية وأقعدتها وجد سبيله إلى الفكر الإسلامى حتى قبل أن يدخل أهل الذمة من المسيحيين إلى الدين

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٨٦ - ٧٨٧

الجديد ويصبحوا شطرا من الجماعة الإسلامية. ولا بأس من ذلك فالقرآن جاء مكتملا لما ورد في التوراة والإنجيل.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن بعض الذين أسلموا من اليهود مثل: كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام «بقوا على ما كان عندهم مما لانعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك، فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم»<sup>(١)</sup>.

شغل الفكر الإسلامي نفسه بأسمى وأرفع المسائل الخاصة بالمصير الإنساني تلك المسائل التي أشار القرآن إلى كثير منها مثل مشكلة الجبر والاختيار.

والحقيقة أن المسلمين الأوائل أخذوا فكرة الجبر وحمية المصير الإنساني، وذلك أن مسألة القضاء والقدر لم تظهر الا على عهد الأمويين رغم أن القرآن يعالجها في كثير من المناسبات وبأوجهها المختلفة. فهناك فكرة أن الله قرر مصير المياد وهناك فكرة العدل الالهي. ومع أن الجدل الذي قام بين المسلمين بصدد هذه المسائل قد يدعو إلى التوهم في وجود تضارب في الفكر الإسلامي المبني على النظر في القرآن، فلا شك أن الحلول الكثيرة والفنية، التي توصل إليها مفكرو الإسلام في القرن الأول الهجري لكثير من هذه المسائل المتشابهة لما يدعو إلى الاعجاب.

فعلى أيام الأمويين بدأ اختلاف المفكرين تبعا لاختلاف الآيات والأحاديث (المتشابهات). ولقد أيد أغلبهم فكرة القضاء التي تقول: «كل ميسر لما خلق له، وكل منتظر لما قدر له: من خلق للنعيم سيمير لليسرى ومن خلق للجهنم سيمير لليسرى. السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٨٧.

بطن أمه، كل ذلك بقضائه وقدره<sup>(١)</sup>.

وهؤلاء استندوا إلى الآيات التي تؤيد هذا المعنى مثل: (سورة آل عمران).  
﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾، (سورة التوبة آية  
٥١): ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل  
المؤمنون ﴾، (سورة يس، آية ١١): ﴿ انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا  
وأثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾، (سورة الأنعام، آية ١٢٥):  
﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل  
صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على  
الذين لا يؤمنون ﴾.

وأصحاب هذه الفكرة الأوائل عرفوا باسم الجبرية<sup>(٢)</sup> من الجبروت وهو قوة  
الله القاهرة. ولكن لما كانت هناك فكرة العدل الإلهي، اعتنقت قلة لا بأس  
بها فكرة الاختيار أو حرية الإرادة في أفعال الإنسان، وأصحاب هذه الفكرة هم  
الذين سموا بالقدرية<sup>(٣)</sup> من كلمة قدر التي ترد في (سورة الأعلى آية  
٣): ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى ﴾،  
ومع أن كلمة القدر تأتي مصحوبة دائما بكلمة القضاء بمعنى المصير المحتوم

---

(١) أ.د. سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٤٣، الشهرستاني، الملل والنحل، هامش  
على كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبع بيروت، ج ١، ص ٧٤.

(٢) انظر، الشهرستاني، ج ١، ص ١٠٨ حيث يقول: «الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد  
وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف: فالجبرية المخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة  
على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة أن تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا  
مافي الفعل وسمى ذلك كسبا فليس بجبري».

(٣) انظر، الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٥٤ الذي يقول: «وقالوا لفظ القدرية يطلق على من  
يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى».

فإن الحتمية في هذه الآية تنصب على طريق الخير. فالخير إذن عند الله هو طاعة ما أمر به، والشر إذن من عند الناس والله لم يخلقه لهم، وأن سمح بوجوده بينهم.

وجماعة القدرية هم أصل المعتزلة الذين اتخذوا الفلسفة اليونانية في طريقة اقتناعهم وجدلهم فخلقوا علم الكلام وأصبحوا أول المنطقيين في الإسلام<sup>(١)</sup>.

ولما كان الأمويون قد أبدوا مذهب القضاء المحتوم، ربما لأنهم وصلوا إلى السلطة عن طريق الفتنة (الحرب أو القهر) كان من الطبيعي أن يقف المعتزلة منهم موقف المعارضة، مثلهم في ذلك مثل الخوارج والشيعة. ولم يكن من الغريب أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة العباسية الرسمي إلى خلافة المتوكل (٢٣٣هـ - ٨٧٤م) وعلى عكس ما نادى به المعتزلة من الحرية وتحكيم العقل والمنطق ظهر مذهبهم وكأنه مذهب التسلط والاستبداد. فلقد دافعوا بعناد وتعصب شديد عن أصول العقيدة من القرآن والسنة ولكتهم رفضوا ما كان يعتقد أهل السنة من قدم القرآن والسنة واستخدموا العنف والاضطهاد في سبيل إملاء أفكارهم.

### المعتزلة:

الظاهر أن فرقة المعتزلة نشأت، مثل الفرق الأخرى، كالخوارج والشيعة، نشأة سياسية، كرد فعل للفتنة الكبرى. فأصحاب الاعتزال الأوائل كان اعتزالهم سياسياً أي البعد عن الفتنة وعدم الانغماس فيها، وربما كان من هؤلاء الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص. وهنا يكون الاعتزال السياسي بمعنى موقف الحياد بين المتنازعين وهو أشبه بموقف الوسط الذي وقفه

(١) أ. د. سعد زغلول، محاضرات في الحضارة الإسلامية، ص ٤٥.



علماء المعتزلة من مرتكب الكبيرة.

وللمعتزلة خمسة أصول اعتقدوا فيها وهي:

١- القول بالتوحيد.

٢- القول بالعدل.

٣- القول بالوعد والوعيد.

٤- القول بالمنزلة بين المنزلتين.

٥- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة وفي ذلك يقول المسعودي في «مروج الذهب» عن الخليفة يزيد بن الوليد: «وكان يذهب إلى قول المعتزلة وماتذهب إليه في الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والوعد والوعيد والاسماء والاحكام، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(١)</sup>».

التوحيد:

هذا المبدأ من أهم مبادئ المعتزلة، لأنهم فسروه تفسيراً خاصاً. وأن كان المسلمون جميعاً يؤمنون بالتوحيد، وباعتقاد أن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

والمعتزلة يعتقدون في وحدانية الله المطلقة دون ماثوية أو تجسيم، كما ينزهون الله عن الصفات: «فالله عز وجل لا كالأشياء، وأنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٥٨.

وما ذكرناه من الجزء والجوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه هي الدنيا ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا أحد، وأنه الخالق للأشياء المبتدع لها لا من شيء، وأنه القديم، وأن ما سواه محدث<sup>(١)</sup>.

### العادل:

وهو الأصل الثاني من أصولهم، ويعرف المعتزلة بأنهم أهل العدل والتوحيد. والمسلمون جميعاً يسلمون بعدل الله، ولكن المعتزلة تعمقوا في معنى العدل. فالعدل من صفات الله، والظلم والجور منفيان عنه، قال تعالى: ﴿وماريتك بظلام للعبيد﴾، وقال تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، وقال تعالى: ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾، وقال تعالى: ﴿لا ظلم اليوم﴾<sup>(٢)</sup>.

«وان الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ويجتنبون ما نهوا عنه بالقدر التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لا يأمر إلا بما أراه ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها برىء من كل سيئة نهى عنها، ولم يكلفهم مالا يطيقونه ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه، وأن احداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدره الله التي اعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطراراً عن معصيته وكان على ذلك قادراً، غير أنه لا يفعل إذ كان ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى»<sup>(٣)</sup>.

(١) المسعودي، المصدر السابق، ص ٥٩.

(٢) انظر، ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط. بيروت، ج ٣، ص ٩٨.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٥٩.

أما مسألة الإرادة - أعني علاقة إرادة الله بالكائنات، فوجهة نظر المعتزلة فيها أنها ترى أن مرید الخير خير، ومرید الشر شرير، ومرید العدل عادل، ومرید الظلم ظالم، فلو كانت إرادة الله تتعلق بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين لله، فيكون المرید موصوفاً بالخيرية والشرية والعدل والظلم، وذلك محال على الله، فهو يقول: ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾.

وإذا فقد قالوا: أن الله أراد ما كان من الأعمال خيراً أن يكون، وما كان شراً ألا يكون، وما لم يكن خيراً وألاً شراً فهو تعالى لا يريد ولا يكرهه.

وبعبارة أخرى: أن الله مرید ما أمر به من الطاعات أن يكون، فهو يريد منا أن نأتي بالصلاة والزكاة، وأن نوحّد الله ونؤمن برساله، ويريد منا المعاصي فلا يريد الكفر والفسوق والمعصيان، أما المباحات فلا يريدنا وألاً يكرهها.

وكان خصومهم يرون في هذه المسألة أن الله مرید لجميع ما كان، غير مرید لما لم يكن، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فالمعتزلة يقولون أن كفر الكافرين ومعصيان العصاة لم يردهما الله، وخصومهم يقولون أرادهما<sup>(١)</sup>.

يستدل المعتزلة بأن الله لو كان مريداً لكفر الكافر، ومعاصي العاصي، مانهاه عن الكفر والمعصيان، وكيف يتصور أن يريد الله من أبي لهب أن يكفر ثم يأمره بالإيمان وينهاه عن الكفر، ولو فعل هذا أحد من الخلق لكان سفيهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولو كان كفر الكافر ومعصيان العاصي مرادين لله ما استحقا عقوبة، وكان عملهما طاعة لإرادته - قالوا - هذا إلى ما في القرآن من آيات كثيرة تدل على أنه لا يريد مانهاه عنه، قال تعالى: ﴿ سينقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبع بيروت، ح ٢، ص ٥١ - ٥٢.

شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم»، وقال تعالى: ﴿قل تلك الحجة  
البيّنة فلو شاء لهداكم أجمعين»، وقال تعالى: ﴿وما الله يريد ظلما  
للعباد»، وقال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

وحجة خصومهم أن كل مافى الزكون من خير وشر محتاج إلى ارادة نريد  
حصوله، فكل حادث مراد، والشر والكفر والمعاصي حوادث موجودة واقعة  
فهي مرادة.

والواقع أن كل فرقة كانت أمام مشكلة عويصة حاولت أن تحلها من  
جانب فتعقدت من جانب، فاذا قلنا أن ارادة الله ومشيئته شاملة لكل ماحدث  
فكيف يشاء الشر؟ واذا قلنا أن ارادته لاتتوجه الا إلى الخير فكيف يقع في  
ملكه مالا يريد؟<sup>(١)</sup>.

ومثل هذا الخلاف في ارادة الله، الخلاف في قدرته تعالى، وبعبارة أخرى  
في العلاقة بين قدرة الله وأعمال العباد: هل أعمال العباد مخلوقة لله، أو هي  
مخلوقة للعباد؟ وهذه هي المسألة التي تتنون عادة بخلق الأفعال فأكثر المعتزلة  
يقولون أن أفعال العباد مخلوقة لهم، ومن عملهم هم لامن عمل الله،  
وباختيارهم المحض، ففي قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها من غير دخل لارادة  
الله وقدرته، ودليل ذلك مايشعر به الإنسان من التفرقة بين الحركة الاختيارية  
والاضطرارية كحركة من أراد أن يحرك يده وحركة المرتعش، وكالفرق بين  
الصاعد إلى منارة والساقط منها، فالحركة الاختيارية مرادة من الإنسان مقدورة  
له، بخلاف الحركة الاضطرارية فلا دخل له فيها - وثانيا لو لم يكن الإنسان  
خالق أفعاله لبطل التكليف، اذ لو لم يكن قادرا على أن يفعل والا يفعل  
ماصح عقلا أن يقال له أفعل ولا تفعل، ولما كان هناك محل للمدح والذم،

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٣.

والثواب والمقاب، بل ما كان لنبوة النبي واصلاح المصلح فائدة، كما استدلوا على مذهبهم بكثير من آيات القرآن، فهناك آيات تضيف الفعل إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾، ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾، ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾.

وآيات تمدح المؤمن على الإيمان، وتذم الكافر على الكفر، كقوله تعالى: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾، ﴿ هل جزاء الاحسان الا الاحسان ﴾. وآيات تدل على أن أفعال الله ليست كأفعال المخلوقين من التفاوت والاختلاف، كقوله: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾. وآيات فيها انكار وتوبيخ على الكفر والمعصية كقوله: ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى .... الآية ﴾. ﴿ فمالهم لا يؤمنون ﴾، فما لهم عن التذكرة معرضين . وآيات أثبت فيها المشيئة: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾. وآيات أمر بها العباد بالاسراع إلى الطاعة قبل فواتها: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾. وآيات حكي فيها التحسر يوم القيامة على الكفر والمعصية : ﴿ قال رب أرجعون لعلى أعمل صالحا ﴾. أو تقول حين ترى العذاب ﴿ لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾.

وقالوا ثالثا: ان كان الله خلق أعمال الناس فهو اذا لايرضى عما فعل، وينضب عما خلق، ويكره ما يخلق.

وكان لهم خصوم مختلفون، فأشد خصومهم من كان يذهب إلى الجبر المحض، ويرى أن أفعال الناس واقعة بقدرته الله تعالى وحدها، وليس لقدرة الناس تأثير فيها، وليس الإنسان الا محلا لما يجره الله على يديه، فهو مجبر جبرا مطلقا، وهو والجماد سواء لا يختلفان الا في الظاهر، فمظهر الإنسان انه

يختار وحقيقته أن لا اختيار، والجناد مجر مطهرا وحقيقة، وتنسب الأفعال إلى الإنسان مجازا، فضرب فلان وكتب وأساء وأحسن كلها مجازات، كما يقال أثمرت الشجرة، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، وأمطر السحاب، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال جبر، والتكليف جبر، ولهم - كذلك - على قولهم أدلة كثيرة، قالوا: أن الإنسان أن كان موجدا لأفعاله، وخالقا لها وجب أن تكون هناك أفعال لا تجرى على مشيئة الله واختياره، ويكون هناك خالق غير الله، هذا إلى ماورد في القرآن دالا على ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾، ﴿ختم الله على قلوبهم﴾، (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا)، ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾ الخ ..

الواقع أن هذه هي مشكلة المشاكل، سميت بالجبر والاختيار، وبحرية الإرادة، وبالقضاء والقدر، وجر فيها الفلاسفة قديما وحديثا، فأثارها الفلاسفة اليونانيون قبل المعتزلة، وكان بعضهم يرى أن الإرادة حرة في الاختيار كالأبيقوريين، وبعضهم كان يرى أنها مجبورة على السير في طريق لا يمكنها أن تتعداه كالرواقيين.

ولما جاء الإسلام وجاء دور البحث أثاروا هذه المسألة، فقال الجبريون وعلى رأسهم جهم بن صفوان: «أن الإنسان مجبور، وليست له إرادة حرة وألا قدرة على خلق أفعاله، وهو كالريشة بين يدي الأمواج، وإنما يخلق الله الأعمال على يديه». وقالت المعتزلة: أن إرادة الإنسان حرة، وقدرته تخلق ما يعمل، وفي استطاعته أن يفعل وألا يفعل، وهو يفعل ما يختار. والذي دعا إلى هذا الاختلاف بين المسلمين أن الأدلة العقلية متباينة، وظواهر النصوص مختلفة.

من ناحية نرى أن الله يطالب الناس بالعمل ويدعوهم إليه، وأمر وينهى،

ويثبت على فعل ما أمر، ويعاقب على الاثيان بما نهى، ووضع الحدود والعقوبات، ووعد وأوعد، وساءل العصاة لم تعديتم ولم عصيتم ولم كفرتم، وقد أفسحت لكم مجال العمل، وأرسلت لكم الرسل، وأبنت الحججة، ثم ملئت نصوص الكتاب بذلك، فكيف يعقل بعد أن نقول أنه لا أثر لقدرة الإنسان أصلا، ولو لم تكن له قدرة لما كان معنى للطلب، ولما كان معنى للشواب والعقاب، ولكان التكليف تكليفا بالجمال، ولحق اعتراض المعترض بأنه لم يفعل ما فعل حتى يستحق لوما أو عقابا.

ومن ناحية أخرى، اذا قلنا أن العبد خالق أعماله ترتب عليه تحديد قدرة الله وانها لم تشمل كل شيء، وأن العبد شريك لله تعالى في ايجاد ما في هذا العالم، والشيء الواحد لا يمكن أن تتعاون عليه قدرتان، فان كانت قدرة الله هي التي خلقتة فلا شأن للإنسان فيه، وأن كانت قدرة الإنسان هي التي خلقتة فلا شأن فيه لقدرة الله، ولا يمكن أن يكون بعضه بقدرة الله وبعضه بقدرة العبد، لأن الشيء الواحد - لا بعض له - هذا إلى النصوص القرآنية الكثيرة الدالة على شمول ارادة الله وقدرته.

ف فريق المعتزلة رجحوا الجانب الأول، ووقفوا موقف الدفاع عنه، وتأولوا النصوص التي ظاهرها مخالفته، وبدلوا في ذلك عناء كثيرا ومجهودا شاقا، وألجأهم إلى ذلك ما تصوروه من معنى العدل عند الله كما بينا.

وفريق الجبرية رجحوا الجانب الآخر، اذ كان شيئا لديهم ان يحذوا من ارادة الله وقدرته، وتأولوا الآيات الدالة على قدرة العبد، وقالوا في مسألة التكليف والشواب والعقاب انها ليست خاضعة لتصورنا في العدل والظلم، فالعدل والظلم ونحوهما كلمات تطبق على الناس لا على الله، اذ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.

وهما الاصلان الثالث والرابع من أصول المعتزلة.

وقول المعتزلة فيهما يقوم على تصورهم للإيمان، وتصورهم للعدل الالهي كما شرحوه وعلى قولهم في أن العالم سائر لغرض يرمى إلى تحقيقه، على النحو الذي قلناه عنهم.

فالإيمان عند أكثرية المعتزلة ليس هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط، بل هو كذلك اداء الواجبات، فمن صدق بأن لا إله الا الله، وأن محمدا رسول الله من غير أن يؤدي الأعمال الواجبة لم يكن مؤمنا، فالإيمان معرفة بالقلب، واقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وإن كل عمل فرضا كان أو نفلا إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيرا ازداد إيمانا، وكلما عصى نقص إيمانه<sup>(١)</sup>.

وبرهنوا على ذلك بأدلة كثيرة منها قوله: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس، لأن الآية نزلت بعد تحويل القبلة، وقد توهم بعض الناس أن الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس قد ضاعت، فسمى الصلاة إيمانا وهي عمل، ومن ذلك ماورد في الحديث من مثل قوله ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمن»، ومثل «لا إيمان لمن لا أمانة له». الخ<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان للمعتزلة معارضون كثيرون في تحديدهم للإيمان بهذا الشكل، فممنهم من رأى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط، ومنهم من ذهب إلى أنه «هو المعرفة بالقلب والاقرار باللسان معا فاذا عرف المرء الدين بقلبه وأقر بلسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام وأن الأعمال لاتسمى

(١) انظر، ابن حزم، الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ٣، ص ١٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٤.



إيماناً ولكنها شرائع الإيمان» (١).

وبعد تعريف المعتزلة للإيمان، قالوا: أن المعاصي التي يرتكبها الإنسان تنقسم إلى صغائر وإلى كبائر، واختلفوا في تعريف الصغيرة والكبيرة، وأشهر أقوالهم أن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد، والصغيرة ما لم يأت فيها الوعيد، ثم قالوا أن الكبائر بعضها يصل من كبره إلى حد الكفر، فمن شبه الله بخلقه، أو جوره في حكم، أو كذبه في خبرة فقد كفر. وهناك كبائر أقل منها منزلة. وهذه الكبائر يسمى مرتكبها فاسقاً، والفسق منزلة بين المنزلتين. لا كفر ولا إيمان، فالفاسق ليس مؤمناً ولا كافراً: بل هو في منزلة بين المنزلتين.

ثم ربطوا الثواب والعقاب بالأعمال ربطاً حتماً، وغلا بعضهم في التعبير فقال: «يجب على الله أن يشيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به .. ولأن الطاعات والأمر بها، والمعاصي والنهي عنها، وضعت لتحقيق غايات، فمن لم يطع فقد أخل بهذه الغايات فاستوجب العقاب، وهذا هو معنى أصلهم الذي وضعوه وعنونوه بالقول بالوعد والوعيد، يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي قانون حتمي التزم الله تعالى به» (٢).

كما قالوا أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ولو صدق بوحدةانية الله وآمن برسله لقوله تعالى: ﴿ومن يحس الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾ الخ.

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٨. أما عن تعريف الإيمان ففي ذلك يقول الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٩: «وقال (يعني برسله عليه السلام للرسول) ما الإيمان: قال عليه السلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

(٢) انظر، الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٥٥ - ٥٦، ص ٦١، ٦٢، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٦٣.

وقال مخالفوهم أن مرتكبوا الكبيرة من المؤمنين لا يخلدون في النار، لقوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾، ومرتكب الكبيرة قد عمل خيراً هو إيمانه، وشراً وهو كبريته، فيعاقب على كبريته، ثم يثاب على إيمانه.

### الامر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهو أصل اتفقت عليه الجماعة الإسلامية كلها «بلا خلاف من أحد منهم لقول الله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾<sup>(١)</sup>. ولكنهم اختلفوا في مدى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذهب بعض أهل السنة من الصحابة رضى الله عنهم ومن التابعين أن وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكفى فيه القلب واللسان أن قدر عليه، ولا يصح فيه استعمال «اليد ولاسل السيوف ووضع السلاح»<sup>(٢)</sup>. ومن ذهب هذا المذهب سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة - وتبعهم في هذا الإمام أحمد بن حنبل - من أجل هذا نراهم قد اعتزلوا الفتنة ولم يشتركوا في القتال الذي دار بين علي ومعاوية، عملاً بمبدأهم هذا<sup>(٣)</sup>.

بينما رأى غيرهم أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب «إذا لم يمكن دفع المنكر الا بذلك»، فمن اعتقد الحق في جانبه وجبت عليه نصرته، فان أدى اللين واللسان إلى تحقيق هذا الغرض كفى ذلك والا السيف وعلى هذا المبدأ سار على رضى الله عنه ومن قائل

(١) انظر ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج ٤، ص ١٧٦.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج ٤، ص ١٧٦.

(٣) المصدر السابق.

معه، وعائشة رضى الله عنها ومن قاتل معها، ومعاوية ومن قاتل معه.

وعلى هذا المبدأ سار المعتزلة والخوارج، فهم يرون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب أن كفى، وباللسان أن لم يكف القلب، وباليد اذا لم يغنيا، وبالسيف أن لم تكف اليد، لقوله تعالى: ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بنت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾.

ولقد كان تعصب المعتزلة، وخاصة موقفهم ازاء صفات الله، وعدم أخذهم بخلودها ولاسيما فيما يتعلق بكلام الله «وهذا المبدأ الذى يكون عنصرا ثانويا فحسب فى مناقشات المعتزلة، كان له أثر ملموس ومعين جذب أنظار الناس بصورة واضحة حتى أصبح هذا القول شعار المعتزلة»<sup>(١)</sup>. والمذهب الذى قبل حتى هذا الوقت كان يقول بأن كلام الله الذى فاض من أنواره لا يمكن أن يكون الا أزليا كما أن الله أزلى وانه لا يمكن أن يكون مخلوقا فى أية حال من الأحوال، ووضعت عدة حلول للتمييز بين القرآن نفسه من حيث انه كلام الله وبين تجسده المادى فى نسخ مكتوبة أو بشكل متلو على الألسنة - فى حين أكد المعتزلة أن القرآن خلق فى نفس الوقت الذى خلقت فيه الكائنات الأخرى على وجه الأرض. وكان هذا هو المذهب الرسمي الذى حاول الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) أن يفرضه بالقوة. وقد أخذ الخليفة يعرض للمحنة أفكار أولئك الذين كانت لهم أية مكانة بسبب مراكزهم المهنية أو بسبب نشاطهم العقلى. ووجهت المحنة فى زمن المأمون ضد معارضى المعتزلة وكل ذوى المكانة. وقد بدأ المأمون ذلك فى سنة ٢١٨ هـ فأرسل كتابا إلى والى بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب،

(١) انظر، ديمومين، النظم الإسلامية، ص ٤١

احتفظ لنا بنصه الطبرى، فى «تاريخ الرسل والملوك»<sup>(١)</sup>. بدأ الخليفة كتابه بالكلام عن السبب الذى دفعه إلى حمل الناس على ذلك وهو أنه أمام المسلمين وخليفتهم واجب عليه حفظ الدين والاجتهاد فى اقامته والعمل بالحق فى الرعية وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ولا استضاء بنور العلم وبرهانه فى جميع الاقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده بالإيمان به.. وقصورا أن يقدروا الله حتى قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم.. وذلك انهم يساوا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه (يعنى القرآن) قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، وقد قال عز وجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ انا جعلناه قرآنا عربيا ﴾، فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾، وقال عز وجل : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾، فأخبر انه قصص «لأمر أحدثها بعده وتلا به فتقدمها، فقال تعالى : ﴿ أكر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه، ثم هم الذين جادلوا فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته يبطل قولهم. ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم اظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك

(١) انظر، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبع دار المعارف، مصر، ج١، ص ٦٢١ وما بعدها.

على الناس، وغرروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمات الكادب،  
والتخشع لغير الله، والتكشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه ومواطنتهم على  
سوء آرائهم، تزيينا بذلك عندهم، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق  
إلى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم.

ثم ذكر أن هؤلاء قد قبلت شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، مع  
دغل فيهم، وفساد عقيدتهم.

«وأولئك شر الأمة، ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظا ...  
وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فانه  
لاعمل الا بعد يقين، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص  
التوحيد».

ثم قال: «فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرا عليهم كتاب أمير  
المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في  
خلق القرآن واحداً، واعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا  
وائق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص  
توحيده وبقينه فاذا أقرروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ... فصرهم بنظر من  
بحضرتهم من الشهود على الناس وسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك  
اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث.. واكتب إلى أمير المؤمنين بما  
يكون في ذلك ان شاء الله. كتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨هـ<sup>(١)</sup>.

نستخلص من هذا الكتاب:

١ - أن المأمون كان يرى أن واجبا عليه تصحيح عقائد الناس الفاسدة ولا

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٦٣١ - ٦٣٤

سيما اذا تغلغل الفساد إلى أصل من أصول الدين كالاسراك مع انه في  
القدم شيئا آخر مثل القرآن

٢- وأن كثيرا من عامة الناس كانوا يتكلمون في حلق القرآن ويرون أنه قديم،  
ولهم علماء ومتورعون يدعون إلى ذلك، وقد رد عليهم المأمون في كتابه  
بالحجج من القرآن

٣- وأن بعض القضاة كان على هذا الرأي من القول بقدم القرآن، وكان  
يقبل شهادة من يقول بقدمه، وقد يرد شهادة من يقوله بحدوثه

٤- وأن المأمون يرى أن القاضى أو الشاهد لا يوثق بقضائه ولا بشهادته اذا  
كانت عقيدته غير صحيحة، فمن اعتقد قدم القرآن قد ضعف توحيد،  
وساءت عقيدته، وصار لا يؤتمن على شهادة ولا حكم، وكان مظنة أن  
يكذب في شهادته، وأن يظلم في حكمه.

٥- فهو لذلك لا يريد أن يولى الاحكام ويزكى الشاهد الا اذا صبح ايمانه  
وصبح توحيد<sup>(١)</sup>.

ثم كتب المأمون بعد ذلك - كما يورد الطبرى - إلى اسحق بن ابراهيم  
أيضا أن ينفذ (يرسل) إليه سبعة من كبار المحدثين وهم: محمد بن سعد  
كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هرون، ويحيى بن معين، وأبو  
خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود،  
وأحمد بن الدروقى. وأغلب الظن أن هؤلاء كانوا من وجوه المحدثين من  
بغداد، فأشخصوا إليه، وامتحنتهم عن القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق  
فأقروا بذلك فخلى سبيلهم<sup>(٢)</sup>

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٦٨ ١٦٩

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ١٣٧ ٦٤٤

وأصدر المأمون بعد ذلك كتابا ثالثا لاسحاق بن إبراهيم بامتحان القضاة  
العقيدة، أورد فيه نص الطبري في تاريخه

فأحضر اسحق بن إبراهيم مشاهير العلماء وامتحانهم، ثم حرر محضرا  
بجميع أقوال المتحنيين وأرسلها إلى المأمون، فهاج وثارت ثائره وكتب كتابا  
رابعا أرسله إلى اسحق فجمعهم اسحق ثانية وأعاد امتحانهم فاعترف بعضهم  
بخلق القرآن ولم يبق الا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فقد أصرا على  
قولهما فشدوا في الحديد ووجهها إلى طرسوس للمأمون، وكتب اسحق كتابا  
إلى المأمون يذكر فيه أن القوم الذين وافقوا لم يوافقوا عن عقيدة، وإنما اجابوا  
عن تأويل، وقد تأولوا انهم مكروهون وليس على المكروه حرج. فأرسل المأمون  
كتابا خامسا يبين فيه أن هؤلاء أخطأوا التأويل، وليست الآية: ﴿إلا من أكره  
وقليه مطمئن بالإيمان﴾، منطبقة عليهم، إنما عنى الله بهذه الآية من كان  
معتقدا مظهر الشرك، فأما من كان معتقدا الشرك مظهر الإيمان فليست الآية  
له. ثم أمر بإشخاص من رفض إليه في طرسوس، فلما صاروا إلى الرقة بلغهم  
موت المأمون فرجعوا إلى بغداد<sup>(١)</sup>.

وقد كتب المأمون في وصيته للمعتصم: «وخذ بسيرة أخيك في القرآن  
والإسلام»<sup>(٢)</sup>. واستمرت المحنة على أيام خلفه الواثق الذي تعصب للمقول  
بخلق القرآن، ثم مات الواثق في سنة ٢٢٣هـ وبويع للمتوكل الذي أيد  
مذهب السنة تأييدا مطلقا واضطهد كل من عداهم من غير السنة. وانهار  
المعتزلة انهيارا تاما منذ منتصف القرن الثالث الهجري، ومحاولة التوفيق بين  
العقل والنقل لم تنتشر بعد ذلك الا في نطاق ضيق. الا أن فكر المعتزلة أثر في

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٦٤٥

(٢) ابن الأثير، الكامل، طبعة التجارية، ج ٥، ص ٢٢٦

بعض العقول التي لم تكن راضية تماماً عن أهل السنة المتنفذين في الحكم  
من هذه العقول التي أثر فيها الاعتزال بقوة، الأشعري وهو صاحب مبدأ  
التوفيق الذي قدر له منذ زمنه السيطرة على فلسفة الدين الرسمية في الإسلام.  
ونشطت مدارس المعتزلة زمن البويهيين (القرن الرابع الهجري - العاشر  
الميلادي) في العراق وفارس وخراسان.<sup>(١)</sup>

---

(١) انظر، ديموجين، النظم الإسلامية، ص ٤٢.



## بعض مشاهير علماء المعتزلة

واصل بن عطاء الغزالي:

ينسب إليه نشأة جماعة المعتزلة (توفي سنة ١٣١هـ) وله رأى فى صاحب الكبيرة وفى ذلك يقول الشهر ستانى، فى «الملل والنحل»، «انه دخل واحد على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبار، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا مع الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.. فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا، فتفكر الحسن فى ذلك وقيل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد (فى البصرة) يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة<sup>(١)</sup>. وتابعة على ذلك عمرو بن عبيد<sup>(٢)</sup>، وكان واصل مشهورا بالفضل والأدب عندهم<sup>(٣)</sup>. وكان كثير التأليف، فله كما يقول ابن النديم فى «الفهرست»، كتاب أصناف المرجئة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الخطب فى التوحيد والعدل، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر، الشهر ستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٤) ابن النديم، الفهرست، طبعة لتبازية، ص ٢٥١.

## أبو الهذيل العلاف:

شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والمناظر عليها كما يقول الشهرستاني، ولد في سنة ١٣٥هـ (أى على أيام خلافة السفاح)، ومات سنة ٢٣٥هـ<sup>(١)</sup> (في خلافة المتوكل)، وبلغ ذروته في أيام المأمون. فالرواية تقول: «وعقد (أى المأمون) المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات وكان أستاذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل العلاف»<sup>(٢)</sup>.

ويعرف أصحابه (اتباع مذهبه) باسم «الهذيلية» وكان لأبي الهذيل آراء يتميز بها عن سائر المعتزلة من ذلك إنكاره لصفات الله فهو يقول: «أن الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته، قادر بقدرته وقدرته ذاته، حي بحياة وحياته ذاته»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يريد أن ليس شيء في الحقيقة غير الذات، وصفة العلم والقدرته ونحوهما ليست الا مظاهر لذاته، فمظاهر الخلق في نظرنا تدل على قدرته، فنقول اذا ذاك أنه قادر، وتدل على العلم، فتقول انه عالم، وفي الحقيقة لاشيء غير ذاته. «وقد قال الأشعري: «أن أبا الهذيل أخذ قوله من أرسطو، فان أرسطو قال في بعض كتبه: أن الباري علم كله، قدرة كله، حياة كله، سمع كله، بصر كله، فحسن أبو الهذيل لفظة أرسطو وقال: علمه هو هو، وقدرته هي هو»<sup>(٤)</sup>.

وكان يرى أن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧.

(٢) انظر، الدينوري، الاخبار الطوال، طبعة القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٠١.

(٣) الشهرستاني، المصدر السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) انظر، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، وهو ينقل عن الأشعري.

كان صفة ذاتية للقيح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجويز وقوع القبيح منه قبح أيضا، فيجب أن يكون مانعا - ففاعل العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم. وزاد أيضا على هذا الاختيار فقال انما يقدر على فعل ما يعلم أن فيه صلاحا لعباده ولا يقدر على أن يفعل لعباده في الدنيا ما ليس فيه صلاحهم. هذا في تعلق قدرته على أن يزيد في عذاب أهل النار شيئا، ولا على أن ينقص منه شيئا وكذلك لا ينقص من نعيم أهل الجنة، ولا أن يخرج أحدا من أهل الجنة، وليس ذلك مقدرورا له. وقد أكرم عليه أن يكون البارئ تعالى مطبوعا مجبوراً على ما يفعل، فان القادر على الحقيقة من يتخير بين الفعل والترك..<sup>(١)</sup>

ومن أقواله قوله في الأجماع «انه ليس بحجة في الشرع وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز أن يكون حجة»<sup>(٢)</sup>.

وله آراء أخرى مثل قوله : «لا إمامة الا بالنص والتعيين .. وقد نص النبي ﷺ على علي كرم الله وجهه في مواضع ما أظهره إظهاراً لم يشتهه على الجماعة، الا أن عمر كنتم ذلك وهو الذي تولى بيعة أى بكر رضى الله عنهما يوم السقيفة..»<sup>(٣)</sup>

ثم وقع في عثمان رضى الله عنه كما يقول الشهرستاني، وذكر احدائه من رده الحكم بن أمية إلى المدينة وهو طريد رسول الله ﷺ، وتقليده الوليد بن عتبة الكوفة وهو من أفسد الناس ومعاوية الشام .. وهم أفسدوا عليه أمره...<sup>(٤)</sup>.

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢ - ٧٣.

بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع، وأن قصر في ذلك استوجب العقوبة، فيجب عليه الصدق والعدل والأعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لأن العقل يستطيع أن يدرك حسنيتها وقبحها لما فيها من صفات تجعلها حسنة أو قبيحة.

### النظام:

كان متكلماً شاعراً، قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة واخلط كلامهم بكلام المعتزلة<sup>(١)</sup>.

وهو إبراهيم بن سيار بن هاني النظام البصري، (وكان من الموالي) درس على العلاف وتلمذ له في الاعتزال، ثم كون مذهباً خاصاً عرف به، ويعرف أصحابه باسم «النظامية» عاش بعض الوقت في بغداد، ومات سنة ٢١١ هـ، وكان أستاذاً الجاحظ.

ويذكر ابن النديم في «الفهرست» أنه حاول أن يدخل أبا نواس في المذهب فكان يدعو إلى القول بالوعيد وكان يعنفه لإبائه حتى قال فيه أبو نواس:

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة      حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء  
لا تحظر العفو أن كنت امرأ حرجاً      فإن حظركه بالدين ازدراء<sup>(٢)</sup>

ومن مسأله التي انفرد بها قوله: «أن الله تعالى لا يوصف بالقدره على الشرور والمعاصي وليست هي مقدوره للباري تعالى، خلافاً لأصحابه فانهم قضوا بأنه قادر عليها لكنه لا يفعلها لأنها قبيحة ومذهب النظام أن القبح اذا

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢.

كان صفة ذاتية للقبیح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجویز وقوع القبیح منه قبح أيضا، فیجب أن یكون مانعا - ففاعل العدل لا یوصف بالقدرة على الظلم. وزاد أيضا على هذا الاختیار فقال انما یقدر على فعل ما یعلم أن فیه صلاحا لعباده ولا یقدر على أن یفعل لعباده فى الدنیا ما لیس فیه صلاحهم. هذا فى تعلق قدرته على أن یزید فى عذاب أهل النار شیئا، ولا على أن ینقص منه شیئا وكذلك لا ینقص من نعيم أهل الجنة، ولا أن یرج أحدا من أهل الجنة، ولیس ذلك مقدورا له. وقد ألزم علیه أن یكون الباری تعالى مطبوعا مجبورا على ما یفعله، فان القادر على الحقیقة من یتخیر بین الفعل والترك..(١)

ومن أقواله قوله فى الاجماع «انه لیس بحجة فى الشرع وكذلك القیاس فى الاحكام الشرعية لا یجوز أن یكون حجة»(٢).

وله آراء أخرى مثل قوله : «لا إمامة الا بالنص والتعیین .. وقد نص النبى ﷺ على على كرم الله وجهه فى مواضع ما أظهره اظهارا لم یشتبه على الجماعة، الا أن عمرکم ذلك وهو الذى تولى بیعة أى بكر رضی الله عنهما یوم السقیفة..(٣)

ثم وقع فى عثمان رضی الله عنه كما یقول الشهرستانى، وذكر احدائه من رده الحكم بن أمية إلى المدينة وهو طرید رسول الله ﷺ، وتقلیده الولید بن عتبة الكوفة وهو من أفسد الناس ومعاوية الشام .. وهم أفسدوا علیه أمره... (٤).

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢ - ٧٣.

وفيه يقول الجاحظ في كتاب الحيوان: «ولولا ابراهيم (يعنى النظام) لهلكت العوام من المعتزلة، فاني أقول انه قد أنهج لهم سبلا، وفق لهم أمورا، واخصر أبوابها ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة»<sup>(١)</sup>.

ثمامة بن أنرس:

هو تلميذ العلاف، وكان من جلة المتكلمين المعتزلة قريه الرشيد ثم سخط عليه فحبسه لما نقم على البرامكة (لاختصاصه بهم) ثم أنه بلغ من المأمون منزلة جليظة حتى رشحه للوزارة ولكنه امتنع وأشار عليه أن يستوزر أحمد بن أبي خالد بدلامنه.

وبلغت مكانة ثمامة من الخلافة إلى حد أنه كان لا يقوم لطاهر بن الحسين وهو رجل الدولة العظيم أتخذ بينما كان يقوم للعلاف ويأخذ ركابه حتى ينزل وعندما يسأل الخليفة عن ذلك يقول: «أستاذي منذ ثلاثين سنة»<sup>(٢)</sup>.

الجاحظ:

كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم<sup>(٣)</sup> ولكن تعصبه للمعتزلة جعل كتبه في الاعتزال لم تصل الينا. فلم يبق لنا مثلاً كتابه الموسوم باسم «الاعتزال وفضله على الفضيلة»، ولا كتابه في «الاستطاعة وخلق الافعال»، و«خلق القرآن»، وكتاب «فضيلة المعتزلة»، وغيرها من كتبه الدينية.

وكما يقول الشهرستاني: فقد انفرد عن أصحابه بقوله: «أن المعارف

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٤.

كلها صرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الإرادة ويحصل أفعاله منه طباعاً<sup>(١)</sup>.

وهذه المسألة جرى فيها الخلاف بين علماء الكلام في عصر الجاحظ وبعده هل المعارف ضرورية أو نظرية؟ ويعنون بالضرورية أنها تحصل بلا اكتساب، وبلا نظراً، وبأنها نظرية أنها تحصل بالاكتساب والنظر، فكان الفخر الرازي يرى كالجاحظ أنها ضرورية، وكان أمام الحرمين والغزالي يريان أنها نظرية، ويرى غيرهم أن بعضها ضروري وبعضها نظري، وفي ضوء هذا يمكننا تفسير رأى الجاحظ.

وقد جر المعتزلة إلى البحث عن هذا الموضوع مسألتان هما:

١- هل الإنسان يخلق أفعال نفسه أو يخلقها الله فيه؟

٢- والأفعال المتواردة من فعل، هل تنسب إلى الفاعل أو لا تنسب، فإذا رمى حجراً في الماء فتولدت منه دائرة ودائرة ودائرة، هل تنسب إليه؟ وإذا أشعل عوداً فأحرق البيت، وتولد عن الاحراق موت أشخاص، وتولد من الموت أحداث، هل تنسب إلى من أشعل العود؟ وقد تقدم بحث هاتين المسألتين، فكان ثمامة بن أشرس، من أعلام المعتزلة يرى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها، فقد يفعل شخص فعلاً، ويتولد بعد موته عنه أفعال، فلا يمكن نسبتها إلى الميت، وإذا كانت قبيحة فلا يمكن نسبتها إلى الله لأنه لا يفعل القبيح، فهي أفعال لفاعل لها، فيجب أن نقول ذلك في كل المتولدات<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر السابق، ص ٩٤

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٩٠، أحمد أسد، ضمن الإسلام، ج ٢، ص ١٣١ -

ويظهر أن الجاحظ كان يرى هذا الرأي فأداه إلى القول بأن المعارف ليست من فعل الإنسان، لأنها متولدة أما من اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر ولذلك قال أن الإنسان في تحصيل معرفة ليس له إلا توجيه الإرادة، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة، فإذا أنت فتحت عينيك فأدركت أن هذا الشيء أحمر، وهذا أصفر، وأن هذا أكبر من ذلك، ففتحت لعينيك عمل ارادى اختياري كسبي، وأما المعارف التي تحصل منه، أو بعبارة أخرى تتولد منه، فاضطرارية، وكذلك الشأن في توجيه الفكر إلى البحث واستعراض البرهان، فتوجيه النظر عمل ارادى، ولكن اقتناع الناظر أو عدم اقتناعه وتحصيل العلم به عمل ضرورى أو اضطرارى لا كسبي.

ومعارف الإنسان معارف بطبعه، فهو يلتقم الثدي بطبعه، وبالم ويغرب بطبعه، فإذا نما عقله طبيعياً نمت معارفه طبيعية، فبدأ يدرك أن الكل أكبر من الجزء، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين، وهو بطبعه يتطلب الفكر والنظر، وهو بطبعه يقبل ما صح لديه من برهان ويرفض ما لم يصح عنده.

ومن قوله أيضاً «يوصف البارئ تعالى بأنه مرید بمعنى أنه لا يصح عليه السهو فى أفعاله ولا الجهل ولا يجوز أن يغلب ويقهر، وقال أن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبى وهم محجوبون بمعرفتهم. ثم هم صنفان: عالم بالتوحد وجاهل به، فالجاهل معذور والعالم محجور ومن اتحل دين الإسلام فإنه اعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة، ولا يرى بالابصار، وهو عدل لا يجور، ولا يريد المعاصى. وبعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله فهو مسلم حقاً. وأن عرف ذلك كله ثم حجده وأنكره أو دان بالتشبيه والجبر فهو مشرك كافر حقاً، وأن لم ينظر فى شىء من ذلك واعتقد أن الله ربه وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن لا لوم



عليه ولا تكليف عليه<sup>(١)</sup>

هذا ولقد كان للجاحظ أثره في الأدب، فقد أدخل أشكال القياس المنطقية في أساليب البلاغة وذلك في البديع المعروف بالقول الموجب والمثل لذلك رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات التي يقول فيها: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضاء، المضادة توجب العداوة، خلاف الهوى يوجب الاستثقال ومتابعته توجب الألفة. الأمانة توجب الطمأنينة. الخيانة توجب المنافرة.. الخ<sup>(٢)</sup>.

### الخوارج

ظهرت فرقة الخوارج بعد موقعة صفين أي لأسباب سياسية.

وقد عرفت الجماعة الأولى التي خرجت على علي رضي الله عنه أثر معركة صفين عند الكتاب باسم الحرورية (نسبة إلى حروراء من نواحي الكوفة وهو المكان الذي ظهوروا فيه)<sup>(٣)</sup>، كما عرفوا أيضا باسم الشراة (أي الذين اشتروا من الله أنفسهم بأن لهم الجنة) - خرجت على علي لقبوله التحكيم ورفعت شعار لا حكم الا لله ولهذه سموا أيضا بالمحكمة<sup>(٤)</sup>.

وقد اجتمع الخوارج تحت قيادة عبد الله بن وهب الراسبي وهو أول من يبيع بالإمامة<sup>(٥)</sup>، ولحقوا بالمدائن فقتلوا عامل علي رضي الله عنه عليها، واشتد على في قتالهم وقتل عبد الله بن وهب الراسبي<sup>(٦)</sup>. ولكنهم بايعوا إمام

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣.

(٣) الشهرستاني، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٧، ١٦٠.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٥٩.

(٦) السعدي، ج ٢، ص ١٥٥ - ١٥٧.

آخر وتجمعوا في منطقة البصرة ومنها انتشروا في بلاد العرب. وقد وقفوا ضد كل من علي ومعاوية الا أن ما أناروه من اضطراب وقلقل كان سببا في ضعف الحزب العلوي مما ساعد على انتصار الأمويين. كما كانوا يعد ذلك سببا لانتصار العباسيين على الأمويين. وقد جلبوا على أنفسهم نقمة الدولة، بسبب عنفهم، فجدت في حربهم، والقضاء عليهم حتى يمكن القول أنهم اختفوا فعلا عن مسرح الاحداث من أواخر القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي. هذا. مع بقاء جماعات منهم من الاباضية في عمان وزنبار والمغرب (في طرابلس وتونس والجزائر):

ولقد قوى الخوارج بانضمام كثير من الموالى (أى من غير العرب). وقد جوزوا أن تكون الإمامة (الخلافة) في غير قريش (عكس أهل السنة والشيعة) بمعنى أنهم أصحاب فكرة الحكومة الجمهورية التي يجوز أن يصل فيها إلى مركز الرياسة أى مسلم دون تفرقة عنصرية - طالما توفرت فيه شروط الأهلية - «فيجوز أن يكون عبدا أو حرا أو نبطيا أو قرشيا»<sup>(١)</sup>. وأن غير السيرة وحاد أو عدل عن الحق وجب عزله أو قتله<sup>(٢)</sup>. وهم يبجلون ويبجلون كلا من أبي بكر وعمر، بينما يقفون من عثمان موقفا وسطا فهم يعترفون بخلافته في سنواتها الأولى وينكرونها في سنواته الأخيرة. ولكنهم ينكرون خلافة علي ومعاوية.

وقد انقسم الخوارج إلى فرق عديدة من أشهرها فرقة الأزارقة - أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، وهم من غلاة الخوارج وأكثرهم تعصبا - وخرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز - في أيام عبد الله بن الزبير - فغلبوا عليها وعلى كورها وماوراءها من بلدان فارس وكرمان. وهم يكفرون من ليس

(١) الشهرستاني، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

بفرقتهم من المسلمين . وهم لا يجيبونهم اذا دعوهم إلى صلاة، ولا يتزوجون منهم، ولا يأكلون ذبائحهم. وقالوا عن بلادهم انها «دار حرب»؛ فيجوز قتالهم وقتل أطفالهم ونساءهم. وقد أسقط نافع حد الرجم عن الزاني، وأسقط حد القذف عن قذف المحصنين من الرجال مع وجود الحد على قاذف الحصنات من النساء. «ولكنهم قطعوا يد السارق من المنكب» . وهم يرون أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة خرج به عن الإسلام جملة ويكون مخلدا في النار<sup>(١)</sup>.

ولقد قويت شوكتهم في جنوب فارس، ولكن قضى عليهم أواخر القرن الأول الهجري (نهاية القرن السابع) بعد عدد من الحملات العنيفة.

أما الفرقة الثانية فهي الصفورية، اتباع زياد بن الأصغر، وهؤلاء اتخذوا موقفا وسطا بين الأزارقة والاباضية، فقبلوا وقف الحرب مؤقتا ضد غيرهم من المسلمين وأجازوا التقية (ستر العقيدة). في القول دون العمل، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين<sup>(٢)</sup>.

وانتشروا في أواخر أيام الدولة الأموية في كل البلاد خاصة في المغرب حيث عملوا مع الاباضية على ائارة المغاربة (البربر)، وألحقوا بالدولة هزائم منكرة، كما قتلتهم جيوش الخلافة قتلا ذريعا.

وسيندمج الصفورية في جماعة الاباضية، والاباضية يمثلون الفريق المعتدل من الخوارج، وهم أصحاب عبد الله بن أباض التميمي الذي خرج في أيام مروان بن محمد، في جزيرة العرب، وعملوا بذلك على انتصار العباسيين.

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٦٣ - ١٦٤، وعن قطع يد السارق انظر، ابن حزم،

الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨٩ (ذكر شنع الخوارج) .

(٢) انظر، الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٨٤

ولما طردوا من الحرمين، ظلوا في عمان وانتشروا في بلاد زنجبار، والمغرب، حيث عملوا مع الصفرية على نشر مذهبهم بين البربر. فأقاموا الامارة الرستمية في تاهرت التي عاشت أكثر من ١٣٠ سنة إلى ظهور الفاطميين، فانسحب الخوارج إلى الصحراء ومازالت جماعاتهم في جربة، وجبل نفوسة، وخاصة في بلاد الزاب وهم على اتصال بجماعات الخوارج في عمان وزنجبار.

ويعتبر الاباضية آخر بقايا الجماعات الخارجية التي اشنت المحجاج وقواده في قتالها. ولا بأس من الاشارة إلى أن الحركة الخارجية لم تكن ضد التطور والازدهار الفكري، فعلى عهد الدولة العباسية ظهر كثير من علماءهم وأدبائهم، كما كان لهم شعراء وخطباء.

أما عن تعاليم الخوارج فهي لم تدون ولم نقنن مما جعلها عرضة للتحويل والتغيير، الا أنها كانت ذات أثر واضح في تقدم الفكر الديني عند المسلمين بعد أن وثقت علاقاتها بالمعتزلة واستخدمت أسلوبهم في الكلام.

وقد ظهر الخوارج بمظهر المحافظين على الشرع الذين يرغبون في العودة بالمجتمع الإسلامي إلى وحدته الأولى، وبالإسلام إلى نقائه الأول. والقرآن بالنسبة لهم هو كلام الله الأزلي غير المخلوق، وهو يحتوى على كل علم، وينبغى أن يفسر حرفياً. وقد وصفوا بأنهم أهل صيام وصلاة، وهم لا يقرون بوجود العقيدة اذا لم تصحبها الأعمال التي تثبتها، فالشخص الذي يرتكب معصية كبيرة ليس بمؤمن بل وينبغى في رأى المتطرفين منهم عزله عن الجماعة الإسلامية، بل وقتله هو وعائلته.

### الشيعة

الشيعة لفة هم الاصحاب والاتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين

من الحلف والسلف على اتباع علي وبنه رضى الله عنهم<sup>(١)</sup>.

وأصول الشيعة الرئيسية سياسية: والخلفاء الثلاثة الأول غير شرعيين، أما عن الأمويين والعباسيين فانهم مفتصبون. فالأساس الشيعي في السياسة هو فكرة «الشرعية» فعلى رضى الله عنه «إمام مفترض الطاعة بعد رسول الله ﷺ وآله واجب على الناس القبول منه والأخذ، ولا يجوز غيره، الذى وضع عنده النبى ﷺ وآله من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين والحلال والحرام، وجميع منافع دينهم ودنياهم.. وجميع العلوم جليلها ودقيقها واستودعه ذلك كله، ولذا استحق الإمامة، لمصمته وطهارة مولده وسابقته وعلمه وزهده وعدالته فى رعيته، وأن النبى ﷺ نص عليه، وقلد الأمة إمامته، وعقد له عليهم إمرة المؤمنين وجعله أولى الناس منهم بأنفسهم فى مواطن كثيرة»<sup>(٢)</sup>. وقد أوصى النبى صراحة أمام جمع من صحابته بخلافته إلى علي، وذلك فى غدير خم أثناء حجة الوداع، فيقولون: أن النبى خطب الناس فقال: «أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ا قالوا بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره واخلف من خذله». ويحتفل الشيعة بذكرى هذا اليوم، ويسمونه عيد الغدير<sup>(٣)</sup>.

وفى نظر الشيعة يعتبر علي وسلالته الاثنا عشر هم الخلفاء حقيقة أو الأئمة بوجه أصح، إذ الإمام عندهم وريث النبى ﷺ ويتم تعيينه بطريق إلهي بفضل وصية سرية تنتقل منذ آدم من إمام إلى آخر: إذ انتقل النور الألهي

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٨.

(٢) التوبختي، فرق الشيعة، طبع النجف، سنة ١٩٣٦، ص ١٨-١٩ - الشهر ستى، الملل والنحل، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) انظر، الشهر ستى، ج ١، ص ٢٢٥ حيث نص الحديث: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخلف من خذله وأمر الحق معه»

الذى حل في آدم والأبنياء من بعده واحدا بعد آخر حل كذلك في آباء محمد وعلي وانتقل إليهما وإلى ذريتهما من بعد، وبالتالي فقد تجلّى هذا النور نفسه في أبناء علي من غير فاطمة أيضا، وهم جميعا من أهل البيت<sup>(١)</sup>.

وكما يقول الشيعة فإن الأئمة الاثنا عشر معصومون، وأن لكل واحد منهم آياته وكل منهم عندما يحس بالموت يوصى لأخر ليخلفه كإمام، وذلك إلى أن نصل إلى الحسن بن علي العسكري فإن هذا يعهد بالإمامة إلى ابنه محمد ويعلن أنه المهدي وأنه سيد الزمان. وولد محمد بن الحسن بسامرا سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م، ويقال أنه اختفى هناك في سرداب بدارهم وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيحيا الأرض عدلا، يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذى في المهدي، وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك<sup>(٢)</sup>.

وجود الإمام ضروري لكل زمان. وظل التشيع على عهد العباسيين، كما كان على عهد الأمويين حزب المعارضة ضد عدم شرعية الحكم. وأصبح للتشيع حياة مستقرة عملت بين أتباعه على ظهور الميل إلى ستر أو عدم الكشف عن معتقداته، والأخذ بمبدأ (التقية) ورغم أن التقية أو الكتمان معروف لدى أهل السنة والخوارج إلا أنه سيصبح من أهم مميزات فرق الشيعة الغلاة.

والزيدية هم أكثر الشيعة اعتدالا وأقربهم إلى أهل السنة، وقد أسسوا في اليمن إمامة مستقلة.

(١) «ديوبين، النظم الإسلامية، ص ٤٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٢.

والزيدية سسة إلى زيد بن علي زين العابدين حفيد الحسين الذي قتله الأمويون سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م، وهم يعترفون بشرعية خلافة أبي بكر وعمر فيقولون بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. وهم ينكرون زواج المتعة (الزواج المؤقت) كما ينكرون فكرة حلول روح الله في الإمام ولا ينتظرون عودة الإمام الغائب، فمن رأيهم أنه منذ موت الإمام زيد ينبغي أن تكون الخلافة انتخابية وليست وراثية (١).

وعلى عكس ذلك فإن الامامية وهم أغلبية الشيعة يجعلون في رجعة الإمام المستتر أصلاً من أصول العقيدة. فالإمام الثاني عشر وهو محمد ينبغي أن يعود في الوقت المناسب وأنه المهدي. وسيصبح التشيع فيما بعد المذهب الرسمي لإيران. وانتصر التشيع بدخول البويهيين بغداد. وعلى أيامهم ألفت مجموعات الأحاديث الشيعية التي تعادل مجموعات أهل السنة.

والإمام عند الزيدية يتمتع بالتوجيه الألهي، بمعنى أنه يتقلد سلطانه من الله، ولكن الإمامية يعتبرون أن الإمام يحمل شيئاً من نور الله أي أنه متأثر بحلول جزئي يعطيه شيئاً من القدسية. أما الغلاة ففهم أن هذا الحلول تام. قاله يتحد بالإمام اتحاداً أساسياً حتى أن الصفة الإلهية تغلب على الصفة الإنسانية لدى الإمام (٢).

وفكرة عودة الإمام هي التي تمخضت عن الحركات المهديّة التي عرفت في تاريخ الإسلام. ففكرة المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً قبل آخر الزمان ظهرت في وقت متأخر بعض الشيء.

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٣٥٠ (عن الزيدية) وكان ينص عليه (أبي زيد) مذاهب المتزلة وأخذها إماماً عن واصل بن عطاء، عن جواز إمامة المفضول، انظر ابن حزم، الفصل في الأهواء والتحل، ج ٤، ص ١٦٤، والذهير سلطان، ج ١، ص ٢٠٩، وعن الزيدية، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٩.

ويمكن القول أن التشيع أحسن استغلال فكرة المهدي. فعلى لدى الشيعة الغلاة يتحول إلى إله يتحكم في السحاب فالرعد صوته والبرق سوطه وهكذا يصبح المهدي شيئا فشيئا أحد أفراد بيت علي. أي يصبح الإمام الغائب أو سليل قاطمة (الفاطمي) المنتظر. استفاد عبيد الله المهدي من هذه التقاليد الشيعية واستطاع أن يؤسس الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث الهجري/ العشر الميلادي. وبعد قرنين ظهر مهدي آخر هو محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحديين وهي الدولة السنية وأن قبلت فكرة المهدي<sup>(١)</sup>.

ويذكر ابن خلدون أن أهل الحلة كانوا يقفون كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب السرداب، الذي اختفى فيه محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الملقب بالمهدي، وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم، ثم يفضون، ويرجعون الأمر إلى الليلة التالية وهم على ذلك لهذا العهد<sup>(٢)</sup>. (أي عندما كان يكتب ابن خلدون في نهاية القرن الثامن الهجري).

### القرامطة والاسماعيلية:

فرقة الاسماعيلية وهم من غلاة الشيعة، ويطلق عليهم أيضا اسم «الواقفة» لأنهم يوقفون سلسلة أئمتهم عند الإمام السابع، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي يختم قائمة الأئمة الشرعيين، وإليه ينتسبون فهم الاسماعيلية. أما عن سبب توقفهم عند الإمام السابع وانكارهم الأئمة الخمس الباقين هو أنه حوالي سنة ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م وجد الإمام السادس وهو

(١) كلمة المهدي اسم مفعول من هدى، يقال هداه الطريق أي عرفه وهداه عليه وهداه له فهو مهدي، ووردت في القرآن كلمة المهدي: «من يهده الله فهو المهتد».

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٢.



جعفر الصادق أن ابنه الأكبر إسماعيل غير جدير بالإمامة فخلعه وأحل محله ابنه الأصغر موسى الكاظم. وأنكرت الإسماعيلية موت إسماعيل في حياة أبيه وقالوا لم يمست إلا أنه أظهر موته تقيية من خلفاء بني العباس وعقد محضرا وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى «قالوا كان ذلك على جهة التلييس من أبيه على الناس لانه خاف فغيبه عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس»<sup>(٢)</sup>.

ورغم ذبوع خير موته فانهم ظلوا مخلصين له، ونشر أحفاده الذين انتشروا في فارس والشام مذهبه بفضل الدعاة<sup>(٣)</sup> وقد نصوا على أن الإمام بعد إسماعيل هو ابنه محمد بن إسماعيل «السابع التام وإنما تم دور السبعة به ثم ابتداء منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد ويظهرون الدعاة جهرا» وقالوا لن تخلو الأرض قط من إمام حتى قاهر إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، وقالوا اذا كان الإمام مستورا فلا بد أن يكون حجته ودعائه ظاهرين<sup>(٤)</sup>.

ومن تعاليمهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية<sup>(٥)</sup>.

وظل نشاط هذه الفرقة دينيا طوال قرن تقريبا، ولكن بعض الدعاة تمكن من توجيهه نحو أغراض سياسية واجتماعية. وتمكن الداعي حمدان بن

(١) انظر، الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٠، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) التريفي، فرق الشيعة، ص ٦٧.

(٣) انظر، مبهمين، النظم الإسلامية.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٩.

الأشعث المعروف بقرمط من أن يجمع حوله عناصر من العمال والفلاحين في أسفل العراق، ممن كانوا قد اشتركوا في حرب الزنج، واكتسبهم إلى جانب الإمام المستور حتى يرضى ميولهم نحو المساواة - التي طالبوا بها - ونظمهم في طبقات من أصحاب المعرفة.

والعقيدة القرمطية الخاصة باكتساب النور والمستقاة من الهلينية والمجوسية هي التي تقرر بنية الفرقة، تلك البنية المتكونة من عقائد وفرائض عملية تتدرج من أبسط العقائد والفرائض التي يعتنقها مسلم بسيط وترتفع إلى مستوى عال من الإدراك المباشر للوحدة الالهية، ذلك الإدراك الذي ينكر فكرة الواجبات الدينية.

هكذا تجمع القرمطية بتنوعها بين الفلسفة في أعلى قممتها وبين أبسط مظاهر الشيعة المتطرفة في أساسها<sup>(١)</sup>.

وانتشرت حركة القرامطة من العراق إلى جزيرة العرب، وقاموا بأعمال تخريبية متطرفة من ذلك حملة أبي ظاهر سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م، على مكة واستيلائه على الحجر الأسود الذي لم يعد إلى مكانه حتى سنة ٣٤٠هـ / ٩٣٠م وبفضل وساطة الخليفة الفاطمي<sup>(٢)</sup>.

وقد آثار دواعٍ أخرى، هو أبو عبد الله الشيعي الصنعاني، حماس المغاربة (البربر) للإمام المهدي في إفريقية حيث قامت الدولة الفاطمية. وانتقل الفواطم إلى مصر حيث أصبحت الاسماعيلية المذهب الرسمي لمدة قرنين.

والظاهر أن القرامطة استخدموا مذهب الإمام المستور من أجل الثروة الاجتماعية، ولكن الفاطميين رفضوا هذه الاشتراكية واستخدموا الدعاية

(١) ديموسين، النظم الإسلامية، ص ٤٨.

(٢) انظر، ابن الأثير، الكامل.

القرمطية ومذهب الإمام المستور لتحقيق أهدافهم السياسية.

وشرعية الفاطميين كانت محل نقد المؤرخين<sup>(١)</sup>. فبيشما يقول الإمامية بتوارث الإمامة بالوصية من إمام إلى إمام وجدنا أن الزيدية رأوا أن الإمامة تجوز أن تكون لأي علوي. أما الإسماعيلية فاحتجوا ويرون أن الإمامة عهد اجباري يعطى للمختار من بين العارفين بالعلم الالهي عن طريق استنارة العقل، أي الذي خصته العناية الالهية بالنورانية.

أصبحت مسألة الشرعية ثانوية لدى الفاطميين الذين أعلنوا أنفسهم أئمة واستفادوا من نظرية الحلول إلى أن أصبح الحاكم منهم إلها كما يرى البعض.

ولقد اصطدمت فكرة تالية الحاكم منذ ظهورها في الشام بمذهب كان هناك منذ عهد قريب، هو مذهب النصيرية<sup>(٢)</sup> في شمال الشام. كما اصطدموا بفرق على إلهي الذين يقولون أن عليا أزل في طبيعته الالهية رغم أنه الإمام ظاهريا. وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملا الأرض عدلا كما ملكت جورا.

وهكذا كانت تزداد الشقة بين النصيرية وبين أهل السنة.

(١) انظر ابن خلدون، المقدمة (في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهب والاماع لما يمرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها) ص ٢٢ - ٢٥.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤، والنصيرية من غلاة الشيعة ومن أقوالهم «أن ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لا ينكره عاقل أما في جانب الخير كظهور جبريل عليه السلام يبعث الأشخاص والتصور وإنما في جانب الشر كظهور الشيطان بصورة الإنسان حتى يعمل الشر بصورته. فلذلك تقول أن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص ولما لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من علي عليه السلام وبسبب أولاده المخصوصون هم خير البرية فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم ومن هنا أطلقنا اسم الالهية عليهم».

أما عن تطور الإسماعيلية فبعد غياب الحاكم، ظل مذهب الإسماعيلية المذهب الرسمي في مصر إلى أن انتهت دولة الفواطم على يد صلاح الدين الذي أعاد السنة. ولكن على عهد الخليفة المستنصر الفاطمي وصل إلى مصر اسماعيلي فارسي هو الحسن بن الصباح، وقد حدث حدث يشبه اعلان عدم صلاحية اسماعيل إمام الإسماعيلية اذ عين الخليفة المستنصر كوروث له ابنة الأصغر (المتعلي) على حساب الابن الأكبر وهو نزار. واتخذ الحسن الصباح لأسباب سياسية جانب الابن الأكبر نزار فطرد من مصر. واستمر الحسن الصباح في دعائه لنزار في الشام - (منطقة حلب) ثم في فارس حيث تمكن بمساعدة أتباعه من الاستيلاء على قلعة الموت وجعلها مقرا لقيادته (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م)، واستولى على قلاع أخرى واخضع أتباعه خضوعا أعمى، وأضاف إلى تأثيره الشخصي على أتباعه اعطائهم مخدر الحشيش وإليه نسب الحشاشون. وكان الحشيش يؤثر فيهم تأثيرا مدهشا يجعلهم يتصورون انهم في الجنة.

واستغل الحسن بن الصباح ذلك في دفعهم إلى اغتيال الامراء وكبار الشخصيات الذين يناوئونه. واستغل الحسن فرصة الاضطرابات التي أثارها مجيء الصليبيين وأنشأ رغم ارادة سلاطين السلاجقة امارة مستقلة استمرت بفضل الارهاب تحت سيطرة ثمانية من زعماء الحشاشين. ورغم أن الحسن الصباح أعلن نيابته عن الإمام الفاطمي في مصر فانه كان السيد المطلق لأتباعه وذلك إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م.

ولكن الرابع من خلفائه من زعماء الموت ذهب إلى أبعد من ذلك فأحدث تجديدًا مفاجئًا فأعلن نفسه حفيدًا لنزار، وهو ابن الخليفة المستنصر. وكان معنى ذلك الخروج على طاعة الخليفة الفاطمي، اذ انه صار هو نفسه

إمام الإسماعيلية. ولم يقتصر سلطان شيخ الموت على قلاع فارس فقط، بل شمل قلاع الشام أيضا التي استولى عليها دعائه مثل: سلمية وبناتياس منتهزين الاضطرابات السياسية ومعتمدين على عون النصارى. وأصبح شيخ الجبل في الشام نائبا لشيخ الموت الأكبر.

وبعد نصف قرن قام أحد هؤلاء النواب في الشام بخلع طاعة شيخ الموت. واستخدم نفس سياسة الاغتيال الخفى وأرغم الصليبيين وصلاح الدين على مداراته.

ولقد قضت غزوة المغول بقيادة هولاكو (سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) على قوة الإسماعيلية في فارس. أما عن إسماعيلية الشام الذين أخضعهم سلاطين الماليك بعد ذلك فانهم عاشوا عيشة خاملة. وتوجد الآن منهم جماعات في فارس وآسية الوسطى وأفغانستان وعمان وجزبار. على أن الإسماعيلية يحتفظون بقوتهم في الهند اقتصاديا أن لم يكن دينيا، ورئيسهم من سلالة آخر شيخ الموت<sup>(١)</sup>.

### أشهر متكلمي الشيعة

هشام بن الحكم:

يظهر انه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وهو مولى لبنى شيبان، وكان من تلاميذ الإمام جعفر الصادق، «وجلة أصحابه». نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد، ونال المحظوة عند البرامكة، وكان قوى الحججة، ناظر المعتزلة وناظروه<sup>(٢)</sup>.

(١) نظره ديموبين، النظم الإسلامية، ص ٤٨

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٧.

قال عنه ابن النديم، في «الفهرست» انه هو الذي فتن الكلام في الإمام وهذب المذهب. وله كتاب الإمامة، كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول، كتاب الوصية والرد على من أنكرها، كتاب الرد على الزنادقة، كتاب الرد على أصحاب الاثني عشر، كتاب التوحيد، كتاب في الجبر والقدر، كتاب المعتزلة<sup>(١)</sup>.

أبو جعفر محمد بن النعمان (شيطان الطاق):

وهو من أصحاب جعفر الصادق، معروف بشيطان الطاق، والشيعه مؤمن الطاق (نسبة إلى طاق الحامل بالكوفة حيث نزل) وله مناظرات مع زيد بن زين العابدين في إمامة جعفر الصادق، وله مناظرات مع أبي حنيفة في الغيبة والرجعة وزواج المتعة وشرب النبيذ، وله كتاب الإمامة، وكتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول<sup>(٢)</sup>.

علي بن اسماعيل بن ميثم التمار:

يعد أول من تكلم في الإمامة حسب قول ابن النديم، وله كتاب الإمامة وكتاب الاستحقاق<sup>(٣)</sup>.

أبو سهل النوبختي:

وهو إسماعيل بن علي بن نوبخت، وكان من كبار الشيعة وهو صاحب نظرية في الغيبة اذ كان يقول: أنا أقول أن الإمام محمد بن الحسن (العسكري) ولكنه مات في الغيبة، وكان تلاه في الغيبة ابنه وكذلك فيما

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٧، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨، ٢٦٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٣

بعد من ولده إلى أن يفد الله حكمه في اظهاره. بمعنى أن الرجعة لن تكون  
لمحمد بن الحسن (الإمام الثاني عشر) بل لإمام: من نسله.

ومن كتب النوبختي: كتاب الاستيفاء في الإمامة، وكتاب الرد على  
الغلاة، كتاب نقض رسالة الشافعي، كتاب حدوث العالم، كتاب الرد على  
أصحاب الصفات، كتاب إبطال القياس<sup>(١)</sup>.

الحسن بن موسى النوبختي:

وهو ابن أخت أبي سهل، عرف بأنه متكلم فيلسوف «كانت المعتزلة  
تدعيه والشيعة تدعيه»، ويرجع ابن النديم أنه إلى حيز الشيعة أقرب، لأن آل  
نوبخت معروفون بولاية علي وولده. وللحسن «الرد على أصحاب التناسخ»،  
كتاب التوحيد وحدث العلل، كتاب اختصار الكون والفساد الارسطاليسي،  
كتاب الإمامة ولم يتمه<sup>(٢)</sup>.

هذا عن متكلمي الإمامية.

أما عن متكلمي الزيدية وهم الذين قالوا بإمامة زيد بن علي زين العابدين  
ثم قالوا بعده بالإمامة في ولد فاطمة كائنا من كان بعد أن يكون عنده شروط  
الإمامة. ويذكر ابن النديم أن أكثر المحدثين على هذا المذهب مثل سفيان بن  
عيينة وسفيان الثوري وصالح بن حنبل وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

أبو الجارود:

زياد بن المنذر العبدي من أشهرهم.

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

الحسن بن صالح بن حبي (مات مختفيا سنة ١٦٨ هـ) وكان من كبار  
الزيدية وله: كتاب التوحيد، وكتاب أمة ولد محمد<sup>(١)</sup>.

متكلمى الإسماعيلية:

عبدان:

يعد عبدان كما يقول ابن النديم أكثر الإسماعيلية كتباً وتصنيفاً حتى أن  
كل من عمل كتاباً نحلّه آياه فأصبح له فهرست منه: كتاب الرحاء  
والدولاب، وكتاب الحدود والاسناد وكتاب اللامع<sup>(٢)</sup>.

النفسي:

الذي كان من دعاة خراسان، وله كتاب عنوان الدين، كتاب أصول  
الشرع وكتاب الدعوة المنجية.

ولقد صنف بنو حماد المواصلة - أصحاب الدعوة بالجزيرة - كتباً  
وأضافوها إلى عبدان مثل كتاب الحق المنير، وكتاب الحق المبين<sup>(٣)</sup>.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٢.



## القسم الثاني جوانب حضارية من السودان المغرب<sup>(١)</sup>

---

(١) هذا القسم يتضمن الباب الأول والثاني من رسائلي للماجستير الموسومة باسم «انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري».



## المقدمة

### في هدف البحث ومصادره

– هدف البحث.

– التعريف بالمصادر.



﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾

(قرآن كرم. سورة آل عمران، آية ٨٥)

## المقدمة

### فى هدف البحث ومصادره

يتناول البحث الذى يقوم فى هذه الرسالة الإسلام فى السودان الغربى الذى كان يشمل غانة ومالى وكوكوا والذى يعادل حالياً جمهورية مالى من القرن الخامس الهجرى إلى القرن التاسع الهجرى.

والغرض من هذه الدراسة هو تتبع انتشار الإسلام فى بلاد السودان.

وأول الظواهر التى تسترعى الانتباه أنه على عكس انتشار الإسلام فى معظم أنحاء المشرق والمغرب وراء الجيوش الإسلامية، فإن الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل التجار التى كانت تتردد ما بين المغرب والسودان.

وإلى جانب التجارة دخل الإسلام من طريق التبشير، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الأباضية الذين عملوا على نشر الإسلام والعمل على توطيد أركانه فى هذه البلاد النائية التى كانت تعتبر آخر المعمور من الأرض.

وكانت المدن التجارية مثل غانة ومالى وجنى وكوكوا وتنبكت، أهم المراكز الإسلامية لأن موقع هذه المدن الجغرافية هياً لها فرصة اتصال أكبر بالعالم الخارجى.

وتوغل الإسلام فى قلب بلاد السودان مع مطلع القرن الخامس الهجرى وبفضل قبائل صنهاجة أصحاب اللثام (المرايطين). فبعد أن تم الاتحاد السياسى بينهم بدأ جهادهم الفعلى، وكان هدفهم الأول منه هو غزو بلاد السودان وادخال امه الوثنية فى الإسلام. وقام عبد الله بن ياسين وتلامذته بدعاية دينية حية بين السود القاطنين حينذاك على ضفة السنغال، وكذلك

الشموب النيجيرية. ومع ذلك كما يقول دلافوس Delafosse فينبني الا نغالى  
فى أهمية ادخال السود إلى الإسلام عن طريق المرابطين ولا أن تقول كما  
فعلوا فى بعض الأحيان أن هؤلاء قد ادخلوا كل السودان فى الإسلام.

والجدير بالملاحظة أنه اذا كانت بلاد السودان الغربية قد عرفت الإسلام  
منذ وقت مبكر، فإن السودان الشرقى والنوبة - رغم أنهما وثيقتا الصلة بمصر  
من الناحية الجغرافية - على عكس ذلك لم يظهر فيها الإسلام إلا فى وقت  
متأخر فى أوائل القرن الثامن الهجرى - (انظر، ابن خلدون، العبر، ج ٥،  
ص ٤٢٩ عن «أخبار النوبة وإسلامهم»، القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥،  
ص ٢٧٧). والفضل فى ذلك يرجع إلى بلاد المغرب، ونتيجته أن التأثير  
المغربى واضح فى بلاد السودان الغربية فكانت «كتابتهم بالخط المغربى على  
طريقة المغاربة» كما يقول ابن فضل الله العمري فى مسالك الابصار (وكلامه  
عن مالي)، ولياسهم عمائم بحك مثل الغرب، ولبسهم شبيه بلبس المغاربة.

ورغم أن الإسلام سنى فى المغرب ورغم أنه دخل إلى السودان عن طريق  
المغرب فإن الإسلام فى السودان كان له عاداته وتقاليده الخاصة به.

وما يميز السودان الغربى ظاهرة الاستقلال، فالبلاد لم تخضع للسيطرة  
الاجنبية - باستثناء العصور الحديثة - ماعدا فترة قليلة لا تتجاوز العشر سنوات  
(من سنة ١٠٧٦ - ١٠٨٧م)، كانت فيها غانة تابعة للمرابطين، وفترة  
الحكم المراكشى فى جاو الذى استمر قرن من الزمان (١٥٩١ - ١٦٨٠).

## المصادر

المصادر التي يرجع إليها لدراسة تاريخ الإسلام في السودان الغربي، في فترة القرون الأربعة التي يشملها البحث ( من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجري)، تتمثل في : كتب التاريخ العام، وكتب تاريخ المغرب (لبيان الصلة بين السودان والمغرب) وكتب التاريخ الخاصة بالسودان.

ويعتبر كتاب تاريخ اليعقوبي من أقدم كتب التاريخ العام المشرقية. واليعقوبي هو أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي، توفي سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م<sup>(٢)</sup>. وكان جده واضح مولى للخليفة العباسي<sup>(١)</sup> المنصور، ولي عمل أرمينية، وكان عاملاً أيضاً على مصر<sup>(٣)</sup>. وكان اليعقوبي مؤرخاً وجغرافياً ورحالة، اشتهر بميوله الشيعة<sup>(٤)</sup>، وطاف العالم الإسلامي<sup>(٥)</sup>، وعاش طويلاً بأرمينية وخراسان وزار الهند وفلسطين وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب. وألف كتاباً في التاريخ (يعرف بتاريخ اليعقوبي نشره Houtsma في ليدن ١٨٨٣) في جزئين أولهما يعالج التاريخ العام القديم، ويبدأ مثل مثل بقية كتب التاريخ العام بالكلام عن بدأ الخليقة وينتهي بظهور الإسلام.

(1) Blachère, Extraits des principaux geographes du moyen age, paris, 1932, p, 116.

(2) Brockelman supl, Vol I, p, 405.

(٣) الكندي، كتاب الولاية والقضاء، نشر وفن جست، بيروت، ١٩٠٨، ص ١٢٦.

Blachère, Extraits des principaux geographes du moyen age, p, 116.

(٤) نفس المرجع، ص ١١٦.

(٥) نفس المرجع، ص ١١٦.

(٦) كراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مطبوعات جامعة الدولة العربية، ج١، ص ١٥٨.

والجزء الثاني في تاريخ الإسلام يبدأ بالكلام عن مولد الرسول (ﷺ) ويتوقف عند أحداث سنة ٢٥٩ هـ في خلافة أحمد المعتمد على الله وهو مرتب حسب الخلفاء لاحسب السنين.

ويتضمن الجزء الأول فصلا سريعا عن ممالك الحبشة والسودان، يتكلم فيه عن السودان المشرق والمغرب، ويتحدث عن كانم، ومملكة ملل، ثم عن مملكة الكوكو، ثم يحدثنا عن مملكة غانة<sup>(١)</sup>.

وبعد اليعقوبي يأتي المسعودي، وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه<sup>(٢)</sup> ولذا عرف بالمسعودي، وهو من أسرة عربية عريقة عريقة في بغداد<sup>(٣)</sup>. والحقيقة أن المسعودي من الكتاب القلائل الذين تجولوا في البلاد المختلفة، تجول بفضول لمدة حوالي الأربعين عاما زار خلالها فارس والهند والصين، وجزيرة، وبلاد الشام وكذلك مصر، حيث توفي في القسطنطينية سنة (٤٣٦ هـ / ٩٥٦ م)<sup>(٤)</sup>.

ويحتوي الكتاب على معلومات كثيرة وليدة التجربة ومشاهدة العيان.

والكتاب يبدأ بذكر المبدأ وشأن الخليقة، وينتهي بخلافة المطيع سنة

٣٣٦ (٥).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، ج١، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) ابن شاعر الكندي، فوات الوفيات، طبعة التجارية، ج٢، ص ٩٤، ابن النديم، الفهرست طبع مصر، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(3) Sauvaget, Historiens arabes, Paris, 1946, p. 39.

(٤) ابن شاعر الكندي، Sauvaget, Historiens arabes, P. 39.

فوات الوفيات، ج٢، ص ٩٤.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة التجارية ١٩٥٨، في أربع أجزاء.



ويتضمن الجزء الثاني من «مروج الذهب» فصلا عن «ذكر السودان،  
وانسابهم واختلاف اجناسهم وأنواعهم وتبانيهم في ديارهم، واختيار ملوكهم»،  
ويذكر لنا من بين السودان المغرب: الكاتم، وكوكو، وغانة<sup>(١)</sup> وهو كمشرقي  
يهتم بالسودان الشرقي على وجه الخصوص، ويهتم بالمعجائب والغرائب فهو  
يحدثنا عن الزرافة، وصيد الفيلة، والبقر والجواميس، وعن معدن الذهب.

ونتقل إلى كتاب البكري «ورغم أن كتاب البكري من كتب المكتبة  
الجغرافية العربية الا أننا نذكره بين كتب التاريخ نظرا للمعلومات التاريخية  
الهامة التي يحويها بين دفتيه»<sup>(٢)</sup>.

والبكري هو أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد، ولد في قرطبة سنة  
٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م وتوفي فيها سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م<sup>(٣)</sup> ويرتفع نسبة  
إلى بكر بن وائل<sup>(٤)</sup>، وهو ينحدر من بيت شريف، فقد كان أباه أصحاب  
وليه وشلطيش، وظلوا في امارتهم حتى غصبهم المعتد ابن عبادولة<sup>(٥)</sup>. فلجأ  
عبد العزيز وصحبه ابنه أبو عبيد إلى قرطبة سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وانتقل  
ابنه ابو عبيد إلى بلاط المريه لدى السلطان محمد بن تمن الذي قابله بترحاب

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٤.

(٢) الاستاذ الدكتور سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، طبع دار المعارف ١٩٦٥، ص ١٤.

(3) Brock, G.A.L., Vol 1, p, 476, Suppl, Vol 1, p, 875 - 876.

(٤) انجيل بالنتيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس طبعة القاهرة ١٩٥٥، ص

٣٠٩، الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، الجغرافية، والجغرافيون في الاندلس من البداية إلى

الحجاري، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة المجلدان السابع والثامن، مطبعة

١٩٥٩، ١٩٦٠، ص ٣١٠.

(٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الاصب الجغرافي، ص ٢٧٥.

(٥) انجيل بالنتيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ٣٠٩.

وبعثه الأخير في مهمة دبلوماسية لدى المعتمد بن عباد في اشبيلية حيث استقر فيها. ولكنه رجع مرة ثانية إلى قرطبة بعد هزيمة المعتمد على ايدى المرابطين<sup>(١)</sup>.

وأهم كتبه كتاب المسالك والممالك، وقد وصلنا منه الجزء الخاص بصفة المغرب (كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - نشر دسلان، الطبعة الثانية، الجزائر، ١٩١١).

ويعتبر الفصل الخاص بـ « ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها » - من كتاب المغرب - من أهم ما كتب عن السودان الغربي. وفي هذا الجزء الخاص ببلاد السودان نجد معلومات متنوعة متباينة، معلومات اقتصادية واجتماعية، ومعلومات عن المعتقدات والديانات المختلفة، وعن العادات والتقاليد وكذلك يحدثنا عن العجائب والغرائب. فهو مثلا يكلمنا عن مملكة غانة وعن التنظيم السياسي فيها، عن نظام توارث الملك، وعن جلوس الملك للناس والمظالم، عن العادات المتبعة في تحية الملك، ويكلمنا عن خطط المدينة، وعن الذهب في هذه البلاد، وعن المكوس التي يتقاضاها ملك غانة على التجارة، وعن طريقة التبایع، ويحدثنا عن مدينة تکرور وسلى، وعن ملل. وعن مدينة كوكوا، وعن دخول الإسلام إلى هذه المدن في منتصف القرن الخامس الهجرى وهي الفترة التي كان البكرى معاصرا للأحداث فيها وبمشابة شاهد عيان فهو يكتب في سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨م.

وهو يحدثنا أيضا عن المدن التي تعتبر أبواب السودان مثل زويلة، وغدامس، وسجلماسة، وأودغست ويرسم لنا صورة واضحة عن الصحراء

(١) كراتشكوفسكى، ص ٢٧٥.

الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان. وعن قبائل بين لتونة وبنى جدالة من صنهاجة ودورها في جهاد السودان.

ومعلومات البكري في هذا الجزء تنقسم إلى قسمين: معلومات نقلها عن المؤرخين السابقين، ومعلومات معاصرة. ويبدو أن البكري استقى معلوماته عن بلاد السودان من التجار، والمسافرين الذين جولوا في هذه الأماكن، إلى جانب اطلاعه على وثائق وسجلات ديوان قرطبة.

ثم تنتقل إلى العمري، وهو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي<sup>(١)</sup> وهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة، تصعد فيما يزعم إلى الخليفة عمر، حيث أضاف أفرادها إلى إسمهم لقب العمري<sup>(٢)</sup>.

ولد شهاب الدين بدمشق في سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٣٢ م) وتلقى تعليمه هناك<sup>(٣)</sup>. وقرأ العربية على كمال الدين بن قاضي شعبة... وقرأ الأحكام على ابن تيمية<sup>(٤)</sup>. وقد ربطته تقاليد أسرته بحمل الدواوين<sup>(٥)</sup> وكما يذكر المقرئى فإن أسرة العمري قد تولت منصب (كاتب السر) بمصر ودمشق مدة قرن من الزمان تقريباً خلال العصر المملوكي<sup>(٦)</sup>. وكان أبوه يتولى منصب (١) للمقرئى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة النيل سنة ١٣٢٥ هـ، ج٣، ص ٩١، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الطبعة الأولى حيدرآباد الدكن، ١٣٤٨ هـ، ج١، ص ٣٣١ (ترجمة رقم ٨٧٨).

(2) G. Demombynes, Masalik El Absar fi Mamalik El Amsar, L'Afrique moins L'Etypte, Paris, 1927, Preface, p. II.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٣١. Blachère, extraits, , 301.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٣١.

(٥) كراشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٤١٠.

(٦) المقرئى، الخطط، ج٣، ص ٩٠ - ٩١.

كتابة سر دمشق من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي سر  
٧٣٠هـ / تقلد كتابة السر بالديار المصرية<sup>(١)</sup>، وقد شغل شهاب الدين فـ  
منصب القاضي بمصر<sup>(٢)</sup>، ثم خلف أباه محيي الدين في كتابه السر للسلطان  
الناصر محمد<sup>(٣)</sup>.

وظل شهاب الدين في وظيفة كاتب السر<sup>(٤)</sup>، إلى أن غضب عليه  
السلطان - وعزل بأخيه القاضي علاء الدين - وسجن لفترة تقرب من الـ  
في قاعة الصاحب من قلعة الجبل، وأفرج عنه سنة ٧٤٠هـ، وأقام بداره،  
استدعاه السلطان وولاه كتابة السر بدمشق سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م<sup>(٥)</sup>، و  
يـ مباشر مهام الوظيفة حتى مات بدمشق في ٩ ذو الحجة سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩  
فبراير ١٣٤٩م بالطاعون<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئ، المخطوط، ج٢، ص ٩١.

(٢) المقرئ، المخطوط، ج٢، ص ٩١.

(٣) المقرئ، المخطوط، ج٢، ص ٩١.

(٤) عن كتاب السر، أو صاحب ديوان الانشاء، انظر القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص ١ -

١٠٤.

(٥) المقرئ، المخطوط، ج٢، ص ٩٢.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٢٢، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي المسمى تسمية الختم:

في أخبار البشر، ج٢، ص ٢٥٤، (احداث سنة ٧٤٩) يقول: وفيها في ذي الحجة بلفنا و

القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري بدمشق بالطاعون، منزله في الانشاء معر

وفضيلته في النظم والنثر موصوفة في كتب السر للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقما

بعد وفاة أبيه يحيى الدين ثم عزل بأخيه القاضي علاء الدين وكتب السر بدمشق ثم عزل وقت

للتكليف والتصنيف حتى مات عن نعمة والفرقة. دخل رحمة الله قبل وفاته بمدة مرة أنعمان

بالمدرسة التي أنشأها ففرج لى بها وأتشد فيها يمين أرسلهما إلى بخطه وهما:

وفي بلد السخرة طر علم      بنى الوردي فيها كل مجد

هي الوردية الحلواء حسنا      وماء البئر فيها مساء ورد

تأجته بقولي:

وللعمرى عدد من المؤلفات لعل من أهمها الموسوعة الكبرى فى الجغرافية والتاريخ الموسومة بمسالك الابصار فى ممالك الامصار، وإلى جانب الموسوعة الكبرى، للمؤلف مصنف آخر شهير، عنوانه «التعريف بالمصطلح الشريف» والعنوان يحمل فى ثناياه الهدف الرئيسى من تأليف الكتاب، فالكتاب يؤرخ لفن كتابة الانشاء ولديوان الانشاء ونظمه وقوانينه<sup>(١)</sup> ولكنه يفضل المنهج الذى اتبعه المؤلف أصبح مصدرا هاما بالنسبة للتاريخ والجغرافية التاريخية<sup>(٢)</sup>.

وينقسم الكتاب إلى سبعة أقسام الأول فى رتب المكاتب. والثانى فى عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير. والثالث فى نسخ الاعيان والرابع فى الامانات والدفن والهدن والمواصفات والمناسخات. والخامس فى نطاق كل مملكة وماهو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق. والسادس فى مركز البرهد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسفرة به فى البحر والمناور والمحرقات. والسابع فى أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه<sup>(٣)</sup>.

وفى القسم الأول «رتب المكاتب» يحدثنا عن ملك التكرور صاحب مالى وعن بلاده، ورسم المكاتبه إليه، وكذلك عن رسم المكاتبه إلى صاحب برفو، وصاحب الكاتم<sup>(٤)</sup>، والكتاب نشر فى القاهرة سنة ١٢١٢هـ / ١٨٩٤م.

امولانا شهاب الدين التى حمدت الله اذ بك تم مجدى

جميع الناس عندكم نزول وانت جبرئى ونزلت عندى

Brock, G.A.L, Vol II, p, 141, Vol II, p, 175, G. Demom Bynes, L'Afrique moins L'Egypte, introduction, p, II.

(١) أ.د. جمال الدين الشيبلى، مجموعة الوثائق الفاطمية، طبعة القاهرة ١٩٥٨، طبعة أولى، ص ١٠.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٤١١.

(٣) العمري، التعريف، ص ٢٧-٢٩.

(٤) العمري، التعريف، ص ٢٧-٢٩.

أما موسوعة العمري الكبرى. مسالك الابصار في ممالك الامصار، فيبلغ عدد اجزائها السبعة والعشرين جزءاً<sup>(١)</sup>، ولكن الموسوعة فيما يبدو كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءاً كما أثبت ذلك أحمد زكي باشا<sup>(٢)</sup>.

ومسالك الابصار كتب بدون شك بين سنوات (١٣٤٢ - ١٣٤٩)<sup>(٣)</sup>.

والجزء الأول من مسالك الابصار نشر في القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م وقد قام بتحقيقه، أحمد زكي.

والجزء الخاص بأفريقية (عدا مصر) ترجمة مع هوامش، ج. ديمومبين تحت عنوان L'Afrique moins L'Egypte, paris, 1927. ويتكلم العمري في الباب التاسع والعاشر من الكتاب عن ممالك السودان الإسلامية في الباب التاسع يتحدث عن ممالك مسلمي السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر. ويشتمل على فصلين.

الفصل الأول عن النوبة، والثاني عن مملكة الكانم.

أما الباب العاشر فيتكلم فيه عن مملكة مالي<sup>(٤)</sup>.

وهذا الجزء مهم جداً، فهو يمثل أقدم المعلومات التي وصلتنا عن مملكة مالي.

ويبدو من وصف العمري أن غانة بدأت تتواري في الظلال من الناحية السياسية ونزلت عن مسرح الحوادث ليعليه أقليم آخر هو مالي.

(١) كراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٤١١.

(٢) كراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٤١١.

(٣) Demom Bynes, Masalik, introd, p, II.

(٤) العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، نشر وتحقيق أحمد زكي باشا الجزء الأول، ص ١٢.

ومعلومات العمري في هذا الجزء تمتاز بالأصالة فهو يستقيها من رجال  
ثقافة ممن زاروا هذه البلاد واقاموا بها أمثال: الشيخ الثبت أبو سعيد عثمان  
الدكالي وهو ممن اقام بمالي ٣٥ سنة مضطربا في بلادها مجتمعا بأهلها ،  
والأمير أبو الحسن علي بن أمير حاجب (والي القاهرة والقرافة) وقد صحب  
السلطان منسى موسى في زيارته للقاهرة، وهو يعتبر شاهد عيان ومعاصر،  
والأمير أبو العباس أحمد بن علي الحاكي المهندار..

هذا عن الروايات الشفوية. اما الروايات المدونة فيذكر العمري كتاب  
المغرب لابن سعيد<sup>(١)</sup>.

ويعتبر الفصل الخاص بالخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب  
من وراء هزلاء الملتهمين ووصف احوالهم والامام بما اتصل بنا من دولتهم  
في كتاب العبر لابن خلدون، من أهم ما كتب عن السودان الغربي.

وهو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين  
التونسي الحضرمي الاشبيلي المالكي<sup>(٢)</sup> ينتسب إلى بيت اصله من اشبيلية،  
انتقل عند الجلاء وغلب ملك الجلائقة ابن ادقونش عليها، إلى تونس، في  
اواسط المائة السابعة كما يقول ابن خلدون<sup>(٣)</sup>.

---

(١) وهو أبو الحسن علي القرناطي، اشتهر بابن سعيد، ولد بقلمه يعصب فيما بين سنتي (٦٠٥ /  
٦١٠ هـ) صحب ابيه إلى الحج سنة ٦٢٨، وذهب ابن سعيد إلى القاهرة واقام بها حتى عام  
٦٤٨ هـ، مات بدمشق سنة ٦٨٥ / ١٢٧٤ م. والاسم الكامل لكتابه المعروف بالمغرب هو كتاب  
«فلك الارب، المحيط على لسان العرب» وينقسم إلى كتابين كبيرين: «المغرب في حلى المغرب،  
والمشرق في حلى المشرق. انجل بالثبا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ٢٤٤، كراشكوفسكي، تاريخ  
الادب الجغرافي العربي، ص ٣٠٦ ومايلها.

(2) Brock, G.A.L, Vol II, p, 242, Suppl. Vol II, p, 342.

(٣) ابن خلدون، المر، ج٧، ص ٤٨٠.

وأصله من عرب حضر موت<sup>(١)</sup> ولد بتونس في عرة رمضان سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م، وقد درس على عدد من العلماء التونسيين والمغاربة، عمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس، وكذلك بنى عبد الواد في تلمسان، وبنى مرين في فاس، وبنى الأحمر النصريين في غرناطة<sup>(٢)</sup>، ثم رحل إلى المشرق ووصل إلى الاسكندرية ومنها إلى مصر سنة ٧٨٤ / ١٣٨٣م (في سلطنة الظاهر)<sup>(٣)</sup>. وجلس للتدريس بالجامع الأزهر<sup>(٤)</sup>، وولى قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ، ثم عزل عن القضاء، وتوجه لقضاء فريضة الحج سنة ٧٩٠هـ<sup>(٥)</sup>، وبعد أن قضى فرضه رجع إلى القاهرة، وقضى بقية إيامه عاكفا على قراءة العلم وتدريسه<sup>(٦)</sup>. ومات في القاهرة، في ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨هـ / ١٧ مارس ١٤٠٦م<sup>(٧)</sup>.

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر، وذلك للسببين المعروفين اللذين اهتم بهما ابن خلدون وأولهما: ملكة المؤرخ العبقري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل، الذي يتلخص في أن الحدث التاريخي أكبر من أن يكون حدثا سياسيا فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية. وكذلك النفسية أيضا.

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٣٧٩.

(٢) الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ١٧م.  
Sauvaget, historiens arabes, p. 137.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٤٥١.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٤٥٢.

(٥) ابن خلدون، نفس المصدر، ص ٤٥٥.

(٦) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٤٦٢.

(٧) أحمد بابا التتبيكتي، نيل، Brock, G.A.L, Vol II, p. 299, Suppl, Vol II, 344.

الابتهاج بتطريز الدياج، عانث على الدياج المذهب لابن فرحون، طبع مصر سنة ١٣٢٩، ص ١٦٩.



وهذا مادعا ابن خلدون إلى الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتى جعل مفهوم التاريخ انبث ما يكون بمفهوم الحضارة، أي جعله تاريخا للام والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء أو طبقات الاعيان وهذا ماسماه البعض «فلسفة التاريخ». وهوفي الحقيقة ليس الا التاريخ كما ينبغي أن يكون<sup>(١)</sup>.

وفي الفصل الخاص بالخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب.... يحدثنا عن غانة، ثم يبين لنا كيف ضعف ملكهم، وتغلب الملتعون وقرضهم الجزية عليهم، وحمل كثير منهم على الإسلام، وتغلب أهل صوصو عليهم. ثم يحدثنا عن أهل مالي وظهورهم على غيرهم من السودان. وتتوقف رواية ابن خلدون عند أواخر القرن الثامن الهجري سنة ٧٩٢ هـ.

ويستقى ابن خلدون معلوماته تلك من أهل البلاد انفسهم أو ممن زاروا هذه الاقاليم واقاموا بها وخبروها: مثل الشيخ عثمان فقيه أهل غانة، وقد لقيه وكان قد قدم مصر سنة ٧٧٩ حاجا بأهله وولده<sup>(٢)</sup>. والقاضي الثقة ابو عبد الله محمد بن وانسول<sup>(٣)</sup>.

وعن العمري وابن خلدون نقل القلقشندي - في موسوعته الكبرى المعروفة بصبح الاعشى في صناعة الانشاء - الجزء الخاص بحمالك مسلمي السودان.

وكتاب القلقشندي عبارة عن دائرة معارف في التاريخ والجغرافية والادب والقرن والدين والاجتماع. وكما يفهم من العنوان فان الهدف الاساسي من تأليف الموسوعة هو ان تكون مرجعا من أجل كتاب

(١) الاستاذ الدكتور سعد زطول، تاريخ المغرب العربي، ص ١٦٦.

(٢) ابن خلدون، المرجع، ص ١٩٩.

(٣) ابن خلدون، المرجع، ص ٢٠٢.

الدواوين أى عمال ديوان الانشاء»<sup>(١)</sup>.

والقلقشندى هو شهاب الدين ابو العباس أحمد بن على<sup>(٢)</sup>، ولد فى عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م ببلدة تدعى «قلقشندة» وهى من أعمال مديرية القليوبية بمصر<sup>(٣)</sup>، واليهما نسب. وهو من أصل عربى من قبيلة بنى بدر من فزارة من قيس عيلان<sup>(٤)</sup>.

وفى سنة (٧٩١هـ / ١٣٨٩م) التحق بالعمل فى ديوان الانشاء<sup>(٥)</sup>، وقد هياؤه عمله فى كتابه الانشاء انخراج هذا المصنف الكبير.

وفى الفصل الخاص بممالك السودان الإسلامية يتقل القلقشندى معلوماته عن العمرى فى كتابيه «التعريف بالمصطلح الشريف» و «مسالك الابصار»، وكذلك ينقل عن ابى الغدا فى «تقسيم البلدان» وعن المؤرخ المغربى الكبير ابن خلدون، فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر - وكان القلقشندى معاصراً لابن خلدون الذى عاش بمصر فى تلك الفترة - وعن ابن سعيد.

وعمله فى ديوان الانشاء جعله فى موقف يسمح له بالاطلاع على الوثائق والكتب التى ترد إلى السلطان وهو يحفظ لنا نسخة من الكتاب الذى

(١) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى، ص ٤١٦.

(٢) ويطلق ابن حجر ابناء القمر، ج٣، ص ١٧٥، ترجمة رقم (٣).

- ذكر من مات فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة من الاعيان) على مؤلف القلقشندى اسم «صبيح الاعشى فى معرفة الانشاء»

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج٢، ص ٨، Suppl., Vol II, p, 134, Brock, G.A.L., Vol II, p, 164.

(٤) القلقشندى، نهاية الارب فى معرفة انساب العرب، تحقيق الايبارى، طبع القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) القلقشندى، صبيح الاعشى، ج ١، ص ٨.

ورد على الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٤هـ (أى فى الوقت الذى كان فيه القلقشندى يعمل فى ديوان الانشاء) من صاحب البرنو ابى عمر وعثمان بن ادريس.

وقد فرغ المؤلف من تأليف الكتاب فى ٢٨ شوال سنة ٨١٤ هـ / ١٤١٢م<sup>(١)</sup>.

وللكتاب مختصر اطلق عليه القلقشندى اسم... «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر». وقد طبع الجزء الأول منه فى مطبعة الواعظ بالقاهرة فى سنة ١٣٢٤هـ<sup>(٢)</sup>.

وتوفى القلقشندى فى ١٠ جمادى الاخرة سنة ٨٢١هـ / ١٦ يوليه ١٤١٨م<sup>(٣)</sup>.

نتقل الآن إلى الكلام عن الكتب الخاصة بتاريخ السودان.

فى مقدمة الكتب كتاب محمود كمت «تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر التكرور وعضائم الأمور وتفريق انساب العميد من الأحرار»<sup>(٤)</sup>. وهو القاضى محمود كمت بن الحاج المتوكل كمت، وقراءة هذا الاسم الاخير كما يقول دلافوس ظل مشكوكا فيها، وقد كان القاضى محمود كمت من أصل وعكرى أى سنكى (أوسر كله) وكان يقيم فى تنبكت، ولكنه ينتمى إلى عائلة تسكن فى كرمين (وهو الاسم الذى يطلق

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج١٤، ص ١٠٤.

(٢) مقدمة كتاب صبح الاعشى، ج١، ص ٢٣.

(٣) ابن حجر، انباء الغمر، ج٢، ص ١٧٥.

Brock, G.A.L., Vol II, p. 134, Suppl, Vol II, p. 164.

(٤) محمود كمت، تاريخ الفتاش، نشر هوداس ودلافوس، طبع باريس ١٩١٣، ص ١١.

على مقاطعة مجاورة لتنيكت وتقع على النيجر وكان مركز هذه المقاطعة هو  
تندرم على الضفة اليسرى للنيجر بقرب بحيرة فت<sup>(١)</sup>.

ولد في عام ٨٧١هـ / ١٤٦٨م، ولانعرف الكثير عن سيرة حياته سوى  
تلك المعلومات التي نستقيها من خلال الكتاب نفسه والتي يذكرها المؤلف  
عرضاً في سياق الكلام. ويبدو أنه سلك نفس الطريق الذي يسلكه الشباب في  
ذلك الوقت من دراسة القرآن والحديث والفقه واللغة.

وقد شغل محمود كمت وظيفة القاضي وهي من أجل الأعمال في  
سلطنة سنغي، وكان القضاة يمتعون بمركز ممتاز ومقربين لدى الاساكي من  
ذلك ما يذكره المؤلف عن اسكي الحاج محمد (١٤٩٣ - ١٥٢٩) وكان قد  
«جعل للقضاة اذا جاءوه يأمر لهم بيسط حصير الصلاة لهم»<sup>(٢)</sup>. وكذلك  
ليس هناك «من ينادى على عبده ويرسله بأمر ولا يقدر أن يأبى ويفعل له في  
الأمر مايفعل في امر اسكي الا القاضي»<sup>(٣)</sup>.

واستحق محمود كمت بسمته العلمية لقب الفع (ألفا) أي الفقيه  
وكان صديقاً شخصياً لاسكيا الحاج محمد، وقد صحبه في رحلته التي ذهب  
فيها إلى بيت الله الحرام، لاداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول ﷺ سنة  
٩٠٢هـ<sup>(٤)</sup>. كما كان مستشاراً مسموعاً لخلفائه. فهو اذن كان في مركز  
يسمح له بالمشاركة في الاحداث المهمة في بلده.

وبدأ القاضي محمود كمت في تأليف الكتاب سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩م،

(١) دلافوس، ترجمة تاريخ الفتاش، بالفرنسية، هـ ٢، ص ٦.

(٢) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ١١.

(٣) نفس المصدر، ص ١١.

(٤) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ١٦.

في سن الخمسين كما يقول هو.

والكتاب عبارة عن تاريخ لمملكة سنغى في عصر الأساكي، وهو يبدأ الكلام عن عصر اسكيا الحاج محمد ويتضمن معلومات عن الغزو المراكشي لبلاد السودان في عصر اسكى اسحاق (سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م)<sup>(١)</sup>، وكان محمود كعت شاهد عيان للفتح المغربي.

الكتاب يحوى بعض المعلومات الضئيلة - السابقة لعصر المؤلف خاصة بمملكة مالى وملكهم ملكى كك موسى، وايضا عن شىء على وعصره، وهي عبارة عن مجموعة من الروايات الشفوية جمعها المؤلف من أفواه شيوخه وأصدقائه.

ومن بين الكتب التى نقل عنها يذكر كتاب «در الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان» تأليف باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين<sup>(٢)</sup>. وكذلك كتاب «كفاية المحتاج فى معرفة ماليس فى الدياج» لاحمد بابا التيبكى.

أما الجزء الأكبر والأهم من الكتاب فيتناول الفترة التى عاصرها المؤلف

(١) نفس المصدر، ص ١٥٢.

(٢) تاريخ الفتاش، يشير إليه مرارا، صفحات ٢٤، ٥٢، ٩٢، ٩٣، ١٢٦، ١٤٦ وهذا المؤلف الذى يحى عنوانه تقريبا (در الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان) مجهول لدينا وسوف يكون من المهم بدون شك أن يشر على نسخة منه، ومحمد بن الأمين كاتبه، والد المؤلف ورد ذكره فى تاريخ السودان على اعتبار انه قلت باعجوبة من المفهمة التى راح ضحيتها فى ٢٠ أكتوبر ١٥٩٢، فقهاء تميكتو (تاريخ السودان - الترجمة الفرنسية ص ٢٥٨ - ٢٦١). وكان محمود كعت قد مات منذ حوالى شهر فى هذه الفترة. وربما لبعض مقتطفات نفس المؤلف التى يرد ذكرها بعد ذلك، يبدو انه قد كتب حوالى منتصف القرن السابع عشر على أقل تقدير.  
دلافوس، ترجمة تاريخ الفتاش، بالفرنسية، هامش ١، ص ٨٣.

وعاش أحداثها وشارك فيها وكان بمثابة شاهد عيان لما يجري خلالها، وهو عبارة عن مذكرات شخصية كتبها المؤلف بنفسه.

وتوفي العلامة الفقيه محمود كمت، في أول المحرم سنة ١٠٠٢ هـ / ٢١  
سبتمبر ١٥٩٣ م ودفن بتبكت<sup>(١)</sup>.

ورواية تاريخ الفتاش تقف في عام ١٥٩٩ م بعد ست سنوات من وفاة محمود كمت، بينما يشار لتواريخ تستمر حتى سنة ١٦٦٤ - ١٦٦٥ م. وفي الحقيقة كما يقول دلافوس فان محمود كمت لم يحرر شخصيا الا جزءا ضئيلا من تاريخ الفتاش كما ورد الينا وهي التي تناسب بدون شك الجزء الأغلب من الفصول الستة الأولى من ترجمتنا والتي تحتوي بعد المقدمة، نوعا من المدح لاسكيا الحاج محمد، وكبار الشخصيات المختلطة بتاريخه، ومذكرة عن دولة مالي، وكيمغ وجار، وشي على واسكيا الحاج محمد، ومع ذلك فان بعض المشاهد لم تكتب رأسا بواسطته حيث انها نقلت من الأوراق التي قد يكون تركها. ومحمود كمت، في الواقع لم يكن ليتم عمله ولكنه كتب وهو يهدف إلى استكمال مذكرات ووثائق مختلفة - وأولاده وكثيرا منهم قد شغلوا وظائف هامة تركوا أيضا أوراقا ومذكرات وأخيرا فان أبنا لاحدى بناته أخذ وثائق العائلة واستكملها ونسقتها واكمل الرواية التي بدأها جده وهكذا، فالى هذا التعاون من الجد والأخوال والحفيد يرجع تاريخ الفتاش. والمصنف الحقيقي للمؤلف هو (سبط) محمود كمت، بينما الموحى بالفكرة هو محمود كمت، ونحن نجهل شخصية وتاريخ ميلاد هذا المصنف وقال لنا فقط أن والده كان يسمى المختار قنيل وأن أمه كانت ابنة الفع محمود كمت، وكلمنا عن أخواله أولاد محمود كمت، وهؤلاء الأخوال هم القاضى

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١١، الترجمة الفرنسية، ص ٣٢٢.

اسماعيل كعت والقاضي محمد الأمين كعت، ويوسف كعت، والقصة نفسها تنتهي في عام ١٥٩٩، ولكن بالنسبة لبعض الشخصيات فإن آخر المؤلفين يذكر تواريخ تستمر حتى ١٦٦٥. وهكذا كما يقول دلافوس يمكننا القول أن تاريخ الفتاش الذي بدأه محمود كعت سنة ١٥١٩ قد اكمله سبطه ابن المختار حوالي ١٩٩٥ على أقل تقدير أي بعد عشر سنوات من انتهاء تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، وهكذا فإن أحد هذين المؤلفين سابق وفي نفس الوقت لاحق ولو لمدة قصيرة على الثاني<sup>(١)</sup>.

### السعدي، تاريخ السودان.

واسمه بالكامل عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ((السعدي) نسبة إلى قبيلة بني سعد<sup>(٢)</sup>. أو إلى الأمراء السعديين حكام مراكش<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن أصل الأسرة من البيضان فهو يذكر أن جد جده أم والده الفقيه عبد الله البلبالي. هو والله أعلم أول البيضان صلى بالناس في تلك المسجد (مسجد سنكري) في أواخر دولة التوارق وفي أوائل دولة سن علي<sup>(٤)</sup>.

(١) دلافوس، مقدمة تاريخ الفتاش بالفرنسية، ص ١٨ - ١٩.

(٢) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١٢، الترجمة الفرنسية، ص ١٢٥. وعن بني سعد، انظر، القلقشندي، نهاية الارب في معرفة انساب العرب، تحقيق الايباري، طبعة القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٨٤ - ٢٨٥، القلقشندي صبح الاعشى، ج ١، ص ٣٤٠ يقول: « من قبائل تيس هوازن ومن هوازن بنو سعد الذين كان رسول الله ﷺ رضيعا فيهم وهو بنو سعد بن بكر بن هوازن. قال في العبر: وقد افترق بنو سعد هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم من فبطرق الا أن منهم فرقة بافريقية من بلاد المغرب بنواحي باجة يمسكرون مع جند السلطان.

(3) Houdas, Histoire du Soudan, introduction, p, XIII.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، ص ٥٧، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٩٢ - ٩٣.

ويتنسب السعدى إلى أسرة نبيلة بتبكت<sup>(١)</sup>، ولد في سنة ١٠٠٤ هـ /  
٢٨ مايه ١٥٩٦ م<sup>(٢)</sup>.

وتقلد مؤلفنا عدد من الوظائف العامة فى الدولة، عمل فى وظيفة شاهد  
فى مدينة جنى<sup>(٣)</sup>، وإلى جانب ذلك كان نائبا للإمام فى الصلاة فى مسجد  
سنكرى ثم تولى إمامة المسجد بعد وفاة شيخه الإمام محمد بن محمد بن  
أحمد الخليل فى سنة ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧ م<sup>(٤)</sup>. ويذكر لنا السعدى أنه بعد  
ذلك بعشر سنوات فى سنة ١٠٤٦ هـ «عزل من الإمامة ظلما وعدوانا»<sup>(٥)</sup>،  
ورجع إلى تبكت واستقبل من أهلها استقبالا طيبا<sup>(٦)</sup>.

وأخيرا فى سنة ١٠٥٦ هـ، توجهت أعماله السابقة بشغله لوظيفة  
الكاتب<sup>(٧)</sup>. واحتل مركزا مباشرا فى أعمال بلده، ولعب دور الوسيط مرارا  
لدى أمراء السودان المختلفين<sup>(٨)</sup>. ويحتمل أن تكون فكرة كتابة هذا التاريخ  
الذى سمح فيه بالربط بين أحداث الماضى والحاضر قد اختتمت فى ذهنه  
خلال هذه الفترة<sup>(٩)</sup>.

وبالرغم من العنوان العام «تاريخ السودان» فإن هذا المؤلف لا يعالج فقط

(١) هوداس، مقدمة ترجمة تاريخ السودان للسعدى، ص ١٣.

(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١٣، الترجمة الفرنسية، ص ٢٢٥.

Brock, G.A.L., Vol II, P, 467, Suppl, Vol II, p, 716.

(٣) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٤٤.

(٥) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٥٨.

(٦) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٥٨.

(٧) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٧٧.

(٨) هوداس، مقدمة الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان للسعدى، ص ٩٣.

(٩) نفس المصدر والمصنفة.



التاريخ جزء من السودان<sup>(١)</sup>. وهو في الحقيقة لا يتكلم بطريقة مفصلة الا عن امبراطورية سنغى وخصوصا عن غزو واحتلال مراكش للمنطقة الواقعة على ضفاف المجرى الأوسط للنيجر والجزء الأعلى شمالا من المنحنى الذى يكون النهر الافريقى الكبير.

ولم يتكلم المؤلف عن امبراطورية مالي الا فى بضع كلمات قليلة. ونحن نشعر مع ذلك أن اهتمامه الأكبر هو تعظيم تيبكت (تبتكتو) المدينة التى ولد<sup>(٢)</sup> فيها. وأن يميز الدور الجيد الذى لعبته هذه المدينة فى عالم السود<sup>(٣)</sup>.

وفى الوقت الذى كان عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعدى يكتب تاريخه عن السودان، كانت تيبكت قد بدأت الدخول فى عصر اضمحلالها. والاجانب الذين فتحوا هذه المدينة التجارية لم يستطيعوا مطلقا ادارتها وأن يجعلوا منها منهلا للشراء لبلادهم<sup>(٤)</sup>. وبذرت مظالمهم واغتصاباتهم الخراب فى الشعوب السوداء ذات الطبيعة الهادئة. وفى الفترة التى انتهت فيها رواية المؤرخ كان قد حل موعد طرد الغزاة بصفة نهائية من هذه البلاد التى احتلوها سنوات طويلة<sup>(٥)</sup>.

وبما كتبه السعدى فان تاريخ السودان يتكون من جزئين لهما طابع مختلف.

أولهما وهو يكون أكثر من نصف النص، يمثل ملخصا للمعلومات التى

(1) Houdas, introduc, p, I.

(٢) نفس المصدر والصفحة، السعدى تاريخ السودان، ص ٢١ عند كلامه عن تيبكت التى هي سقط رأس وبغية نفسى.

(٣) هوداس، مقدمة ترجمة كتاب تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ١.

(٤) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ١، ص ٢.

(٥) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٢.

جمعها المؤلف من الروايات الشفوية والمكتوبة<sup>(١)</sup>. والثاني يمثل على عكس ذلك طابع المذكرات الشخصية والمعلومات التي تضمنها أتت جميعها من شهود عيان، وأغلبها من المؤلف نفسه الذي كان مختلطا مباشرة بالاحوال السياسية في بلده<sup>(٢)</sup>.

والجزء الأول بأكمله جاف بعض الشيء وموجز فهو قد كتب بناء على معلومات لم يبين مصدرها الا قليلا جدا، وأتت بدون شك، من الروايات الشعبية، وهي تحمل في طياتها أوجه النقص وعدم التأكد التي تلازم هذا النوع من المعلومات<sup>(٣)</sup>.

وهل كانت توجد وثائق مكتوبة عن كل هذه الفترة السابقة للقرن السادس عشر؟ ونظرا لعدم وجود أي بيان أكيد أو دقيق فانه ليس أمامنا الا التخمينات<sup>(٤)</sup>. وفي الواقع فانه باستثناء مجمع سير أحمد بابا، فاننا لانقابل أي اشارة أخرى عن أعمال سابقة ومستعملة<sup>(٥)</sup>. وكاشارة وحيدة فان الكاتب يكتفى أحيانا بالقول انه حصل على هذه الواقعة من أحد أخوانه أو عن طريق أحد العلماء<sup>(٦)</sup>. وحتى فيما يخص تاريخ مراكش فانه لا يذكر الا كتاب والحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية<sup>(٧)</sup> ورغم ذلك كما يقول

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر، ص ٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢.

(٤) هوداس، المقدمة، ص ٣.

(٥) هوداس، المقدمة، ص ٣.

(٦) السعدي، تاريخ السودان، ص ٦٢ يقول «وحدثني بعض الشيوخ المعمرين من أهل تيبكت، من ٥٩ : يقول كما رقت عليه في بعض التواريخ وسمعت من بعض الفقهاء الذي له حفظ واعتناء بمعرفة التواريخ».

(٧) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤٢.

هوداس Houdas فإنه من المحتمل انه كانت هناك نصوص أخرى تحت عينه. وسكوته في هذه الناحية لا يوحى قطعاً أن حوليات عن السودان لم تكتب قبل ذلك. ومن المحتمل أن يعثر في يوم ما على بعض هذه الأعمال التي تجهل اليوم عناوينها<sup>(١)</sup>.

والجزء الثاني من تاريخ السودان بالغ الحيوية. ويتمثل فيه رخاء في التفصيلات. وهنا فإن المؤلف لا يتكلم الا عن ماشاهده، أو ما قصه عليه شهود عيان جديرين بالثقة. والوظائف العامة التي تقلدها وضعت في علاقات مع أكبر الشخصيات وأكثر من ذلك فإن كفايته الشخصية جعلته يكلف بمهام سياسية ذات أهمية كبيرة<sup>(٢)</sup>. وهو يقصها بنفسه ويفوص كثيراً في التفاصيل التي تبدو أحياناً دقيقة. والاهتمام الذي يبديه نحو بعض الأحداث يبدو لنا أحياناً مبالغاً فيه. ولكن عدداً من هذه الحوادث غير ذات قيمة في ظاهرها بالنسبة لنا ميزة اخبارنا عن الوسط وعن البيئة التي نشأ فيها<sup>(٣)</sup>.

والسعدى مثل الأغلبية الساحقة من المؤرخين العرب، يكتب دون خطة محدودة من قبل. فهو يجهل فن التكوين اللغوي، واللغة التي يكتب بها أبعد ما تكون عن الصواب المطلق. فهو لا يخشى استعمال الكلمات التي لم يجد مكانها في المعاجم القديمة، ويتصرف وفق هواه مع القواعد العربية<sup>(٤)</sup>. ونحس من وقت لآخر أنه يفكر بعبارات سودانية وأنه يكتب بلغته. ورغم ذلك فإن افكاره لا يكتنفها الغموض الا قليلاً جداً. ويجوز لنا أن نرجح أن نواحي

(١) هوداس، مقدمة كتاب تاريخ السودان للسعدى، بالفرنسية، ص ٤٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) هوداس، نفس المصدر، ص ٣.

(٤) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٤.

الغموض القليلة التي نجدها في كتابه انما نتجت بسبب اخطاء اقتطفها النقال<sup>(١)</sup>. ونحن نعلم انه في البلاد الإسلامية أكثر منه في أى مكان آخر فان النساخ يعلقون أهمية كبيرة على جمال الخط أكثر من النقل الصحيح<sup>(٢)</sup>.

ولا يتعين علينا أن نطالب شخص نعا في قلب افريقية، وعاش في بداية القرن السادس عشر الميلادى، أن يدلى بنصيب كبير في نقد الأحداث التي يرويهها، ولا يجب أن نطلب منه البحث عن أسباب الوقائع أو أن يستخلص منها النتائج<sup>(٣)</sup>، ومع ذلك وفي الجزء الثاني من كتابه فانه يبين لنا بوضوح أن الكاتب يكون افكارا، عن الاشياء التي تدور تحت عينيه، وان تقديره بالرغم من كونه غامضا، فانا نستطيع بالفعل الاشياء التي لم يقلها<sup>(٤)</sup>.

وبالرغم من نقص المنهج والفجوات التي تتخلله فان «تاريخ السودان» يسمح لنا بالوضع الذي هو عليه أن نعرف بطريقة عامة التنظيم العسكري والادارى لجزء كبير من السودان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من عصرنا - ونجد عرضا للأسباب المختلفة التي أدت إلى فترات متعاقبة من الرواج ومن الفقر. وسنجد في المقام الأول الاضرار التي تنتج عن النظام الاقطاعى حيث لا يفكر كبار الاقطاعيين الا فى تحطيم الوحدة الحكومية للبلاد ويقودون بهذه الوسيلة الهجمات التي تانى من الخارج<sup>(٥)</sup>. وستأتى بعد ذلك الاخطاء التي ارتكبها المغاربة وهي اخطاء ألبت عليهم مشاعر الشعوب المغلوبة وتجعلنا نفهم الجهود التي ابدتها الوطنيين لطرده هؤلاء الاجانب من بلادهم<sup>(٦)</sup>.

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٤.

(٣) هوداس، المقدمة، بالفرنسية، ص ٥.

(٤) هوداس، المقدمة، ص ٤.

(٥) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٥.

(٦) هوداس، المقدمة، ص ٥.

وهنا وهناك نقابل بعض الاخبار القصيرة عن تاريخ الشعب المغربي في بلادهم وتوقف السعدى عند احداث سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م.

هذه هي أهم الكتب التاريخية من المصادر التي تتناول الفترة التي تدرسها.

وبعد ذلك تأتي الكتب الجغرافية.

والكتب الجغرافية مهمة بالنسبة للتاريخ للسودان الغربي، وذلك لأن الجغرافية العربية وثيقة الصلة بالتاريخ، وبمرور الوقت استطاعت الجغرافية أن تنفصل عن التاريخ انفصالا غير تام على كل حال<sup>(١)</sup>.

والجغرافية العربية تنقسم إلى نوعين: أولهما الجغرافية الرياضية وتضم فرعين هما:

. علم الاطوال والعروض *Le science des longitudes et des latitudes*

وعلم تقويم البلدان *Le détermination de la position des pays*<sup>(٢)</sup>

وثانيهما الجغرافية الادبية أو الوصفية وتشتمل على فرعين هما:

. علم المسالك والممالك *Le science des itinéraires et des états*

وعلم عجائب البلدان *Le science des merveilles du monde*

---

(١) الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين ٧، ٦ للهجرة (١٢-١٣م)، نقد للمصادر، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد الثامن، ١٩٥٤، ص ٩١.

(٢) الأستاذ الدكتور سعد زغلول، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة، ص ٩١.

وأهمية كتب الجغرافية في أنها «تكمل كتب التاريخ التي اهتمت بالاحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها، إلى جانب وصف الاحوال الطبيعية والبيئية، بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة، منها الاقتصادية والاجتماعية ومايختص بعادات الشعوب وتقاليدھا... الخ»<sup>(١)</sup>.

وفي كتب الجغرافيين القدماء من المشاركة أمثال: ابن خردادبة واليعقوبي، وابن الفقيه، والاصطخري، والمسعودي، والمقدسي لانجد معلومات كافية عن بلاد السودان بشكل عام وعن السودان المغرب بشكل خاص. ويعلل الاصطخري (توفي سنة ٣٤٠هـ) ، وينقل عنه ابن حوقل، عدم اهتمامه ببلاد السودان بسبب انها بلاد جاهلية غير متحضرة وفي ذلك يقول: «ولم نذكر بلاد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في اعراضهم من الأمم لان انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولاحظ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك»<sup>(٢)</sup>.

هذا بينما نجد الوضع مختلف لدى الجغرافيين المغاربة، «فبلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية»<sup>(٣)</sup>، ومن هنا أولوها اهتمامهم.

من كتب النوع الأول كتاب الخوارزمي والمعلومات عنه قليلة للغاية

يذكر لنا ابن النديم أن اسمه محمد بن موسى وكنيته أبو جعفر، وأصله

(١) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢١م.

(٢) الاصطخري، مسالك الممالك، نشر دجوة، ليدن ١٩٢٧، ص ٤-٥، ابن حوقل صورة الأرض، نشر كويمبر، ليدن ١٩٢٨، ص ٩-١٠. وانظر فيما بعد الفصل الخاص بـ «بلاد السودان».

(٣) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٤٠.

من خوارزم، وكان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة<sup>(١)</sup>. وهو من جغرافى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وآخر ذكر ورد له مقترنا بوفاة الخليفة الواثق سنة ٢٢٢هـ / ٨٤٣م، ويبدو أنه توفي بعد ذلك بقليل<sup>(٢)</sup>.

ويطلق على الكتاب اسم «صورة الأرض»، وقد ورد بالكتاب اسم غانة بما يدل على أن العرب قد عرفوها في تلك الفترة المبكرة.

وقد نشر Hons. V. Mzik الكتاب في فينا سنة ١٩١٦.

ثم تنتقل إلى أكبر جغرافى انجبه الاندلس فى رأى دوزى وهو البكرى<sup>(٣)</sup>.

وأهم كتبه كتاب المسالك والممالك، وقد وصلنا منه الجزء الخاص بصفة المغرب - كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب - (نشر دسلان) الطبعة الثانية، الجزائر ١٩١١م، وللكتاب أهمية تاريخية كبرى لأنه ينقل بعض كتب تاريخ المغرب الأصلية التى لم تصل إلينا<sup>(٤)</sup>. (وعن البكرى انظر ما قبل ص ٧).

وبعد البكرى يأتى الادريسى: وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسى<sup>(٥)</sup>، ولد بمدينة سبتة فى سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م، وكانت تابعة فى ذلك العصر للمرابطين<sup>(٦)</sup>. ونحن نعرف القليل

(١) ابن التديم، الفهرست، طبعة مصر، ص ٢٨٣.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٦٩.

(٣) انجل بالثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ٣١٠.

كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٢٧٤.

(٤) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٢٢.

(٥) دوزى، مقدمة صفة المغرب، بالفرنسية، ص ٢، انجل بالثيا، الفكر الاندلسى، ص ٣١٢.

(٦) Brock, G.A.L., Vol I, P, 477, Blachère, extraits. p, 190, Dozy, introd, p, III.

جدا عن حياته، فهو حفيد لأدريس الثاني الحمودى أمير مائقه، ويبدو أنه تلقى علومه فى قرطبه، وقد بدأ أسفاره منذ سن مبكر، فزار كثيرا من نواحي الأندلس والمغرب<sup>(١)</sup>، وفى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦ - ١١٧٠م، وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره زار أسية الصغرى، وزار سوريا ومصر. ثم زار صقلية حيث لقي اعجاب ملكها رجار، فأقام عنده<sup>(٢)</sup>، وهناك ألف كتابه المعروف، «نزهة المشتاق فى اختراق الافاق» ويعرف أيضا بكتاب رجار<sup>(٣)</sup>. وانتهى من تأليفه سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م. وأكثر الاحتمالات انه مات بسبته سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٦م<sup>(٤)</sup>.

ونشر دوزى ودجويه الجزء الخاص بأفريقية والأندلس تحت اسم «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) ليدن ١٨٦٦، وأتبع النص بترجمة فرنسية مع هوامش بعنوان.

#### Description de L'Afrique et de L'Espagne

والجزء الخاص بالسودان يتضمن معلومات مهمة عن السودان فى عصره (القرن السادس الهجرى) فهو يتحدثنا عن غانة أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا<sup>(٥)</sup>. وينفرد بذكر معلومات منها أن ملك غانة يتسب إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن على ابن طالب. ويتكلم بإفاضة عن التبر بأرض ونقاوة. كذلك يتضمن معلومات مهمة جدا عن التجارة المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان ومعلوماته يستقيها من بعض السفار الثقات،

(١) انجل بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٣١٣، بلاشير، ص ١٩٠.

(٢) بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، بلاشير، ص ١٩٠.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة على عبد الواحد وافى، ج ١، ص ١٨٤.

(4) Blachère, Extraits, p, 191, Brock, G.A. L., Vol I, p, 477.

(٥) الأهرسى، صفة المغرب، ص ٦، والترجمة الفرنسية، ص ٧.



وكذلك من بعض الثقافات من متجولى التجار فى بلاد السودان<sup>(١)</sup>.

وبعد الادريسي ياتى كتاب الاستبصار، وعنوانه الكامل هو « كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار» ويتضمن (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان) وهو لكتاب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى. وقد قام بنشره وتحقيقه الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، وهو من مطبوعات جامعة الاسكندرية.

والجزء الخاص ببلاد السودان يعتمد فيه اعتمادا كبيرا على البكرى. ويهتم بصفة خاصة بذكر الثروة الزراعية والمعدنية فى بلاد السودان فهو يستطرد فى ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس.

وكذلك يقول انه اطلع على الرسائل الرسمية الصادرة باسم غانة ملك أحد هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين<sup>(٢)</sup>.

والى كتب الجغرافية تضاف كتب الرحلة التى تتميز بتسجيل المعلومات وليدة التجربة ومشاهدة العيان<sup>(٣)</sup>.

أهم الرحلات - بالنسبة لموضوع البحث - رحلة ابن بطوطة.

وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى، اللواتى نسبة إلى قبيلة لواته البربرية (وهى فرع من بربر البتر) ولد بمدينة طنجة فى ١٧ رجب سنة ٧٠٣هـ / ٢٤ فبراير ١٣٠٤م<sup>(٤)</sup>. خرج من

(١) الادريسي، صفة المغرب، ص ١٠، ص ٣٢.

(٢) كتاب الاستبصار، المقدمة من ن، ث، ص ٢١٩

(٣) أ.د. سعد زغلول، تاريخ الغرب العربى، ص ٢٤

(٤) رحلة ابن بطوطة، طبعة التجارية فى جزئين، القاهرة: ١٩٦٤ ج١، ص ٤.

Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, London, 1939, Introduc, p. 2, Brock, G.A.L, Vol II, p. 256, Suppl. Vol II, p. 365,

طنجة في سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥ م، وهو في سن الثانية والعشرين، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>. ولكن المقادير ساقته وألقت به في مختلف البلاد ولم يقدر له العودة إلى بلده إلا بعد أكثر من ربع قرن. ووصل بلاط السلطان أبي عنان في أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / نوفمبر ١٣٤٩ م. ولكن تجوله لم يقف عند هذا الحد فقد قام بزيارة الأندلس ورجع إلى المغرب مرة ثانية. وفي أول المحرم عام ٧٥٢هـ - ١٨ فبراير ١٣٥٢ م ثم خرج في رحلة كانت وجهته فيها بلاد السودان الغربية.

من أهم ما تمتاز به الرحلة الوصف الدقيق للطريق من سجلماسة إلى مالي. وكان بحكمها في ذلك الوقت السلطان منسى سليمان، كذلك حوت الرحلة معلومات متباينة أهمها ما هو خاص بالعادات والتقاليد والتنظيم المتبعة في البلاد.

وفي طريق العودة زار معادن النحاس في تكدا، ومن هناك وفي ١١ شعبان سنة ٧٥٤هـ / ١٢ سبتمبر ١٣٥٣ م بدأ رحلة عصبية استغرقت بضع شهور في صحبة رفاقه من تجار الرقيق، وصل معها إلى بلاد هكار بعد أن مر على غات. ووصلت القافلة إلى بواد (وهي من أكبر قرى توات) ومنها وصل إلى سجلماسة ومنها سار في ظروف صعبة وكان الثلج يتساقط في الطريق حتى وصل إلى فاس في نهاية سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣ م. وفي هذه المدينة ظل على ما يبدو حتى مات في ٧٧٩ / ١٣٧٧ م<sup>(٢)</sup>.

<sup>٢</sup> Blachère, extraits, p, 348.

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٤-٥، الترجمة الإنجليزية لجيب، ص ٤٣.

(2) Brock, G.A.L., Vol II, p, 257, Suppl, Vol II, p, 366.

هنا بما يذكر جب في مقدمة ترجمة رحلة ابن بطوطة أنه مات في سنة ١٣٦٨ أو ١٣٦٩ = ٧٧٠هـ.

Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, introduction, p, 2.

والى السلطان أبى عنان يرجع الفضل فى ظهور وصف رحلة ابن بطوطة إلى النور، يتضح ذلك بجلاء من قول ابن جزى «صدر الامر العالى لعبد مقامهم الكريم.. محمد بن محمد بن جزى الكلبي اعانه الله على خدمتهم.. ان يضم اطراف ما املاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملا فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا... ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بالفاظ موفيه للمقاصد...»<sup>(١)</sup>

ومن هذا النص يتضح أن رحلة ابن بطوطة الموسومة باسم «تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار» ليست من تصنيف ابن بطوطة ولكن الذى قام بصياغتها صياغة ادبية وفقا لرواية ابن بطوطة هو ابن جزى. وانتهى ابن جزى من تقييدها فى عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥<sup>(٢)</sup> ولم يعمر ابن جزى طويلا فقد وافاه الاجل فى نفس العام التالى<sup>(٣)</sup>.

وبعد ابن بطوطة يأتى الحسن بن محمد الوزان.

والملاحظة الأولى الجديرة بالتسجيل هى أن اسمه الغربى يشير إلى ما اكتنف سيرة حياته من تعقيد كبير.

اسمه المعروف به فى البلاد العربية هو الحسن بن محمد الوزان الزياتى<sup>(٤)</sup>، ولكن اسمه الذى ورد فى مؤلفاته التى كتبها هو جون ليون الغرناطى وترجمته بالعربية يوحنا الأسد الغرناطى<sup>(٥)</sup>، ولد فى غرناطة فى تاريخ غير محدد بين ١٤٨٩ - ١٤٩٥ / ٨٨٥ - ٩٠١ هـ، والوزان تعنى الوزان،

(١) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج١، ص ٤.

(٢) رحلة ابن بطوطة، طبعة التجارية، ج٢، ص ٢١١ ترجمة جب، ص ٢٢٩.

(3) Blachère, extraits, p, 350.

(4) Brock, G.A.L, Suppl, Vol II, p, 710.

(5) Brock, G.A.L, Suppl, Vol II, p, 710.

ويبدو أن هذا كان اسم العائلة التي عمل أحد أسلافها في وظيفة تتعلق بالوزن. والزياتي تبرز فيما يبدو اسم قبيلته الأصلية<sup>(١)</sup>.

وبعد وقوع غرناطة في أيدي النصارى في يناير سنة ١٤٩٢م، والتي تلاها طرد المسلمين، لجأت عائلة الحسن إلى فاس حيث احتلت مكانا مرموقا. واتبع الطفل في دراسته نفس النهج الذي لا زال يتبعه مثقفو اليوم في مدرسة فاس وفي جامعة القرويين الإسلامية. وفي سنة ١٥١١م وفي سن السابعة عشر صحب الحسن أبا. أعمامه في رحلة دبلوماسية إلى تمبكتو (تنبكتو)<sup>(٢)</sup>. وقد قضى الجزء الأكبر من سنوات ١٥١٤ - ١٥١٥ في مراكش، حيث كان في خدمة السلطان، كما كلف بمهام سياسية غالبا وتجارية أيضا، وفيما بعد قام بأعباء مماثلة لدى السلطان محمد سلطان فاس<sup>(٣)</sup>.

وسافر الحسن فجأة من فاس في أغسطس ١٥١٥م / ٩٢١هـ. ويبدو من غير المؤكد أنه كلف بسفاره لدى سليم، سلطان القسطنطينية<sup>(٤)</sup>. ولانعلم شيئا عن المكان الذي بدأ الحسن منه رحلته إلى القسطنطينية، ولا عن تاريخ سفره، وكذلك لانعرف شيئا عن مدة اقامته بالشرق. غير أنه كان موجودا في مصر في يونيو ١٥١٧-٩٢٣هـ، وفي رشيد، في نفس الوقت الذي كان فيه هناك امبراطور الترك، السلطان سليم<sup>(٥)</sup>. وقام خلال اقامته بالشرق بالحج إلى مكة، وعاد من مصر إلى مراكش في ١٥١٨ مارا بطرابلس<sup>(٦)</sup> وانتهت جولته

(1) Jean-Léon L'Africain, description de L'Afrique, N.édition, traduite de L'italien par A. Epaulard, Paris 1956, introduct, p, VII.

(٢) ليون الافريقي، وصف افريقية، بالفرنسية، جدا، المقدمة، ص ٧، كرايشكوفسكي، ص ٤٥٠.

(٣) ليون الافريقي، وصف افريقية، المقدمة، ص ٨.

(٤) ليون الافريقي، وصف افريقية، المقدمة، ص ٩.

(٥) ليون الافريقي، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، المقدمة، ص ٩.

(٦) ليون الافريقي، وصف افريقية، المقدمة، ص ٩، كرايشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي،

نهاية محزنة. بينما هو في طريق العودة وأثناء نزوله في جربة وقع في أسر القرصان الصقلي بـ Pietro الذي صحبه إلى إيطاليا وهناك قدمه هدية إلى البابا ليون العاشر ، وقد احسن الباب استقباله وانجرا عمده الحسن بن محمد الوزان الزيتاني على يد البابا في كنيسة القديس بطرس بروما في ٦ يناير ١٥٢٠ تحت اسم جيوفاني ليوني<sup>(١)</sup>. واقامة ليون في ايطاليا غير معروفة بدقة، وقام بتدريس اللغة العربية في بولونيا<sup>(٢)</sup>، ومن بين مؤلفاته معجم عربي عبري لاتيني - وكان المامه الجيد باللغة الاسبانية خير معين له على اجادة الايطالية واللاتينية - الفه في سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م لاتزال مخطوطته محفوظة بالاسكوريال<sup>(٣)</sup>، وتمكن ليون أو الحسن، ربما في سنة ١٥٢٨، بطريقة ما من الافلات راجعا إلى افريقية (تونس) وهناك مالئث أن طرح المسيحية وعاد ثانية إلى الديانة الإسلامية، وقد توفي الحسن الوزان على ما يبدو بتونس في أواخر عهد بني حفص وذلك في عام ١٥٥٢ م<sup>(٤)</sup>.

وقد وجدت مزاعم تقول بأن الأصل العربي. «لوصف افريقيا» كان موجودا لدى المؤلف عندما وقع في الأسر، وقيل فيما بعد بأن مخطوطته وقد وجدت طريقها إلى أحد محبي الكتب فقدت في الطريق إلى نابلي عند هجوم القراصنة<sup>(٥)</sup>، وعلى الرغم من كل ذلك فإن القول بأنه قد وجد مصنف تام في يد ليون الافريقي عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع مستفرقة وتخطيط ذي طابع عام<sup>(٦)</sup>.

(١) نفس المراجع السابقة.

(٢) ليون الافريقي، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، ج١، المقدمة ص ٩.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص ٤٥٢.

(٤) نفس المرجع، ص ٤٥٢.

(٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص ٤٥٢.

وماسينيون Massignon بوجه عام لا يعتقد في وجود مخطوطه عربية للكتاب ويعتبر القول بذلك محض خطأ بل انه يرى خلافا لذلك أن ليون الافريقي لم يدون الكتاب باللغة العربية وانما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الايطالية رأساً<sup>(١)</sup>.

وقد انتهى جيوفاني ليوني (أو الحسن الوزان) من تدوين كتابه في أثناء وجوده بروما في ١٠ مارس سنة ١٥٢٦<sup>(٢)</sup>.

وينقسم المصنف تبعاً للمتن الايطالى إلى تسعة كتب، يعالج في الكتاب السابع، بلاد السودان<sup>(٣)</sup>. وفي الفصل الخاص ببلاد السودان يحدثنا الحسن الوزان عن ولاته (ايوالين) وعن أهميتها التجارية، وعن عادات الناس، وطريقة حياتهم التي تشبه حياة جيرانهم الذين يقطنون الصحراء... وعن غينيا (جنى) ومملكة مالى - وثناء سكانها وسببه احترامهم التجارة وهم الاكثر تمدناً، أكثر ذكاء، وأكثر احتراماً من كل السودان<sup>(٤)</sup>.

ويكلمنا أيضاً عن تمبوتو Tombutto<sup>(٥)</sup>، تأسيس المدينة، منازلها، مساجدها، قصر الملك، السكان وعاداتهم،... ثروة الملك، وعن جند الملك من الفرسان، تجارة الملح. وعن مملكة Gago (كوكو - كاغ) ... وعن نقارة Guangara ومعادن الذهب الموجود فيها ... وعن مملكة البرنو.

ومن كلام الحسن (عن بلاد السودان) يبدو أنه قام برحلتين، الأولى في

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٤٥٢.

(2) L. Massignon, Leo Africanus, Ency de L'islam, Vol III, p, 23.

(٣) ليون الافريقي، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، نشر A.Epaulard باريس ١٩٥٦، في جزئين،

الجزء الثانى، ص ٤٦١، وما بينهما Pays des Noirs.

(٤) ليون الافريقي، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، ج٢، ص ٤٦٦.

(٥) ليون الافريقي، نفس المصدر، ص ٤٦٧.

سنة ١٤١١ في صحبة عمه، والرحلة الثانية لا يذكر تاريخها<sup>(١)</sup>.

ومعلومات الحسن تنقسم إلى قسمين: معلومات منقولة تترواح بين الصواب والخطأ، ومعلومات وليدة مشاهدة العيان والتجربة وهي المعلومات الخاصة بعصره.

وقليلا ما يشير الوزان إلى مصادره، ولكنه يورد اسم البكرى والمسعودى وابن الرقيق. وإذا كان مصنف ليون له صفات ممتازة ويمدنا بوثائق غاية في الأهمية فإنه يوجد به عدد من الأخطاء التي ترجع لاسباب عديدة<sup>(٢)</sup>، منها، انه قد دون مصنفه من الذاكرة، ولم تكن ذاكرته تسعفه دائما، وعلى الرغم من أن الوصف الجغرافى عنده يتميز بالدقة الشديدة الا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست فى المستوى المرجو<sup>(٣)</sup>.

وللكتاب عدة طبعات ظهرت الطبعة الأولى لراموزيو Ramusio فى البندقية سنة ١٥٥٠ تحت عنوان Navigazioni Viaggi.

وتلى ظهور الطبعة الايطالية ظهور الترجمتين اللاتينية والفرنسية، وكذلك الترجمة الانجليزية، وأحدث طبعة لوصف افريقية هي الترجمة الفرنسية الحديثة لايولار.

ثم يأتى بعد ذلك كتب الطبقات وهي نوعين: كتب طبقات عامة مثل (ابن خلكان: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان) وكتب طبقات عامة (أقليميا) خاصة موضوعيا مثل: طبقات المالكية والشافعية، والحنفية،

(١) كرادشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٤٥٠، ليون الافريقى، وصف افريقية، ج٢، ص ٤٦٩.

(٢) ليون الافريقى، وصف افريقية، ج١، المقدمة، ص ١٠.

(٣) كرادشكوفسكى، نفس المرجع، ص ٤٥٢.

والحنابلة، وطبقات الصوفية، وطبقات الاطباء والحكماء، والمغويين والنحويين،  
والقضاة، والفقهاء، وكتب خاصة اقليميا.

وميزة هذه الكتب تلخص في أنها تهتم بالتاريخ الاجتماعى والحضارى،  
أكثر من اهتمامها بالتاريخ السياسى<sup>(١)</sup>. وبهنا منها الكتب الخاصة بالسودان  
الغربى.

ويعتبر أحمد بابا التيبكى ممثلا للنوع الأول (كتب الطبقات الخاصة  
موضوعيا العامة اقليميا) واسمه بالكامل أبو العباس أحمد بن أحمد بن  
أحمد بن عمر بن محمد اقيت المدعو بابا التكرورى الصنهاجى السودانى<sup>(٢)</sup>.  
ولد أحمد بابا بقرية اروان بتيبكت فى ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٣ هـ /  
٢٦ أكتوبر ١٥٥٦ م من عائلة بربرية تنحدر من قبيلة مسوفة<sup>(٣)</sup>.

وهو يتنسب إلى اسرة اشتهرت فى مجال العلم والرياسة فى تلك الحاضرة  
السودانية. وتعدد فيها العلماء والائمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة  
تقرب من مائتى سنة<sup>(٤)</sup> خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر<sup>(٥)</sup>.

(١) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٦٦.  
(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٥٧ - ٥٨، السلاوى،  
الاستقصا لاجبار دول المغرب الاقصى، طبع القاهرة، ج٢، ص ٦٣.  
Brock, G.A.L, Vol II, P, 618, Suppl, Vol II, p, 715 - 716,  
L.Provencal Les historiens de la chorfa, 1923, p, 250 - 251.  
(Ahmed BaBa).

وسميه الهبى فى خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر، طبع مصر سنة ١٢٨٤ هـ الجزء الأول.  
ص ١٧٠، أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد اقيت، ابن عمر ابن يحيى بن كدالة بن مكى بن  
نيق بن لف ابن يحيى بن ثقت بن تنفر بن حبراي ابن البخرين نصر بن ابى بكر بن عمر  
الصنهاجى الماسنى السودانى يعرف بابا صاحب كتاب الدنياج.

(٣) الهبى، خلاصة الأثر، ج١، ص ١٧٠.  
Brock, G.A.L, Vol II, P, 618, Suppl, Vol II, P, 715, Ency de L'islam,  
Nouvelle édition, tome I, Levraison 5, p, 288.

(٤) السلاوى، الاستقصا، ج٢، ص ٦٣.  
(٥) ency de L'islam , p, 288.



ودرس أحمد العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وفقه وحو وبيان ومنطق وتاريخ وهو يعدد لنا شيوخه ويترجم لهم في مؤلفه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وعلى رأس شيوخه والده وأعمامه وبعض أفراد أسرته<sup>(١)</sup>.

أما أشهر شيوخه الذين يذكروهم فهو شيخه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التتبيكي (عرف ببغيف)، (ولد سنة ٩٣٠ هـ وتوفي ١٠٠٢ هـ)، وقد ختم عليه الموطأ، وتسهيل ابن مالك، وأصول السبكي، وألقيه العراقي وصغرى السنوسي، وحكم ابن عطاء الله، ورجز المغيلي، وقرأ عليه أيضا صحيح البخاري، وصحيح مسلم...<sup>(٢)</sup>.

والت بالأسرة كارثة كبيرة عقب الغزو المراكشي، ودخول جند المنصور السعدي مدينة تنبكت سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م<sup>(٣)</sup>، ورفضت الأسرة الاعتراف بسيطرة بلاد مراكش، وسعم أهل السودان ملك المغاربة وكانت آذانهم صاغية لآل آقيت، وتخوف السلطان المنصور منهم وربما تم إليه بعض اخبارهم، فكتب إلى عامله محمود زرقون بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش<sup>(٤)</sup>. فقبض على عدد كبير منهم الفقيه أحمد بابا فحملوا مصفدين في الحديد ومعهم حريمهم ونهبت خزائن كتبهم، وسقط هو (أى أحمد

(١) أحمد بابا التتبيكي، نيل الابتهاج، (هامش على كتاب الديباج المذهب لابن فرحون)، الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٩ هـ، صفحات ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠٢، ٢١٨، ٢٦٠، السعدي، تاريخ السودان، صفحات ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ الخ.

(٢) السعدي، تاريخ السودان، ص ٤٥، ٤٦.

(٣) السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٤٣.

Ency de L'islam, tome I, P, 288.

(٤) السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٦٣، الوفرائي، نزهة العادي باخبار ملوك القرن الحادي، نشر هردس، باريس ١٨٨٨، ص ٩٧، السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١٢.

Brock, G. A.L, Vol II, p, 618, Suppl, Vol II, p, 716.

بابا) عن الجمل الذي كان يحمله فانكسرت رجله، وكان القبض عليهم في آخر المحرم سنة ١٠٠٢ هـ - ووصلوا مراکش أول رمضان سنة ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٤ م. ويقوا في مراکش مسجونين عامين، وفي سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م اطلق سراح الفقيه أحمد - (ومن معه) - على ان يظل بمراكش، وهناك انقطع أبو العباس للتعليم في جامع الشرفاء «فتنافس كبار طلبة مراکش في الأخذ عنه مع كون لسانه معقنا لا يفهم الا بعد ممارسة»<sup>(١)</sup>.

وفي ذلك يقول أحمد بابا في «تكميل الدياج» «ولما خرجت من المحنة طلبوا مني الاقراء فجلست بعد الاباية بجامع الشرفاء بمراكش من أقوى جوامعها، اقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفيه العراقي، فخطمت على نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم والسبكي، والحكم والجامع الصغير، قراءة تفهم مرارا وغير ذلك. وازدحم على الخلق وأعيان طلبتها ولازموني وأقنيت فيها لفظا وكتابة بحيث لا تتوجه الفتوى غالبا الا إلى وعينت لها مرارا، فابتهلت لله أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الاقصى إلى بجاية والجزائر وغيرهما»<sup>(٢)</sup>. وظل أحمد باب مقيما بمراكش إلى أن توفي المنصور في سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ م، فاذن له ولده وخليفته زيدان - ولمن معه من المنفيين السودانيين في الرجوع إلى تنبكت»<sup>(٣)</sup>.

(١) أليفى بروفسال، نخب تاريخية جامعة لاجهار المغرب لاقصى، باريس ١٩٤٨، ص ٩٤ وأسر الفقيه أحمد بابا بمراكش «نقلا عن كتاب صفوة من انشور للافرائي (ربما كان صحبة الاسم اليفرنى) (نسبة إلى بني بقرن).

(٢) بروفسال، نخب تاريخية جامعة، ص ٩٤، المحيي، خلاصة الافر، ج١، ص ١٧١، ١٧٢، الوفراني، نزعة الحادي، ص ٩٧، السلاوي، الاستقصا، ج٣، ص ٦٣.

(٣) الوفراني، نزعة الحادي ص ٩٧، ليفى بروفسال، نخب تاريخية جامعة، ص ٩٤، (نقلا عن الوفراني، في صفوة من انشور، السلاوي، الاستقصا ج٣، ص ٦٣)

Brock, G. A.L., Suppl, Vol II, p, 716.

وفي تلك الفترة قام الفقيه بأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى مسقط رأسه، حيث كرس جهوده للعلم، ومات في 6 شعبان ١٠٣٦ هـ / ٢٢ أبريل ١٦٢٧ م<sup>(١)</sup>.

ولأحمد بابا مايزيد على الأربعمائة مؤلفاً في الفقه المالكي، والنحو، والموضوعات الأخرى، ولكن أهم مؤلفاته الذي وصلنا كاملاً هو كتاب «ذيل الابتهاج بتطريز الديباج» وهو عبارة عن معجم سير لفقهاء المالكية ذيل فيه على كتاب ابن فرحون «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» الذي توقفت تراجمه عند سنة ٧٦١ هـ. وقد جمع أحمد بابا في مصنفه تراجم لعلماء المالكية ممن ليس في ديباج ابن فرحون، وكذلك زاد في بعض التراجم التي ذكرها، وهو مرتب حسب الحروف الأبجدية.

وفرغ من تقييده في سنة ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م بمدينة مراكش<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال تراجمه لفقهاء المالكية في بلاد السودان يعطينا فكرة واضحة عن الحياة العلمية والفكرية في هذه البلاد - وخاصة مدينة تنبكت.

ونشر الكتاب في فاس سنة ١٤١٧ هـ.

وطبع في القاهرة، هامش على كتاب «الديباج المذهب» لابن فرحون، سنة ١٣٢٩.

وللكتاب أسماء أخرى مثل «تكملة الديباج» و «ذيل الديباج» و «توشيح

---

محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٨٢.

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٤٤، الترجمة الفرنسية، ص ٣٧١، السلاوى، الاستقصا، ج٣، ص ٦٣.

Brock, G. A.L., Suppl, Vol II, p, 716. Suppl, Vol II, p, 716, Ency de L'Islam nouv. Edition, p, 288.

(٢) أحمد بابا، ذيل الابتهاج، ص ٣٦١.

الديباج» و «اليواقيت الثمنية في أعيان مذهب عالم المدينة»<sup>(١)</sup>.

«كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج» وهذا المصنف عبارة عن تهذيب واختصار لكتابه الأول<sup>(٢)</sup>.

«اللائي السندسية في فضائل السنوسية» أو «المواهب القدوسية في المناقب السنوسية». و«معراج الصعود» أو «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان»<sup>(٣)</sup> وهو مصنف في ذم الرق كتبه في مراکش.

ثم يأتي كتاب «تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان».

ويمثل النوع الثاني (كتب الطبقات الخاصة اقليميا). وهو لمؤرخ غير معروف حفيد الفع محمد بن الأمير صود<sup>(٤)</sup>، ينحدر من سنفي<sup>(٥)</sup>. ويذكر لنا المؤلف أن جد والده اسمه الفع (الفقيه) الأمين بن محمد صود كان يعمل معلما للصبيان<sup>(٦)</sup>.

ولد المؤلف في سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ في مدينة تيبكت<sup>(٧)</sup>.

والكتاب عبارة عن تاريخ في صورة تراجم *Histoire biographique* لليناشات المراكشيين الذين حكموا السودان، وكذلك الاساكي من أهل سنفي، والقضاة، وأئمة الجامع الكبير، منذ الفتح المغربي للبلاد سنة ١٠٠٠

(1) Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 716.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، الترجمة العربية، ص ٤٥٨.

(3) Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 716.

(٤) تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان، النص العربي، نشر هوداس، باريس ١٨٩٩، ص ١٤.

(5) Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 468.

(٦) تذكرة النسيان، ص ١.

(٧) تذكرة النسيان، ص ٨.

Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 468.

هـ / ١٥٩٢ م ومجيء القائل جودر، وحتى سنة ١١٦٤ هـ ، ١٧٥١ م.

والكتاب متأخر عن الفترة التي ندرسها، ولكن أهميته تلتخص في انه يعطينا صورة واضحة وحية عن الحياة الاجتماعية، والعادات والتقاليد في بلاد السودان خاصة مدينة (تنبكت). ومن بين الأشياء الهامة التي يرويها لنا قراءة صحيح البخاري في شهر رمضان؛ ومنزل الإمام بمشابة الحرم. ويحدثنا أيضا عن طريق التعامل بالودع.

ومن بين الظواهر التي حرص على تسجيلها ، حرص على تسجيل مرات سقوط المطر في تنبكت، واحتفال الناس بذلك<sup>(١)</sup>.

والكتاب مرتب على حروف المعجم.

---

(١) تذكرة النسيان، ص ١٥١.



الباب الأول  
الصحراء والسودان





## الفصل الأول

أ- الصحراء.

ب- السودان



الباب الأول  
الصحراء والسودان  
الفصل الأول  
أ - الصحراء

تمهيد:

ان الكلام عن انتشار الإسلام في السودان الغربي، يقودنا إلى الحديث عن الصحراء الكبرى في شمال افريقية. فعبر هذه الصحراء انتشر الإسلام والحضارة الإسلامية من بلاد المغرب إلى بلاد السودان. فالصحراء كانت منذ القدم طريقا للمواصلات والربط بين المغرب وبلاد السودان أكثر منها حاجزا وفاصلا بينهما كما قد يخطئ البعض، وبالتالي كانت همزة الوصل بين المنطقتين مما أدى إلى المزج بين البيضان والسودان منذ أقدم العصور.

امتداد الصحراء:

فالصحراء «الكبرى» شمال افريقية<sup>(١)</sup>، اذ تمتد من ساحل المحيط الاطلنطي (البحر المتوسط) (موريتانيا) غربا، حتى حدود السودان النيل في الشرق، أي لمسافة ٤٠٠٠ كيلو متر، كما أنها تمتد لمسافة ١٥٠٠ كيلو متر بين الشمال والجنوب، أي بين أطلس وتمبكتو (تبتكت)<sup>(٢)</sup>. وبذلك يحدها بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) من شمال، وبلاد السودان

(1) E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1928, p, 9.

(٢) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى - الجوانب الجيولوجية. مصادر الثروة المعدنية. استغلالها. ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصوري، القاهرة، ١٩٦٣.

من الجنوب<sup>(١)</sup>. فالصحراء نكاد تعزل كلاً من البلدين وأن كانت في نفس الوقت وسيلة الربط بينهما.

وقد ميز الجغرافيون المحدثون خصوصاً بين الصحراء الشرقية أى الصحراء الليبية والصحراء الوسطى والصحراء الغربية<sup>(٢)</sup>.

والعرب أول ما عرفوا السودان المغربى عرفوه عن طريق الصحراء الشرقية، حيث كان هناك طريق يسلك من واحات مصر<sup>(٣)</sup>، ويمر بالواحات الداخلة والكفرة<sup>(٤)</sup>، ويتجه إلى السودان الغربى متجهاً إلى غانم، ومنها إلى أودغشت، فعدل عنه فى القرن الرابع إلى طريق سبجلماسة، وذلك بسبب توافر الرياح السافية للرمال على القوافل، وهلاك أكثر من رفقة، وأيضاً عدوان اللصوص على القوافل، فأمر أبو العباس أحمد بن طولون (حكم من ٢٥٤هـ / ٨٦٨م إلى سنة ٢٧٠-٨٨٤م)، بقطع الطريق ومنع أن يخرج عليه أحد<sup>(٥)</sup>.

ويورد العمري (يكتب فى سنة ٧٣٨ هـ) فى «مسالك الأبصار»، رواية

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، نشر كريم، طبع لندن، ١٩٣٨، ج١، ص ٨٣، البكرى، المغرب، نشر دسلان، الجزائر ١٩١١، ص ٢١، أبو الفداء، تقويم البلدان، نشر رينو ودسلان، باريس، ١٨٤٠، ج١، ص ١٢٢.

(2) Actes du VII Congrès de l'Institut des Hautes-études Marocaines, Compte rendu des séances, p, 9, Hesperis, Tome XI, 1930.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٥٣، حيث يقول: «وإما الواحات فإنها بلاد كانت معمور بالمياه والأشجار والقرى والروم قبل فتحها، وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذى كان يؤخذ ويسلك قديماً من مصر إلى غانم فاقطع . . . الأفرسى، صفة المغرب، ص ٢٢، الاستبصار، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) آدم متزه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام، ترجمة د. عبد الهادى أبوريدة، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٧، ج٢، ص ٤١٣.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٦١، ص ١٥٣.

يفهم منها أن الطريق من مصر إلى بلاد السودان، عبر الواحات اتخذ مرة ثانية. ونص هذه الرواية: «وبلاد مالي وغانة وماعها يسلك إليها من غربي صعيد مصر على الواحات، في ير مقفر يسكنه طوائف من العرب ثم من البربر إلى عمران يتوصل منه إلى مالي وغانة...» (١).

ونوصف الصحراء بأنها موحشة جدية مقفرة، إلا أن الأمر ليس كذلك فعنايع المياه والواحات تنتشر في أرجائها، ويفضلها أمكن للرفاق أن تقطع الصحراء من أقصاها إلى أذناها.

أما الصحراء التي ليس فيها ماء ولا خصب إلا القليل فهي صحراء المغرب الأقصى الجنوبية (الصحراء الغربية) موريتانيا الآن - حيث كان يقطن الملثمون - الموصلة بين سجلماسة وغانة.

#### حدودها :

وهذه الصحراء التي يحدها من ناحية الغرب البحر المحيط، ومن الشرق نهر النيجر عندما ينثنى شمالاً إلى جهة تنبكت ومن الشمال منطقة سجلماسة التي يقال لها اليوم تافيلالت، وبلاد السودان من الجنوب. ويوجد بها الماء القليل الذي يتزود به من مواضع معلومة.

#### وصف الطرق الموصلة إلى السودان :

ومن أقدم الروايات التي وصلت إلينا، والتي تتكلم عن الصحراء الموصلة بين المغرب وبلاد السودان، رواية البكري (يكتب في سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧-١٠٦٨ م) على أيام المرابطين. ويصف لنا البكري الطريق من وادي

(١) العمري، مسالك الأنصار، المخطوط، ص ١٠٩، والترجمة الفرنسية لديومين، ص ٨٠ وهامش ١ حيث يقول حردقروا ديومين. «أما الطريق المتداد بين مصر والسودان».

درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان، وصفا دقيقا. فمن وادي درعة، على بعد خمس مراحل، وادي تارجا (تارجا عند صاحب الاستبصار)<sup>(١)</sup>. وهو أول الصحراء، وبعد مسيرة يومين أو ثلاث، يوجد الماء، وبعد ذلك تصل إلى رأس المجابة<sup>(٢)</sup>، وبعد هذه المجابة يذكر البكري عددا من الآبار غير العذبة<sup>(٣)</sup>، قبل الوصول إلى جبل أدرار وزال ومعناه بالبربرية جبل الحديد. ومن هذا الجبل تبدأ «المجابة الكبرى»<sup>(٤)</sup> ويوجد الماء فيها على بعد ثمانية أيام، وبعدها قرية تسمى مدوكن منها إلى غانة مسيرة أربعة أيام.

ويتضمن كتاب البكري أيضا وصفا للطريق من مدينة تامدلت إلى مدينة أودغست<sup>(٥)</sup> فمن مدينة تامدلت إلى بئر الجمالين مرحلة<sup>(٦)</sup> (يسدو من اسمها أنها كانت موقفا لقوافل الجمال التي تجوب الصحراء). وهي بئر عميقة يبلغ عمقها مسافة أربع قامات، وبعد هذه البئر شعب ضيق لا يسمح إلا بعشى الأهل بعير أثر بعير، ثم جبل يدعى أزور، وهو جبل متحجر تتسحج

(١) البكري، المغرب، ص ١٦٣، الترجمة الفرنسية لدملان، ص ٣٠٩، الاستبصار ص ٢١٣.

(٢) «المجابة» تعني الأجزاء التي تغطيها الرمال المتحركة، والتي يتعلم فيها الماء تماما. الأديسي، الترجمة الفرنسية لكتاب صفة المغرب، ص ٣٧، هامش ٢.

(٣) ..... إلى بئر تسمى لزامت وهي بئر غير عذبة قد حفرت في حجر صلد من عمل الأول، وفي الشرق من هذه البئر بئر الجمالين، وبالقرب منها بئر تسمى ناللي غير عذبة أيضا البكري، المغرب، ص ١٦٣، الترجمة الفرنسية لدملان، ص ٣٠٩.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٦٤، الترجمة الفرنسية لدملان، ص ٣١٠.

(٥) تامدلت: بلد من بلاد المغرب، شرقي لمطة أسسها عبد الله بن إدريس العلوي، وهي كثيرة العمارة حافلة بالسواق، بينها وبين مدينة درعة مسيرة ٦ أيام في عمارة متصلة. ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ٩٢، البكري، المغرب، ص ١٦٣، الاستبصار، ص ٢١٣، ياقوت، معجم البلدان، طبعة ومتغلة، ج ١، ص ٨١٢.

(٦) انظر فيما بعد الفصل الخامس بانتشار الإسلام في بلاد السودان.

فيه حافر البعير من المشى حتى تخفى. وبعد هذا الجبل ماء يسمى تندفس<sup>(١)</sup>، وهو عبارة عن أبار على السطح يحفرها المسافرون ولا تلبث أن تنهار، ثم بير كبير يقال لها وين هيلون، وبعدها أرض سواء صحراء، ربما وجد فيه الماء متبقيا من مياه الأمطار على صفا تحت الرمل<sup>(٢)</sup>، وبعد هذه الصحراء يجد المسافرون ماء يقال له تازقي، وبعده بير احتفرها عبد الرحمن بن حبيب في حجر صلب، وعمقها أربع قامات، وبعدها مكان يسمى أوكازنت وهو أرض يحفر أهل القوافل عن الماء فيها فيجدونه على عمق ذراعين أو ثلاث ثم تأتي «مجابة رمل معترضة لاماء فيها»، ويستمر الطريق إلى موضع يقال له وانزمين وهو أبار ماء قرية الرشاء<sup>(٣)</sup>، (وهذا يعني أن المياه بها قرية من السطح)، يوجد فيها الماء العذب، ويحف بها جبل طويل صعب. وبعد هذا الماء جبل واران وهي «مجابة في كتيان رمل». ويذكر البكري عدداً من الآبار، وبعدها جبل يدعى أزجوفان، ثم منطقة من الرمال تصل إلى ماء يقال له بمر واران، ومنها إلى أرض تمتلئ بالآبار. وقبل الوصول إلى أودغست يوجد شرف عال مشرف عليها<sup>(٤)</sup>، وتعتبر مدينة أودغست أول بلاد السودان وبينها وبين غانة خمسة عشر يوماً<sup>(٥)</sup>.

(١) «تندوف»، وهي تقع على سفح هضبة درعة، يحتمل أنها نشئت مكان آبار تندفس التي ذكرها البكري.

- De la chapelle, Equise d'une histoire du sahara occidental, p, 36, note I.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٥٧، «الصفاء العريض من الحجارة الاملس، جمع صفاء، والصفاء الحجر الصلد الضخم الذي لا يثبت شيئا». ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٤٦٢.

(٣) «والرشاء رمن اللوة»، ابن منظور، لسان العرب، طبعة بولاق، ج ١٩، ص ٣٧.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٥٧.

(٥) البكري، المغرب، ص ١٦٨. ويذكر البكري. «أن المسافة من تامنلت إلى أودغست أربعون مرحلة. البكري، المغرب، ص ١٥٩.

وأودغست أو (أودغشت)، مدينة في المغرب الأقصى في الجنوب في الصحراء، ويفترض الدكتور بارث، "H.Barth" أن أودغست كانت تقع بين خطي طول ١، ١١ غربى جريتتش، وبين خطي عرض ١٨، ١٩ شمالا، غير بعيد من «قصار» Ksar «وبركة» Barka، أي أنها كانت جنوب غربى موقع تجكة "Tidjika" في موريتانيا الفرنسية<sup>(١)</sup>.

ويصف لنا الأديسى (توفى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م)، الصحراء التي كان يسلكها المسافرون إلى أودغست وغانة (وهو يستقى معلوماته تلك من بعض الثقات من المسافرين ومن متجولى التجار في بلاد السودان، ويطلق عليها اسم صحراء نيسر (نيسر - نيستر)، ولعل نيسر تحريف لاسم ينتسر، وهم قبيلة من صنهاجة ذكرهم البكرى عند كلامه عن «الطريق من وادى درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان، قال : «..... ومن هذا بالجبل مجابه ماءها على ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى، وذلك الماء في بنى ينتسر من صنهاجة.....»<sup>(٢)</sup>، وهي صحراء قليلة الأنس، لا يقطنها أحد، ويوجد بها الماء القليل، وتتزود به من مجابات معلومة، وهذه المجابات تمشى فيها القوافل يومين وأربعة وخمسة وستة واثني عشر يوما قبل أن تجد الماء<sup>(٣)</sup>. وإحدى هذه المجابات مجابة نيسر، وهي تقع في بداية الطريق من سجلماسة إلى غانة وهي ممتدة لمسافة ١٤ يوما لا يوجد فيها ماء، وتتزود القوافل بالماء لسلوك هذه المجابات في الأوعية على ظهور الجمال، وأكثر أرضها رمال تثيرها الرياح وتقلها من مكان إلى مكان<sup>(٤)</sup>.

(1) G.Yver Awdag ost, encyclopédie de l'islam, Nouvelle édition paris, 1958, Tome I, Livraison 13, p, 50.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٦٤.

(٣) الأديسى، صفة المغرب، ص ٣، الترجمة الفرنسية، ص ٢.

(٤) الأديسى، صفة المغرب، ص ٢، ص ٣١، الترجمة الفرنسية، ص ٢، ص ٣٧.



وفي القرن السابع الهجري يصف لنا ابن سعيد (توفي سنة ٦٨٥هـ)،  
الذي ينقله أبو الفدا) الصحراء الواقعة بين سجلماسة وغانة ويطلق عليها اسم  
صحراء يسر (نيسر عند الإدريسي)، وهي تقع غربي مدينة أودغست. وهذه  
الصحراء طويلة عريضة «ليس فيها ماء ولا مرعى»، ويعانى المسافرون فيها من  
شدة العطش والحرارة الشديدة، وربما هبت عليهم رياح جنوبية، يكون نتيجتها  
نشف المياه التي توجد بقربهم، ولذلك يلجئون إلى المياه التي تكون في بطون  
الجمال فينحرون بعضها وترمقوا بما في بطنه<sup>(١)</sup>.

ويصف ابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي (منتصف القرن الثامن  
الهجري/١٤م) الطريق الصحراوي الذي قطعه من سجلماسة إلى إيولانين<sup>(٢)</sup>،  
وصفا دقيقا. ويلاحظ أنه رغم بعد الطريق عن العمران إلا أن به بعض مواضع  
المياه المعروفة.

ومدينة سجلماسة تقع في شمال وادي درعة، على طرف الصحراء،  
وتليها المفارة الكبرى التي تفضي إلى غانة من بلاد السودان<sup>(٣)</sup>. وبعد  
سجلماسة وعلى بعد خمسة وعشرين يوما توجد قرية تغازي (تغاز لدى  
محمود كعت والسعدى)<sup>(٤)</sup>، وأرضها عبارة عن رمل بداخله معدن ملح

(١) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٣٩.

(٢) إيولانين، جمع ولان، يكتب اسمها أيضا في شك ولان (انظر، أحمد بابا التتكي، نيل  
الانبهاج بطريق النيباج، كتب على هامش كتاب النيباج المذهب لأبن فرحون، طبع القاهرة  
١٣٢٩هـ، ص ١٦١).

- Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, p, 378, note 6.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٣٧، القلقشندي، صبح الاعشى، ٢٠٠ - ٢٠١، أبو الفدا، تقويم  
البلدان، ج١، ص ١٣٧، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ١٦٣.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٣٤، السعدى، تاريخ السودان، ص ١١، والترجمة الفرنسية  
لهوداس ص ٢١، ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ١٩١، والترجمة الإنجليزية  
لجيب، ص ٣١٧.

ولهذا لا يوجد بها أشجار، أما ماء تغازى فهو زعاق. أى أقرب إلى الملوحة، ومنها يتزود بالماء لدخول الصحراء التي تليها، والتي تقطعها القوافل وهي تحمل مؤنتها من الماء فى عشرة أيام، إذ لا يوجد فيها الماء إلا نادراً فى بعض القدران<sup>(١)</sup>، التي خلقتها الأمطار.

ويلى ذلك تاسرهلا<sup>(٢)</sup>، وهي فيما يبدو محط ذو أهمية للقوافل التي تخترق الصحراء مترددة بين الغرب وبلاد السودان. وهي إحساء<sup>(٣)</sup> ماء تعرس فيه القوافل وتقيم لمدة ثلاث أيام يستجمون ويملئون قريهم بالماء ويخيطنون عليها التلايس، خوفاً من الريح.

وبين تاسرهلا وبين نغر مالى المسمى أبوالاتن صحراء ذات طبيعة متباينة، رملية مجهلة، لا يوجد فيها طريق واضح ظاهر، أو أثر، وإنما هي رمال تقذف بها الرياح، فترمى تلالا من الرمال فى مكان وبعد ذلك تراها قد انتقلت إلى مكان آخر. ولا تهتدى فيها الرفاق، ولا يمر الوارد، إلا بالدليل «التكشيف» الخبير من مسوفة المثلثين «الظواعن بذلك القفر» يستأجره التجار فيتقدم إلى أبوالاتن ليعلمن قرب وصول القافلة، ويخرج الناس إلى الصحراء للقاء القافلة وهم يحملون قرب الماء للبيع، هذه الرحلة من سجلحاسة إلى أبوالاتن تستغرق شهرين وأبوالاتن بالنسبة لابن بطوطة تعتبر أول «عمالة السودان»<sup>(٤)</sup>.

(١) «جمع غدير، والغدير: كل ماء غودر من ماء المطر فى مستقع صغيرا كان أو كبيرا». ياقوت، معجم البلدان، طبعه القاهرة، ج١، ص ٢٦٩.

(٢) تاسرهلا: يحتمل أن تكون ما يدعى لدى الأديسي بريسرى فى صحراء ازواد. جب، ترجمة رحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٧، هامش ٥.

(٣) الاحساء، جمع حسا، وهو رمل يغوص فيه الماء حتى اذا صار إلى صلابة الأرض امسكته فتحفر عنه العرب وتستخرجه.

ياقوت، المشترك وصفها والمفترق صفعا، طبع وستفيلد، جوتنجن، سنة ١٨٤٦، ج١، ص ١٤، ابو الفسلا، تقويم البلدان، ج١، ص ٩٩، ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩٩، الترجمة الانجليزية، ص ٣١٩.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة نص ١٩٢، الترجمة الانجليزية، ص ٣١٩.

ووصف ابن بطوطة هذا ينبض بالحياة والحركة، وهو ربما لا يتميز كالبكري - بالدقة الوثائقية الشديدة، ولكن أهميته تأتي من أنه نتاج المعاناة والتجربة الشخصية. وتلحظ من وصف ابن بطوطة اختفاء أودغست، المدينة التجارية الهامة، وحلت محلها ولايت، التي كانت في وقت ما، عاصمة لصنهاجة أصحاب اللثام، والتي كانت تعتبر أول بلاد السودان، والحقيقة أن الوهن بدأ يبد فيها ابتداء من القرن السادس من الهجري / ١٢م، كما نستبين من وصف الأدرسي حيث يقول: «وهي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل وعامرها قليل وليس بها كبير تجارة ولاهلهما جمال ومنها يتعيشون»<sup>(١)</sup>.

#### واحات الصحراء همزة وصل بين المغرب والسودان :

وكذلك واحات الصحراء «الكبرى» كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان<sup>(٢)</sup>. فمن بواد (بودى عند ابن خلدون)، وتقع عند الطرف الشمالي لوادي توات)، وتوات مجمع القوافل الآتية من بلاد السودان تقع في قلب صحراء الجزائر الحالية)، يسلك الطريق إلى بلاد هكار، وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة، طريقها وعمر، ثم إلى كاهر<sup>(٣)</sup> وهي أرض كثيرة الأعشاب، ومنها إلى تكدا، والطريق يستمر من تكدا إلى كوكو من بلاد السودان<sup>(٤)</sup>

(١) الأدرسي، صفة المغرب، ص ٢٢، الترجمة الفرنسية، ص ٢٨.

(٢) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٥٥.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج ٢، ص ٢٠٧ - ٢١٠، الترجمة الإنجليزية، ص ٢٣٥ - ٢٣٨. ابن خلدون، الميبر، ج ٧، ص ٥٦، وكاهر هو متغير لاسم إمر الذي أطلق على البلد كثيرة التلال المنفرقة السكان والتي تقع إلى جنوب «in Azawa» أو «Asui» جب ترجمة رحلة ابن بطوطة، هامش ٤٠، ص ٢٨٣.

(٤) مشكلة موقع تكدا لم ينفق عليها حتى الآن. ومن المعلوم عموماً على أساس تعريف

وكانت وارجلى (وأرقلان)، وهي تقع في صحراء الجزائر (صحراء المغرب الأوسط) جنوب بلاد الزاب قبلي بجاية بابالولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المقضية إلى بلاد السودان<sup>(١)</sup>.

ومن غدامس (في صحراء طرابلس)، يدخل إلى تاد مكة وغيرها من بلاد السودان<sup>(٢)</sup> وأيضا من فزان وزويلة (التي يصفها الكتاب العرب بأنها أول حد بلاد السودان)، في صحراء طرابلس (الصحراء الشرقية)، يدخل إلى بلاد الكاتم والبرنو<sup>(٣)</sup>.

### ثروات الصحراء :

من هذا العرض الخاص بوصف صحراوات المغرب وطرقها الموصلة ما بين الشمال والجنوب وما بين الشرق والغرب، نلاحظ أن الصحراء لاتعنى الجذب المطلق فالماء، موجود على طول الطرق وأن تنوعت اشكاله ما بين العذوبة والملوحة وما بين القرب أو البعد من سطح الأرض. ولهذا وجدت الحياة النباتية والحيوانية في الصحراء متناثرة حسب موارد الماء ومتطورة بالنسبة لطبيعة الأرض ونوع الماء.

<sup>١</sup> بارث "Barth" لها، انه قرنها بـ "Tegidda n'tismet"، ٩٧ ميل غرب شمال غرب اغاديس. جب ترجمة رحلة ابن بطوطة، هامش ٣٥، ص ٢٨٢.

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٥١، ويقول الادريسي عن أهل ورقلان: «..... وهم وهبة اباضية نكار خوارج في دين الإسلام، ويذكر أن المسافة من ورقلان إلى غانة ٣٠ مرحلة».

الادريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص ١٢١، الترجمة الفرنسية للنوزي ودغوية، ص ١٤١.

(٢) الاستبصار، ص ١٤٥-١٤٦، باقوت، معجم البلدان، ج٦، ص ٢٦٨، ابو الفدا، تقويم

البلدان، ج١، ص ١٤٧، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ١٠٨.

(٣) اليكزي، المغرب، ص ١٢، الاستبصار، ص ١٤٦، الادريسي، صفة المغرب، ص ١٣٣، ابو

الفدا، تقويم البلدان، ج١، ص ١٤٧.

## الثروة النباتية :

ونباتات الصحراء على وجه العموم خشنة وبعضها لاثمر له مثل شجر الأهليلج، كما توجد بها أشجار الصمغ وشجر الحنا والحيف<sup>(١)</sup>.

## الثروة الحيوانية :

ويعتبر الجمال أهم ثروة حيوانية في الصحراء، لأنه أقدر الحيوانات على الحياة في القفر وورود المياه المملحة، وإلى جانب الجمال يوجد اللمط لصبره على العطش<sup>(٢)</sup>، وهذا الحيوان «دابة دون البقر لها قرون رفاق حادة»<sup>(٣)</sup>، ويتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية، وهي خفيفة لاينفذ إليها الشباب، ولا يؤثر فيها السيف<sup>(٤)</sup>. ويوجد في الصحراء أيضا الفنك الجيد الكثير، ومنها يحمل جلودها إلى جميع البلاد<sup>(٥)</sup>. وبها كذلك البقر

(١) البكري، المغرب، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ج١، ص ١٢٧.

(٣) الاستبصار، ص ٢١٤.

(٤) أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب، نشر وترجمة، G.Ferrand, Journal asiatique, 1925, p, 44, trad Franc, p, 249.

(٥) الاستبصار، ص ٢١٤.

فنك: « بالتأكيد هو نوع من الثعالب الصغيرة جدا في حجم القط، يسكن المناطق الحارة في أفريقية من الحبشة ودارفور حتى شمال افريقية في "Oran" وكان العرب يستعملون فراءه. ولكن اسم فنك "Fanec" كان يطلق أيضا على حيوانات أخرى أو على الأصح على أنواع آخر من الفراء سواء جاءت من الشمال أو من الوسط ويطلق الفرس فنك على ثعلب بلاد التتار الصغير، الذي يطلق عليه علماء الطبيعة اسم "Canis Carsak" وبالتركية الشرقية «قارساق» On lit dans m: والفنك حيوان فروه أحسن الفراء واعد لها قيل هو نوع من جرأ الثعلب التركي وقيل يطلق على جرر ابن أوى في بلاد الترك.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t.second. p.285.

«ويقول الدميري في حياة الحيوان، طبعة التجارية، ج١، ص ٢٢٥، الفنك، كالعسل دويه يؤخذ

الوحنى (١).

وتوجد الحيات فى الصحراء بكثرة وهى طوال القدود غلاظ الأجسام،  
ويصيدها السودان ويطبخونها بالملح والماء والشح - بعد قطع رؤوسها - ويأكلونها  
وهى تعد لديهم من أطيب الطعام (٢).

الثروة المعدنية :

أما أهم معادن الصحراء فهو معدن الملح، تخفر الأرض لاستخراج الملح،  
ويوجد الملح تحت قمامتين أو أقل من سطح الأرض، ويقطع كما تقطع  
الحجارة (٣).

ويوجد معدن ملح على بعد عشرين يوم من سجلماسة، ويسمى هذا  
المعدن تانتال (هل هو تغازى عند ابن بطوطة؟) ويشرف عليه - كما يقول  
البكرى - حصن مبنى بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفة قد شيدت  
من كتل الملح (٤). وقد مر ابن بطوطة بتغازى أثناء رحلته إلى بلاد السودان،  
وتحدث عن بيوتها ومسجدها المشيد من حجارة الملح، وسقفها المبنية من جلود

---

منها القرو. وقال ابن البيطار انه اطيب من جميع الفراء، ويطلب كثيرا من بلاد الصقالبة ويشبه  
ان يكون فى لحمه حلاوة. وهو ابرد من السمور واعدل واسر من السنجاب يصلح لاصحاب  
الاموجة المعتلة.

(وحكمه) الحل لانه من الطيبات. ونقل الامام أبو عمر بن عبد البرقى التمهيد عن أبى يوسف انه قال  
فى الفنك والسنجاب والسمور كل ذلك سبع مثل الثعلب وابن عرس.

(١) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج ٢، ص ١٩٠.

(٢) الأدريسى، صفة المغرب، ص ٣١، الترجمة الفرنسية، ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٧١، الاستبصار، ص ٢١٤.

(٤) نفس المصادر، السابقة.

الجمال<sup>(١)</sup>. ويوجد الملح أيضا في تونك<sup>(٢)</sup>.

والى جانب الملح يوجد بالصحراء أيضا معدن الحديد، ويتركز خام الحديد في بعض الأماكن مثل جبل الحديد (Montagne de Fer) بالقرب من حديقة مركز فورت جورو (في موريتانيا). وقد أشار البكري إلى جبل الحديد (في القرن الخامس الهجري / ١١م) عند كلامه عن الطريق من «وادي درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان»<sup>(٣)</sup>.

كما يوجد بالصحراء النحاس وقد مر الرحالة ابن بطوطة في أثناء رحلته قافلا من مالي إلى فاس (سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٤م)، باير، وقد نزل بأحد الأماكن ويدعى تكدا، وتحدث ابن بطوطة عن معدن النحاس بتكدا قال، «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون إلى البلد فيسبكونه في دورهم ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمئقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمئقال...»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩١، الترجمة الإنجليزية لجب، ص ٣١٨، ويقول القزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٥ - ٢٦ عن نغارة: «حدثني الفقيه علي الجعفاني أنه دخلها فوجد سور المدينة من الملح، وكذلك جميع حيطاتها، وكذلك السواري والسقوف، وكذلك الابواب فانها من صفائح ملحية منطاة بشيء من جلد الحيوان كي لا يتشعب أطرافها، وذكر أن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي سببه وفيها معدن الملح...»  
(٢) تونك: معدن ملح (تحت الأرض)، وبين تونك والاصمكة ست مراحل البكري، المغرب، ص ١٨٣.

(٣) ريمون فيسرون، الصحراء، تكسيري، ترجمة الدكتور جمال الدين الفناصوري، ص ٢٩٢-٢٩٤، البكري، المغرب، ص ١٦٤-١٥٦، الدمشقي، نخبة الدرر، في عجائب البر

والبحر، ص ٢٣٩، وانظر ما سبق، ص ٤٢

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ٢٠٩.

## ب- بلاد السودان

لا نجد في كتب الجغرافيين القدماء من المشاركة - (ابن خردادبة، واليعقوبي وابن الفقيه، والاصطخري، والمسعودي، والمقدسي) - معلومات كافية عن بلاد السودان بشكل عام وعن السودان المغرب بشكل خاص. ويعمل الاصطخري (توفي سنة ٣٤٠ هـ) (وينقل عنه ابن حوقل) عدم اهتمامه ببلاد السودان بسبب أنها بلاد جاهلية غير متحضرة، وفي ذلك يقول: «ولم تذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعرافهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك ...»<sup>(١)</sup>.

هذا بينما الوضع مختلف بالنسبة للنوبة والحبيشة، لاتصال العرب الوثيق خاصة بأرض الحبيشة ومعرفتهم بأحوالهم قبل الإسلام. يبدو ذلك واضحاً من الأدب التاريخي والجغرافي، فتقول رواية الطبري أن الرسول ﷺ أمر المسلمين أن يخرجوا إلى أرض الحبيشة. وكان بالحبيشة ملك صالح يقال له النجاشي

(١) الاصطخري، ممالك الممالك، ص ٤-٥. ويقول نصر ابن حوقل: «ولم اذكر بلدان السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون في هذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا به أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك». ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩-١٠ وكلمة زنج كلمة فارسية تعني مصري، Egyptian، وحبيشى Ethiop، ومور Moor، وأسود Negro.

Steingass, A Comprehensive Persian English dictionary, Second impression, London, 1936, p, 627.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «الحبيشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتفرقة بالسواد، وأن كان اسم الحبيشة مختصاً منهم بمن تجاء مكة واليمن والزنج بمن تجاء بحر الهند ...» ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٤ المقدمة الثالثة في المتبدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من أحوالهم، والترجمة الإنجليزية لروزنتال، ص ١٧١.



لا يظلم أحد بأرضه وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمننا ومتجرا حسنا<sup>(١)</sup>

ولأن النوبة والحبشة كانتا تدينان بالنصرانية، وكانتا تعرفان نظاما وترتيب إدارية لم يعرفها بقية السودان نظرا لاتصالهما بمملكة الروم. وفي ذلك يقول نص الاصطخري: «غير أن بعض السودان المقارنين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة فانهم نصارى يرتسمون بمناهب الروم وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم... ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم<sup>(٢)</sup>».

لكن مع مرور الوقت أخذ الابهام يتبدد بعد أن اتصل العرب ببلاد السودان، وأزدادت المعلومات عن البلاد وخاصة سودان المغرب لدى الجغرافيين المغاربة بسبب العلاقات الوثيقة بين بلادهم وبين بلاد السودان الغربية. ومن ثم نجد معلومات في كتب البكري والأديسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين تمدنا بالمعلومات القيمة عن دوله وثرواته وحضارته.

### التسمية (بلاد السودان) :

بلاد السودان تعنى بلاد السود (أى الجنس الأسود)، والنسبة هنا «بالسمة والجهة»<sup>(٣)</sup> وذلك فى مقابلة بلاد البيضان ويقصد بها شمال أفريقية

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، نشر وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مجموعة ذخائر العرب، طبع دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، جـ ٢، ص ٢٢٨. وانظر أيضا، ابن خلدون، العبر، القسم الثانى من الجزء الثانى، ص ٨.

(٢) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٥، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ ١، ص ١٠  
(٣) ابن خلدون، المقدمة، طعة لادبغرية، ص ٥٨ (المقدمة الثالثة فى المحتل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى الوان البشر والكثير من أحوالهم)، والترجمة الإنجليزية لروزنثال، جـ ١، ص ١٧٣

(المغرب) والصحراء<sup>(١)</sup>.

والسودان صيغة جمع أسود والمقصود الرجال ذوى البشرة السوداء الذين يعرفون أيضا الأساود؟ وعلى نفس الوزن استخدم العرب كلمة البيضان أى الرجال ذوى البشرة البيضاء<sup>(٢)</sup>.

وبلاد السودان اسم أو مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم شبة الصحراوية فى أفريقية شمال نطاق الغابات الاستوائية، والتي انتشر فيها الإسلام، والواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

### حدود السودان :

أما عن حدود بلاد السودان فهي كما يقول الاصطخرى (توفى سنة ٣٤٠هـ) وابن حوقل (توفى سنة ٣٦٧هـ)، من المغرب البحر المحيط (المحيط الأطلنطى) ومن الشرق الصحراء الموصلة بينهما وبين أرض مصر على ظهر الواحات، ومن الشمال الصحراء الممتدة بينها وبين أرض المغرب، وينتهى حد بلاد السودان من الجنوب إلى الصحراء التي يقول الجغرافيين المشاركة أنه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر...<sup>(٣)</sup>.

(١) البكري، المغرب، ص ١٥٩ (يطلق على البربر اسم البيضان).

(٢) فى القاموس، السواد تقيض للبيض سود وساد واسود اسودانا واسود اسويدانا ويحذف فى الشعر اسواد تحرك الألف فعلا يجمع بين ساكتين وهو أسود والجمع سود وسودان، ابن منظور، لسان العرب، ج٤ ص ٢٠٩.

- وجاء فى القاموس الأبيض ضد السواد يكون ذلك فى الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقبله غيره - والبيضان من الناس خلاف السودان.

ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٣١٩.

(٣) الاصطخرى، مسائل الممالك، ص ١٠-١١، ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٩٥-١٦.

- وتقول رواية صاحب كتاب «حدود العالم» عن بلاد السودان: «شرقها وجنوبها مصابغة للأراضي الجنوبية الخالية من السكان وغربها المحيط الغربى، شمالها الصحراء التي تفصل السودان عن المغرب. وهو إقليم واسع ويمتد للغاية ويبلغ حوالى سبعمائة (٧٠٠) فرسخ.

Hudud al Alam the regions of the world A persian geography A.D

وتقول رواية القلقشندي (توفي سنة ٨٢١هـ / ١٤٨١م)، عن بلاد السودان أنه يحدها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل اليمن، ومن الشمال الصحراء الممتدة بين مصر وبرقة وبلاد البربر من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء<sup>(١)</sup>.

ويبدو من نص القلقشندي أن العرب كانوا يعتقدون أن خط الاستواء ينهي بلاد السودان، وأن وراءه لا يوجد عمران، وهو اعتقاد باطل، ويظن أن هذا التوهم مبعثه أن العرب لم يتوغلوا في أرض السودان تجاه الجنوب بل اقتصر نشاطهم شمال نطاق الغابات الاستوائية التي تقع جنوب السودان والتي كانت وسائل النقل والاتصال فيها صعبة جدا إلى وقت قريب بحيث لا تسمح بدخول مؤثر بواسطة الأجانب<sup>(٢)</sup>.

ومفهوم السودان بهذا الشكل عام وشامل، ويعني جنوب الصحراء (الكبرى) - ولكن الكلمة عندما استخدمها الجغرافيون العرب المشاركة لم يكن لها هذا المعنى الشامل فقد سمو الأجزاء الشرقية من السودان بأسمائها السياسية المعروفة.

<sup>١</sup> 372-982 A.D translated and explained by V.Minorsky, Oxford, 1937. "Discourse on Sudan and its towns, p,165.

ويقول الزهري في كتاب الجغرافية عن حد بلاد السودان: «البحر الأعظم في المغرب وحده في الشرق بحر القلزم وساحل الحبشة، وحده في الجنوب خط الاستواء وجبال الذهب المسماة بجبال تونا بلسان النوبة، وحده في الشمال مما يلي المغرب مدينة نول، وفي وسطه مدينة ارمس، وفي شرقه مدينة وارقلان...» الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق.

B.d'etudes orientales t. XXI, année 1938, p. 119.

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ٢٧٢.

(2) Fage, an introduction to the history of West Africa, P, 4.

البيجة :

فالإقليم الموجود في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل هو بلاد البجا<sup>(١)</sup>. وقاعدتهم مدينة سواكن ومن مدن البجا أيضا العلاقي وهي بالقرب من بحر القلزم<sup>(٢)</sup>.

بلاد التوبسة<sup>(٣)</sup> :

تقع في جنوبي مصر مما يلي المغرب على ضفتي النيل، ويحدها ناحية الشمال مصر ومن الشرق أرض البجة وبحر القلزم<sup>(٤)</sup>. وقاعدتهم مدينة دنقلة (دمقلة)<sup>(٥)</sup>.

مملكة الحيشة :

وهي مملكة عظيمة متسعة الأرجاء، وأول بلادهم من الجهة الغربية التكرور<sup>(٦)</sup> مما يلي جهة اليمن، وأولها من ناحية الشمال

(١) السعدي، مروج الذهب، طبعة التجارية، ج٢، ص ١٨، ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٨، ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٢٦، ص ٢٧، الترجمة الفرنسية للنوزي ودغويه، ص ٥١، ص ٥٢ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٤.

(٢) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٣٤، السعدي، مروج الذهب، ج٢، ص ١٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) النوبة اشتقاق محتمل من الكلمة الهيروغليفية "Nb" الذهب الذي يظهر في القبطية Noota.

L.P.Kirvan, A survey of Nubian Origins, Sudan notes and records, Vol XX, 1937, part I, p. 47.

(٤) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ١١، الادريسي، صفة المغرب، ص ١٠، ابن خلدون، المقدمة (الفصل الخاص بالجغرافية)، ص ٥٥، الترجمة الانجليزية لروزنتال، ج١، ص ١٢١، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٥.

(٥) الادريسي، صفة المغرب، ص ١٠، ص ١٤، الممري، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديموسين، ص ٤٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٥.

(٦) ومن المفهوم جيدا أن هذا ليس هو التكرور السوداني. يقترح M.C أن يكون التكرور منطقة في Metemma ويحدها في المنطقة المحيطة للممالك في جزيرة اللبان، ديموسين، الترجمة الفرنسية لمسالك الابصار للممري، هامش ٢، ص ٢٢.

الشرقي بحر الهند واليمن<sup>(١)</sup>.

بلاد الزنج :

وهي أطول أراضي السودان، وهي لاتصل بمملكة غير الحبشة<sup>(٢)</sup>، وهي على بحر الهند<sup>(٣)</sup>، في مواجهة اليمن وفارس وكرمان إلى أن تحاذي بعض أرض الهند<sup>(٤)</sup>.

السودان الأوسط والغربي :

بعد أن تحددت مسميات الأقاليم الشرقية من السودان بمفهومه العام من البجة إلى النوبة إلى الزنج إلى الحبشة أصبحت حدود السودان الحقيقي عند الكتاب ٤٤ ميل إلى الحبشة غربا إلى سواحل البحر المحيط، يفهم ذلك من نص القزويني (توفي سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)، حيث يقول عن بلاد السودان «هي بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط...»<sup>(٥)</sup>.

وابتداء من القرن الخامس الهجري (١١ م)، ميز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة من هذا السودان فاطلقوا عليها اسم (سودان الغرب - المغرب). يقول نص البيروني (توفي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م). والبجة على سوادهم لا يقال لأرضهم أرض السودان، وذلك أن هذا الاسم يقع في العرف على

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٠٣.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١١، ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ١٦.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ١٩٨، (ينقل عن ابن سعيد).

(٤) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١١، ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ١٦.

(٥) القزويني آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت ١٩٦٠، ص ٢٤.

أرض السودان بالمغرب المحلوب منهم الخدم<sup>(١)</sup>.

ومما يجدر الإشارة إليه أن بلاد السودان في عرف الجغرافيين المغاربة هي بلاد السودان الغربي.

هكذا كان مفهوم السودان عام تم تحددت الأجزاء الشرقية منه باسماء مميزة مثل الحبشة والزنج وبذلك أصبح السودان يمثل الجناح الغربي من دولة الإسلام فأبن حوقل يقول : «..... فأما مملكة الإسلام فان شرقيها أرض الهند وبحر فارس، وغربيها مملكة السودان السكان على البحر المحيط المتصلين ببرارى أودغست وصحاريها تجاه أوليل<sup>(٢)</sup>. وبناء على ذلك فاذا كان السودان يمثل الجناح الغربي لدولة الإسلام فان الأقاليم البعيدة منه سميت «بسودان الغرب» لأنها تسامت المغرب ابتداء من فزان شرقا إلى البحر المحيط غربا<sup>(٣)</sup>.

ففى مقابل برقة وأفريقية جنوبا إلى سمت المغرب الأوسط وجدت بلاد الكانم (والبرنو) التى تعادل نيجيريا الشمالية الحالية<sup>(٤)</sup>.

وقد ورد اسم كانم لأول مرة فى رواية اليعقوبى (توفى سنة ٣٨٤هـ)، عند ذكره للسودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب، فانهم قطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك. «فأول ممالكهم الزغاوة وهم النازلون بالموضع الذى

(١) البيرونى، الجماهر فى معرفة الجواهر، الطبعة الأولى، مطبعة جمعية دائرة المعارف الثمانية، حيدر اباد الدكن سنة ١٣٥٥، ص ١٦٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠.

(٣) ابن الفناء، تقويم البلدان، ج١، ص ١٤٩، عندما يتكلم عن زويلة يقول انها «من أطراف سودان الغرب، قاعدة بلاد فزان».

(٤) العمري، مسالك الأبيصار، الترجمة الفرنسية لديبومبين، ص ٤٥، القلقشندى صبيح الاعشى، ج٥، ص ٢٨٠، يقول عن الكانم «والكانم بكاف بعدها ألف ثم تون مكسورة وميم فى الاخرة». قال فى «مسالك الأبيصار» وبلادهم بين الفريقين وبرقة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط.

يقال له كاتم». وبدو من نص اليعقوبي أن قبيلة زغاوة - التي كانت تجوب الصحراء بين موطن أهل اللثام والنيل - هي التي أسست دولة كاتم<sup>(١)</sup>.

أما البرنو وهي منطقة تقع غربي تشاد، فأقدم من ذكر اسمها العمري (يكتب في سنة ٧٣٨هـ)، في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف». هذا ويلاحظ أن العمري لم يذكر مملكة البرنو في موسوعته الكبرى «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»<sup>(٢)</sup>.

وغربي الكاتم في مقابل المغرب الأقصى تقع بلاد كوكوا ومالي وغانة والتكرور ويصف ابن بطوطة في رحلته (منتصف القرن الثامن الهجري/ ١٤م)، إلى بلاد السودان، ذلك الطريق الذي سلكه من أيوااتن (ولات - بير) إلى مدينة مالي، حاضرة ملك السودان، وصفا دقيقا.

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت، ج١، ص ١٩٢.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، طبع مصر، ١٣١٢، ص ٢٨، يقول عن صاحب البرنو: «بلاده تحد بلاد ملك التكرور (مالي)، في الشرق، ثم يكون حدها في الشمال بلاد صاحب افريقية ومن الجنوب الهمج».

هذا وقد تعرض العمري لمملكة البرنو أيضا في «التعريف» عند كلامه عن (ملك التكرور) قال: «وهو صاحب مالي ... وحد مملكته في الغرب البحر المحيط، وفي الشرق بلاد البرنو وفي الشمال جبال البربر وفي الجنوب الهمج».

هذا وقد نقل عمر بن ادريس قاعدة بلاده إلى برنو ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم مملكة الكاتم معروفا بها.

وفي غرب تشاد لازالوا يسمون الكانوري Kanuri باسم برنو، ويطلقون شك فان تكون from برنو هو لاشكال برن Baran وبرم Baram وهي جمع بر وتعني رجل ذكر Male، ومحارب Warrior في بعض اللغات الصحراوية. Palmer, Bornu Sahara and Soudan. London, 1936, p.6.

## الطريق من أيوالاين إلى مالي :

والمسافة بين أيوالاين ومالي (نيني)، يقطعها المسافر المجتهد في أربعة وعشرين يوما، وتلك الجادة يوجد بها الكثير من الأشجار (وذلك يسميها ابن بطوطة بالغابة). وهي أشجار عظيمة العمر وضخمة بحيث نستطيع القافلة بأكملها أن تستظل بظل أحداها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، مع ذلك فالظل الذي يلقيه جسمها يكفي بحيث يستظل به إنسان. ورغم أن المياه غير موجودة في هذه المواضع، إلا أنها كانت توجد في أماكن ما كان يظن أن تكون فيها، من ذلك ما يورده ابن بطوطة من أن بعض تلك الأشجار أستأنس داخلها وتجمع فيه ماء المطر، وأصبحت كثير، يشرب الناس من الماء الذي يوجد في داخلها<sup>(١)</sup>، وهكذا فهي تمكن الجماعات من الاستقرار في أماكن لا يكون بها أبار. وفي أشجار أخرى يوجد نحل وعسل نحل، يجمعه الناس.

وهناك نوع آخر من الأشجار يشبه الأجاص والتفاح والخوخ

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩٥، الترجمة الإنجليزية لجب، ص ٢٢١ - ٢٢٢ وشجرة الـ Baobab، التي يصل جذعها بسرعة إلى حجم كبير جدا، غالبا ما يتم تجفيفها صناعيا لتخزين المياه. وهكذا فهي تمكن الجماعات من الاستقرار في أماكن لا يكون بها أبار. وقد ادخلت هذه الأشجار للملك الفرض إلى السودان الشرقي (كردفان) من غرب افريقية في القرن الثامن عشر، ولكن وفقا لوصف ابن بطوطة يبدو أن عملية التجفيف الصناعية لم تكن قد مورست بعد هناك. الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٨، هامش ٧.

- وهناك رواية يوردها الفريزي، صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧، تذكر نفس الأشجار ولكن في الطريق من سجلماسة إلى غانة؟ تقول: ..... وحكى الفقيه أبو الربيع المتتاني أن في طريق غانة من سجلماسة إليها أشجارا عظيمة مجوفة، يجتمع في تجاويفها مياه الأمطار فتبقى كالحياض، والمطر في الشتاء بها كثير جدا، وتبقى المياه في تجاويف تلك الأشجار إلى زمان الصيف فالتسابة يشربونها في مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر اليهم المرور إليها.



والمشمش ، وفيها أيضا أشجار تخرج ثمرها يشبه الفقسوس . ويستخرج من هذه الأرض حب كالفول<sup>(١)</sup> وعلى بعد عشرة أيام من أيواالتن توجد قرية زاغرى<sup>(٢)</sup> ، ويستمر الطريق من زاغرى إلى بلدة كارسخو<sup>(٣)</sup> وهي تقع على النهر الأعظم (النيجر) الذي ربط ابن بطوطة بينه وبين النيل<sup>(٤)</sup> . وقبل الوصول إلى مالي (العاصمة) ، يوجد نهر صنصرة وهو على بعد عشرة أميال<sup>(٥)</sup> منها ويجاز في المعدية إلى مالي ، وهي على مسيرة أربعة عشرة يوما من زاغرى .

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، طبعة التجارية ، ج٢ ، ص ١٩٥ - Voyages d'Ibn Batoutah, tex- te arabe accompagné d'une traduction par G. Defremery et le D R B. Sangiunetti, Paris, 1949, tome IV, p, 390.

(٢) ابن بطوطة ، ج٢ ، ص ١٩٦ ، الترجمة الإنجليزية لجيب ، ص ٣٢٢ زاغرى ، قرنها دلافوس Delafosse ، ديورا Dioura ، وقد أوضح لنا ليهير Lippert أنها نفس القرية التي سماها بارث Barth تورسنغه أو سنغا ture- ssangha جنوب شرق باسيكونو أو Bacikounou - الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٨ ، هامش ٩ .

(٣) كارسخو اعتبر دلافوس Delafosse أنها هي Kara- Sakho أي سوق كارا اقرية من وتواجه ناحية كوتجوكورو Kongokuru الحالية ، على الضفة الشمالية من النيجر على مسافة شمال كارا Kara ، جب الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٨ ، هامش ١٢ .

(٤) ربط ابن بطوطة بين النيجر والنيل . (ربما عن طريق بحر الشزال) فإن بطوطة على الأقل كان يمتنع أقل وجهته النظر خطأ التي كان معتقدا فيها قبل اكتشافات منجو بارك Mungo Park والادريسي ، يتبعه ليون الافريقي وكثير من الجغرافيين الاوروبيين الاوائل (القدماء) تخيلوا أن النيجر يتساب غربا (ناحية الغرب) وقرنوه ينهر السنغال ، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٩ ، هامش ١٧ .

(٥) ابن بطوطة ، ج٢ ، ص ١٩٧ ، الترجمة الإنجليزية ، ص ٣٢٣ . اسم صنصرة الذي أطلقه ابن بطوطة على مجرى يقع على بعد ١٠ أميال شمال مالي ، وجد بارث Barth . ان الاسم لا يزال يذلق على الرافت الصغير الذي يتصل بالنيجر تحت نيامينا Niamina . جب ، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة ، ص ٣٨٠ ، هامش ١٩ .

## الطريق من مالي إلى ميمة :

ومن مالي (العاصمة) يصف الطريق إلى ميمة. فمن مالي يصل إلى خليج كبير يخرج من النيل (النيجر)، لا يعبر إلا في المراكب، وذلك المكان يحتلج بالبعوض، ولا يستطيع أحد أن يمر بهذا الموضع إلا بالليل. ثم قرية قرى منسا<sup>(١)</sup>، ويستمر الطريق من قرى منسا إلى ميمة<sup>(٢)</sup>، في منطقة يتوفر فيها الماء في آبار خارجها.

يلي ذلك مدينة تبتكتو وبينها وبين النيل (النيجر) أربعة أميال<sup>(٣)</sup>، ومنها أبحر ابن بطوطة في النيل (النيجر) نزولا من تبتكت إلى كوكو التي يصفها بقوله : «وهي مدينة على النيل من أحسن مدن السودان، وأكبرها وأخصبها فيها الأرز الكثير، واللبن والدجاج، والسماك، وبها الفقوس العناني الذي لانظير له .....»<sup>(٤)</sup>. ثم ينحدر النيل (النيجر)، من كوكو إلى «مولي»<sup>(٥)</sup> وهي

(١) ابن بطوطة الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ٢٠٦، الترجمة الإنجليزية لجيب، ص ٢٢٢. قرى منسا حدد دلافوس Delafosse موضعها قريبا من قرى كوكري Kokri ومسمن Massamane الحاليين، شمال شرق سنندنج Sansanding وليس بعيدا من المكان السابق الذي حظ فيه ابن بطوطة في كارمغو. جيب، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة، ص ٢٨١، هامش ٢٩.

(٢) يبدو أن ميمة كانت إحدى المدن الرئيسية في المنطقة التي ذكرها ابن بطوطة أعلاه تحت اسم زاغة. وفي المصور اللاحقة فإن هذا الاسم قد اطلق على المنطقة اعلى البحيرات (وربما كانت تحتوي البحيرات أيضا، وطبقا لبارث Barth فإن موضع ميمة لا يزال موجودا، رغم أنه أصبح قفرا، على بعد أميال قليلة غرب Lere جيب، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة، ص ٢٨١، هامش ٣٠.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ٢٠٦، الترجمة الإنجليزية، ص ٢٢٢.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة ج٢، ص ٢٠٧، الترجمة الإنجليزية لجيب، ص ٢٢٤.

(٥) ومولي على ما يبدو وهي الاقليم الذي أصبح اسمه فيما بعد موري Muri على الضفة الشمالية للنيجر قرب Niamey وكانت Qumbri تشغل الضفة المقابلة (وربما كانت Qumburni التي تكلم عنها ابن بطوطة). جيب، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة، ص ٢٧٩، هامش ١٤.

مدينة من بلاد الليميين<sup>(١)</sup> وهي آخر عمل في دولة مالي<sup>(٢)</sup>.

نيل السودان :

نما تقدم رأينا أن ابن بطوطة يسمي نهر النيجر في قلب السودان الغربي بالنيل وكان النيل هو نهر السودان، وهو مفهوم كلمة النيجر باللاتينية. والحقيقة أن النيل يعتبر العمود الفقري لوحدة البلاد بالنسبة لتصور الجغرافيين العرب. فبلاد السودان - بالرغم من التسميات والتقسيمات المختلفة التي ذكرت فيما سبق - بلاد واحدة والنيل هو عامل الربط بينها جميعاً من الشرق إلى الغرب.

ولابأس من الإشارة إلى أن بعض الجغرافيين المسلمين قالوا بوجود نيل شرقي ونيل غربي. ويقول الأدرسي (الذي ينقله ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخاص بالجغرافيا)، أن النيل يخرج من جبل عظيم خلف خط الاستواء يسمى جبل القمر، وهذا الجبل يخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة وبعضها في أخرى، وتخرج أنهار من البحيرتين، فتصب كلها في بحيرة واحدة (يسمونها ابن سعيد الذي ينقله أبو الفدا) بحيرة كوري<sup>(٣)</sup>، ويخرج من هذه البحيرة نهران، يذهب أحدهما إلى ناحية

---

(١) الليميون عند ابن بطوطة، (اعتبرهم دلافوس Marquart, Delafosse سكان منطقة إقليم) كيب. ولكن هناك بالرغم من ذلك ما يمكن أن يرجع وجهة نظر Cooley من أن الليميين مرادفة للمسلم الذين ذكرهم الجغرافيون العرب الآخرون. جب، الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٩، هامش ١٥.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج ٢، ص ١٩٦، الترجمة الإنجليزية لجيب، ص ٢٢٢.

(٣) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٥١، ص ١٥٤-١٦٣ يقول نقلاً عن ابن سعيد: البحيرة (أي بحيرة كوري)، (نشاد) : وسط أفريقية، هي التي يخرج منها نيل مصر ومصبه البحر الشامس بحر الروم (البحر المتوسط). ونيل مقدشو ومصبه في البحر الهندي (المحيط الهندي)، ونيل غانة ومصبه في البحر المحيط.

الشمال، ويمر ببلاد النوبة.. ويسمى نيل مصر، ويذهب الآخر ناحية المغرب إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان (نيل السودان)<sup>(١)</sup> وهو يشبه النيل في ريادته ونقصانه وفلاحة أراضيه<sup>(٢)</sup>، وربما كان هذا التشابه هو السبب في تسميته بالنيل

وهكذا لم يفرق الكتاب العرب بين نهري النيجر والسنغال بل أطلقوا عليهما معا اسم نيل السودان. ولكن الحسن الوزان يعتبر المؤلف الوحيد الذي ذكر نهر النيجر في كتابه «وصف أفريقيا»، وفي ذلك يقول «في وسط أرض السود يمر نهر النيجر، الذي يبدأ من صحراء تسمى سو Seu حيث يخرج من بحيرة كبيرة، وطبقا لما يؤكد الجغرافيون عندنا فإن النيجر هو فرع من النيل حيث يختفي تحت الأرض ثم يخرج منها ثانية ليكون البحيرة»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٤٧-٤٨، الترجمة الإنجليزية لروزنتال ص ١٠١. أما العمري في «مسالك الأبيصار» فيقول عن النيل «... وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي (وهو من أقدم بحالي خمسا وثلاثين سنة، مضطربا في بلاده، مجتمعا بأهلها، قال، «المستفيض ببلاد السودان أن النيل في أصله ينحدر من جبال سود تيان على بعد كان عليها الغمام. ثم يتفرق نهري: يصب أحدهما في البحر المحيط إلى جهة بحر القلعة الجنوبي، والآخر يصل إلى مصر حتى يصب في البحر الشمالي».

قال الشيخ سعيد الدكالي: «ولقد توغلت في أسفاري في الجوب مع النيل فرأيت متفرقا على سبعة أنهر، تدخل في صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا. كلا الرئتين في بلاد السودان. ولم أراه لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها، إذ لم يكن بنا حاجة إلى الدخول إليها».

- العمري، مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار، نشر وتحقيق أحمد زكي، طبعة دار الكتب، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م، ج ١، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١١٠.

(٣) ليون الأفريقي، «وصف أفريقية» بالفرنسية، ج ١، ص ٥ يقول النص

"Au milieu : la terre des Noirs passe le fleuve Niger qui commencé dans un desert appelé seu. et ou il sort d'un grand lac. d'après ce qu' affirment nos geographes: le Niger est une branche du Nil qui se perd sous la terre et en ressort pour former ce lac.

وحسب مطلع القرن التاسع عشر كانت أفريقية كلها غير معروفة الا قليلا حتى لقد انشئت سنة ٧٨٨ في إنجلترا (جمعية تشجيع الكشف داخل أفريقية) وقد اتجهت العناية أولا إلى حل مشكلة

البحر، وقد منجز ببارك عن طريق السنغال وغامبيا للوصول إلى باماكو، وانفق عدة أشهر تعلم خلالها اللانديجو لغة أهل البلاد. وعقب ذلك انضم إلى مجموعة من تجار الرقيق وسار معهم في إقليم غامبيا على طول مجرى النهر إلى أن وصل إلى بيسانيا Pismania، وهي مركز تجاري كان يقع على غامبيا على بعد ٢٠٠ ميل من النهر، ومنها استمر في طريقه شرقاً، بعد أن تغلب على كثير من الصعوبات وفي ٢٠ يوليو ١٧٩٦، وصل إلى مدينة سيجو Segou عاصمة البمبر، حيث رأى النهر، الذي يصفه بهذه الكلمات: « رأيت بسرور لانتهالي الهدف الأساسي من بعثتي، يتمثل أمامي في عظيمة النهر، الذي يتلألأ مع شمس الصباح، والذي يبلغ عرضه مثل عرض نهر التيمز Thames عند وست منستر West munster. والذي يتدفق بيناه ناحية الشرق... أن تدفق نهر النهر ناحية الشرق... لم ير دهشتي حيث كنت متردداً كثيراً بصدده منذ تركت أوروبا، ذلك رغم أنني كنت أفضل دائماً الاعتقاد بأنه يجري في الاتجاه المضاد، ولذلك فقد كنت اعدد الاستعلام عن هذا النهر، خلال تقديمي، وقد تلقيت من سودان Negroes من أم مختلفة، تأكيداً واضحاً أن المسار العام لهذا النهر ناحية شروق الشمس، الأمر الذي لم يترك في ذهني أي شك... ومن سيجو Segou توجه ببارك إلى Silla حيث انتهى رحلته هناك. وقرر العودة، ويصل إلى قرية كماليا Kanalia، في الحوض الأعلى لنهر السنغال... ومن Kamalia انضم ببارك إلى قافلة من تجار الرقيق واتخذ طريقه إلى ساحل غرب أفريقيا ليصل من هناك إلى إنجلترا، وقد تولى عند عودته بفتور شديد - فشر جييس، ونال James Rennel كتابا بعنوان رحلات Travels ناقش فيه داته من المستطاع التكهن أن نهر النهر أو كما يسمى نهر جوليا Joliba يتجه إلى بحيرات في الجزء الشرقي من أفريقيا وأن هذه البحيرات تقع في غانة وبنجالة، ولهذا قرر ببارك أن يذهب إلى منطقة وبنجالة التي تبعد ٤٠٠ ميل عن سيجو لرؤية هذه البحيرات، ورغم أنه كان يعتقد أن النهر ماضى إلى رافد من نهر الكنفو، وأنه يتفرع من النهر الأخير عند معبده. وعلى أية حال ففي ٤ مايو ١٨٠٥ قام ببارك برحلته الثانية ورافقه حوالي ٤٠ شخصاً بذراً رحلتهم من بيسانيا Pisanian وشرقوا في اتجاه النيجر حيث كان يأمل ببارك في الوصول إليه قبل بدء الفصل المطير، غير أن أمه لم يتحقق، ويصل إلى بامباكو Bambakoo في ١٩ أغسطس بعد أن بقي من رجاله أحياء إحدى عشر فقط... ومن سيجو وأصل ببارك سيره في نهر النيجر إلى أن غرق هو ورجاله عند جنادل بيسا، بعد أن قام بتور

كبير في كشفه نهر النيجر. وبعد موت ببارك تم... البعثات الكشفية لحل مشكلة النيجر. ففي عام ١٨١٦. أرسلت رحلة كشفية ذات هدفين للوصول إلى النيجر، اسدهما أبحرت عن طريق الكنفو Congo تحت قيادة كابتن Tuckey والأخرى تقدمت شرقاً من ساحل غرب أفريقيا متخذة طريقاً برياً وتحت

خيرات البلاد :

غلات معدنية :

التسبير :

كان التبر أهم غلة عند السودان ، وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم<sup>(١)</sup> (ولكن في القرن التاسع عشر كانت معادن الذهب تقترب من النفاذ وكان الانتاج ذو قيمة قليلة)<sup>(٢)</sup> . ونسجت الأساطير حول الذهب ، وفي ذلك يقول قيادة كابتين Campbell هذه الرحلة لم تنجح ولم يمد أحد من رجالها ، هذا ويجب أن نلاحظ أنه رغم أن خط سير الرحلة السابقة قد وضع على أساس افتراض أن نهر النيجر يصب في نهر الكونغو إلا أنه في عام ١٨٠٣ قد نشر أحد العلماء الألمان ويدعى ريتشارد في مجلة "Ephémérides" رأيه وهو يتضمن أن نهر النيجر يصب في خليج غانة وأن (Geographiques) الأنهار الموجودة على هذا الساحل والمعروفة باسم Oil rivers ما هي إلا فروع لهذا النهر.

- وفي عام ١٨٢١ قام كابتين كلايرون Clapperton ودينهام Denham واودنسي Audney برحلة من طرابلس واتجهوا فيها إلى السودان مع قافلة من التجار. ومن هناك رحل كلايرون عام ١٨٢٤ إلى بحيرة تشاد حيث أثبت أن نهر النيجر لا يصب فيها، كما قام بمدد من الرحلات في منطقة سكت Sokoto.

- وعقب ذلك حاول كلايرون سنة ١٨٢٥ أن يصل إلى نهر النيجر عن طريق ساحل غانة وفي هذه المحاولة نجح في الوصول إلى بوسا Busa واستطاع أحد رفقاء كلايرون وهو ريتشارد لاندر Richard Lander أن يهبط في النيجر الأدنى حتى بلغ خليج غانة سنة ١٨٢٠ ، وبذلك تأكد لديهم أن النيجر لا يصب في تشاد أو النيل.

H.J. Wood, exploration and discovery, London, 1951, pp, 131-132-133-134-135-136, Bovill the golden trade of the Moors, Chapter 20, p, 208.

ريجون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة الدكتور جمال الدين الفناصوري، ص ١٢١.

(١) الأديسي، سفرة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩ «والتبر هو الفتات من الذهب والفضة قبل أن يصاغها، فإذا صيغاً فهما ذهباً وفضة، والتبر ما كان من الذهب غير مضروب فإذا ضرب دنابر فهو عين». ابن منظور، لسان العرب، طعة بيروت، ج ٤، ص ٨٨

(2) Bovill, The golden trade, p, 201.

ابن الفقيه عن بلاد غانة أنه كان «ينبت فيها الذهب بانا في الرمل كما ينبت  
الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس»<sup>(١)</sup>. هذا بينما يقول نص البيروني : «وقد  
يضاف إلى ماقلنا من أساطير خرفى نبت الذهب فى تلك البرارى كالخرز وأنه  
لا يعثر عليه إلا عند طلوع الشمس بلمعان شعاعها عليه»<sup>(٢)</sup>.

وفى القرن الثامن الهجرى، نجد العمري (يكتب فى سنة ٧٣٨هـ)، فى  
كتابه مسالك الأبصار يذكر نفس الرواية عن نبت الذهب، ولكنه يضيف أن  
هذا النوع من الذهب يوجد فى وقت الربيع عقب هطول الأمطار حيث ينبت  
فى مواقعها، وله ورق شبيه بالنجيل أصوله التبر<sup>(٣)</sup>.

ورغم عدم صحة هذه الرواية، فهى تعبر عن كثرة الذهب فى بلاد غانة  
التي أطلق عليها الكتاب اسم «أرض الذهب» أو «معدن الذهب».

وتطورت الرواية عن النباتات التي تمنح الذهب فى ألف ليلة وليلة، وفى  
ذلك تقوم الرواية وصل Boluqqiya إلى جزيرة صغيرة يبدو أن مهلها وجبلها  
مكونان من البلور. ورأى فيها العروق التي يصنع منها الذهب، وأشجار غريبة لم  
ير مثلها أبدا فى رحلاته، وكانت لزهورها لون الذهب. ورسا Boluqqia فى  
هذه الجزيرة، وتنزه فيها حتى المساء، وعندما هبط الظلام، أخذت زهور الجزيرة  
تلمع مثل النجوم. وسحر Boluqqiya بما يراه على هذه الجزيرة وقال: «أن

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبع ليدن سنة ١٣٠٢، ص ٨٧، باقوت، معجم البلدان،

ج ١، ص ٨١٢، الفزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت سنة ١٩٦٠، ص ١٨.

(٢) البيروني، كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، طبعة حيدرآباد الدكن ١٣٥٥هـ، ص ٢٤٠.

(٣) العمري، مسالك الأبحار، بالترجمة الفرنسية، لديبومجين ص ٧٠ - ٧١، القلقشندي، صبح

الأعشى، ج ٥، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

زهور هذه الجزيرة هي تلك التي عندما تجففها الشمس وتسقط على الأرض وتحملها الريح تتجزأ تحت الحجارة، وتصبح أكسيرا، وعند ذلك يجمعونها ويصنعون منها الذهب<sup>(١)</sup>. أما الرواية السودانية - التي أمدنا بها السحرة كما يقول دلافوس Delafosse فهي تتكلم عن أمطار من الذهب جعلها تسقط على وكند ثعبان كمب المقدس<sup>(٢)</sup>. وتوجد معادن التبر (في غانة)، حول مدينة كيوغة، وهذه المدينة كما يقول البكري هي أكثر بلاد السودان ذهباً<sup>(٣)</sup>. ويوجد أيضا في مدينة غياروا<sup>(٤)</sup>. وبلاد القرويين أيضا معادن الذهب، تراه أحمر، ويستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة<sup>(٥)</sup>، حيث يحضر في معادن الذهب الحفرة عمق قامة أو مايقاربها بها فيوجد الذهب في جنباتها، ربما يوجد مجتمعا في مثل تلك الحفائر<sup>(٦)</sup>.

ويوجد التبر في ونقارة، وهي كما وصفها الأدرسي، جزيرة طولها ٣٠٠ ميل وغرضها ١٥٠ ميل يحيط بها النيل من كل جهة (وكان نيل الأدرسي يسير من الشرق إلى الغرب وكان يشبه بالتأكيد نهر السنغال)<sup>(٧)</sup>، وفي شهر أغسطس (أغسطس)، عندما ترتفع حرارة الشمس، ويفيض النيل، يغطي هذه الجزيرة لمدة معينة، ثم يأخذ النيل في الانحسار والجزر، والظاهر أنه عندما تقتر

(١) المصري، مسالك الأبحار، الترجمة الفرنسية لديومبين.

Additions, p, 253, p, 71, note 2.

(2) Delafosse, Les Negres, 1927, p, 69.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٧٩، الاستبصار، ص ٢٢٢.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٧٦، الاستبصار، ص ٢٢١.

(٥) الاستبصار، ص ٢١٩.

(٦) المصري، مسالك الأبحار، المخطوط، ص ١١٠، المقتلشدي، صحیح الاعشى ج ٥، ص ٢٨٩ -

٢٩٠.

(7) Bovill, the golden trade of the Moors, p, 194.



قوة الماء الحامل للذهب باقترابه من المستواة فيعجز عن حمله ويحليه للرسوب كما يفهم من رواية البيروني<sup>(١)</sup>، ويأتى الناس من بلاد السودان إلى تلك الجزيرة يسحبون عن التبر الذى تركته المياه خلفها، ويقون هناك حتى يرتفع الماء من جديد<sup>(٢)</sup>.

ويرجح المحدثون أن تكون ونجارة الأدريسى هى حقول الذهب فى بامبوك وبيط، وحقول الذهب هذه لاتقع على جزيرة ولكن البلاد التى توجد فيها تقطعها الأنهار من جهات كثيرة، فى الشمال السنغال وفى الغرب الفلحة وفى الشرق النيجر، وفى الجنوب التينكسو Tinkisso حتى أنها تصبح قرية جدا من كونها جزيرة. ولايزال الذهب يستخرج بانتظام بين ارتفاع وانخفاض الفيضانات من يناير حتى مايه تماما كما وصف الأدريسى وأخيرا فان جزءا من البلاد لايزال يطلق عليه جنجارة Gangara جو نجارة Gwangara، جنجارة Gbangara أو جنجارم Gangaram<sup>(٣)</sup>.

(١) البيروني، كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن سنة ١٢٥٥، ص ٢٢٦ (فى ذكر اعيار الذهب ومعادنه).

(٢) الأدريسى، صفة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩.

ويذكر المسمى فى كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٧، رواية عن الذهب شبيهة بما ورد فى الأدريسى، يقول: «ويزال الذهب بها (أى بمالى)، يبدأ فى شهر أغسطس (أغسطس) وذلك عند انحسار النيل فى الارتفاع والزيادة فإذا انحط النيل تتبع حيث ركب عليه من الأرض فيؤخذ منه ما هو نبات يشبه النجيل وليس به فمن قراميه الذهب ومنه ما يوجد كالحصى والأول افضل واخلص وأقوم فى العبارة».

(2) Bovill, the golden trade of the Moors, p, 194.

وضع ليون الأفريقى ونجارة فى الهوسا. كتب جو نجارة Guangara تصاقب من أعلى من ناحية الجنوب الشرقى زنفارة Zanfara وهى مأهولة بالسكان، ويوجد ملك يحكمها يمتلك حامية من سبعة آلاف من الرماة وخمسة آلاف من القوسان، وهو يحصل على دخل كبير من التجار ومن الضرائب التجارية.

وينطبق أيضا على يامبوك - بيط Bambuk-Bure ما سرده لنا الكتاب المتقدمين عن التجارة. فالسنغال يملأ جميع الاشتراطات التي توفرت في النهر الذي كان مسرحا للتجارة الصامتة Silent trading وكان النساء يحصلن على الذهب من حفر لا يمكن أن تكون إلا مكامن في الأرض قال ياقوت (توفى

- وقد يعني هنا أن وتجارة كانت جنوب شرق زنفارة أو أن زنفارة كانت جنوب شرق وتجارة. وهنا لعدم وضوح قد حير الكارتوجرافيين الذين قرأوه بعضا منهم بالطريقة الأولى واليتمض الآخر بالطريقة الثانية. ولكن الجميع حتى نهاية القرن الثامن عشر وضعوا وتجارة في الهوسا، على بعد مئات من الأميال شرق المكان الذي تسمى إليه، وهكذا فانهم عمقوا جوانب النمسوس الذي كان يحيط بشخصية ونقارة.

- ولكن ليون كان لديه أكثر من ذلك ليقوله عن ونقارة كتب يقول: كان سكانها أغنياء جدا وكانت لهم تجارة مستمرة مع البلاد المتاخمة، وكانت تقع إلى جنوبهم منطقة وفيرة بالذهب حتى أن تجار جو تجارة Guangara كانوا غالبا يرتحلون إلى هذه المنطقة الوفيرة بالذهب، ونظرا لأن الطرق كانت قاسية وصعبة حتى أن جمالهم كانت لا تستطيع أن تخرق هذه الطرق لانهم كانوا يحملون سلمهم على ظهور العبيد. وتأكيد ليوعلى غنى وتجارته Wangara يدل على أنه كان يعتقد انه يصف وتجارة الاديسي؛ ولكن كان هناك فرقا. بينما كانت الأخيرة (أي ونقارة الاديسي) منتجة للذهب فان وتجارة ليوكات تحصل على ذهبها من الجنوب، (كما قال آخرون) بلاد الذهب.

- ونظرا لان ليون قد جاء من القرب، حيث رأى جزءا كبيرا من تجارة الذهب، فان وضعه لو تجارة حيث وضعها مدعش حقا. ومن المحتمل أن الخطأ قد نشأ من ازدواج معنى اسم وتجارة، ومن اطلاقها على شعب وعلى بلاد مسميا. وفي الهوسا فقد كانت هناك جاليات من المتدجج Mandingoes كانوا يعرفون محليا باسم وتجارة أو وتجارة Wangarawa وفي القرن التاسع عشر طبقا لبارث Barth فانهم كانوا التجار الاساسيين في كتنسينا Katsina وهي ليست بعيدة عن زنفارة، وربما كانوا ناسا مهمين في عصر ليوع، وعندما كان ليوفى زنفارة ربما سمع عن جالية من الوتجارة أو المادنجو في مكان ما إلى الجنوب الشرقي كانوا يتاجرون في الذهب الذي يوجد في هذه الانحاء، خصوصا في Gwari وربما قاده هذا إلى الاعتقاد انه كان مجاور الوتجارة الاديسي Bovill, the Golden trade of the Moors chapter 19. (Wangara) pp, 198-200.

ليون الافريقي بوصف افريقية، بالفرنسية، ج ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.

سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)، أن أصحاب المعادن يسكنون فيها<sup>(١)</sup>.

غلات زراعية :

الأبنوس :

ويوجد بغانة كما يقول البكري الأبنوس الجيد المجزع، وهو أكثر نبات  
أرضهم ومنه يحتطبون<sup>(٢)</sup>.

ويذكر محمود كعت صاحب «تاريخ الفتاش» أنه يوجد في أرض مملكة  
مل «شجرة كور التي لا توجد مثلها في الأرضين من التكرور إلا أرض برك<sup>(٣)</sup>،  
ووجدت كذلك في أرض سنفي شجرة كنكو ويستخدم خشبها في البناء<sup>(٤)</sup>.

والى جانب ذلك وجد أيضا ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة  
تسمى تورزي (توريري عند صاحب الاستبصار)، وهي تثبت في الرمال، ولها  
ثمر كبير متفخ، داخله صوف أبيض، تصنع منه الثياب والأكسية، ولا تؤثر النار

(١) Bovill, op, cit, pp, 194 - 195. باقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٨٢١.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٧٧، «والأبنوس شجر كقطعة حجر على رأسه نبت أخضر وخشبه  
صلب جدا لا يقف على الماء بل يرسب وهو أشبه خشب بالحجر. قال الشيخ الرئيس إذا وضعت  
على الحجر فاحت منه رائحة طيبة ويبطل الفشاوة والبياض إذا حل بماء واكتحل به وإذا احترقت  
نشارته على مطبق لم غسلت واكتحل به ينفع من الرمذ اليابس وجرب العين وقيل غيره ينفع من  
حرق النار ويحل نفع البطن والله الموفق. القزويني، عجائب المخلوقات والحجرات والغرائب  
الموجودات، هامش على كتاب حياة الحيوان الكبير للدميري، طبعة سنة ١٩٦٢، ج٢، ص ٤.

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٢٩، والترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ٦٧.

- كور: وهو اسم اعطى لجوز الكولا في عديد من لهجات السودان وخاصة في سنفي تاريخ الفتاش  
الترجمة الفرنسية، ص ٦٤، هامش ٥.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، ص ١١٠.

فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب<sup>(١)</sup>.

**الرقيق :**

يعتبر الرقيق من أهم حاصلات السودان. (وعن الرقيق - الخدم) انظر فيما  
بعد الفصل الخاص بانتشار الإسلام في بلاد السودان.

---

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٩.

## الفصل الثاني

أ- سكان الصحراء.

ب- سكان السودان.



## الفصل الثاني

### أ - سكان الصحراء

#### السودان

المفروض أن سكان الصحراء من العناصر البيضاء (البربر). لكن المعروف تاريخياً أن الصحراء وواحاتها كانت منذ أقدم العصور، معمورة بجماعات من الأحابش (الأثيوبيين) المخلطين<sup>(١)</sup> وهم السودان حسب تفسير بعض المحدثين<sup>(٢)</sup>.

وهم أناس أصحاب بشرة ضاربة للسواد Au visage brûlé نتيجة لعامل البيئة، إذ أسودت بشرتهم بفعل حرارة الشمس. وهم من نحاسي الصوان المهرة، ويقومون بزراعة النخيل في الواحات<sup>(٣)</sup>، وكانوا يعيشون في ظل مناخ قاس فيما يبدو ومثل اليوم<sup>(٤)</sup>. ويبدو أنهم كانوا يقطنون السفح الجنوبي للأطلس ويريد البعض العثور على أحفادهم في الجماعة المعروفة بالحراتين "Harratin" في واحات الغرب، وكانت بينهم وبين البيض (البيضان) علاقات وثيقة<sup>(٥)</sup>. وكان هذا العنصر يسكن مورطانية<sup>(٦)</sup> بأجمعها من أول Tiris وكدية أجيل Kediat

(1) Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1915, p. 160, H. Terrasse, Histoire du Maroc, tome I, p. 2 II.

(٢) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٥٤.

(٣) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠.

(٤-٥) De la chapelle, Esquisse d'une histoire du sahara occiden- (٥-٤) . Hartani، Hespéris, tome XI, 1930, Fax I-II, p. 39.

وجسمها حراتين Hraten اسم اعطى لسودان واحات جنوب مراكش، André Adam, le costume dans quelques tribus de L'Anti-Atlas, Hespéris, p. XXXIX année 1952, 3-4 trimestres, p. 482

(٦) مورطانية باسم يطلق على اقاليم المغرب الأقصى الخاضعة للدولة الرومانية (ويقول البكري ان اسم طنجة مورطانية). أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٢، البكري، المغرب، ص ٢١.

التي (١) ، والحوض (٢) ، وثنية النيجر .

غزو البربر الرحل الصحراء :

صنهاجة أهل اللثام . :

ويعتبر بربر صنهاجة المثلثون من أقدم سكان الصحراء، وقد أصبحوا عن الأرياف - تبعاً للنصوص العربية - والعمران، وهجروا التلول منذ دهور قبل الفتح الإسلامي (٣) وسكنوا القفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، «صاروا، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجازاً» (٤). (ونكتفى بهذه الإشارة هنا إلى صنهاجة سنعالجها فيما بعد).

هذا ويحدد الكتاب المحدثون بناء على ذلك سكنى البربر، أهل البلاد حالياً في الواحات والصحراء بالعصر الروماني بعد أن احتلت روما البلاد، ومع توسع الاستعمار الروماني الذي استولى على الأرض الخصبة في الشمال مما ترتب عليه التجاء البربر إلى الأقاليم الجنوبية الفقيرة في الصحراء، وذلك ابتداء من أواخر القرن الثاني الميلادي (٥).

(١) «منطقة شمال وشمال غرب ادراة». De la chapelle, p, 36, note 2. الكدية من الفعل كدا. ويقال كدت الأرض تكدر كدوا وكدوا، فهي كادية إذا ابطأ نباتها.  
والكدية الأرض المرتفعة، وقيل: هو كل شيء صلب من الحجارة والطين «لسان العرب» ج ٥، ص ٢١٦.

(٢) عبارة ساحل السودانية تعني المنطقة الواقعة بين الستغال الأعلى والنيجر الأوسط، وإقليم الحوض يكون الجزء من الصحراء الذي يقع مباشرة شمال الساحل نفس المرجع السابق، ص ٢٩، هامش ٣.

(٣) ابن خلدون، المعراج، ص ١٨١.

(٤) ابن خلدون، نفس المصدر السابق.

(٥) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٥٤ - ٥٥.



وكان لانتشار الجمل واستخدامه على نطاق واسع أثره في إنسيال البربر إلى الصحراء «وتوغل الجمل والبربري، وأحدهما يحمل الآخر إلى الصحراء. وتغلب الرجل البيض على السود المتوطنين»<sup>(١)</sup>.

وأستوطن البربر بكثرة جماعاتهم من الشمال، الصحراء كلها تقريبا حتى "inchiri"<sup>(٢)</sup>، و "Khat"<sup>(٣)</sup>، والحدود الشمالية للحوض<sup>(٤)</sup> وفيما بعد فتحت هذه الهجرة الطريق أمام قبائل أخرى استطاعت، بفضل عددها، أن تغلب رويدا رويدا على صحراء المغرب وأن تدفع الوطنيين (atuoctones) نحو الجنوب. ويبدو أن هذا الغزو قام غالبا على طول المحيط، ومن منطقة درعة وتغللت نحو الحوض وثنية النيجر<sup>(٥)</sup>.

#### زناتة :

تعد قبائل زناتة أيضا من أقدم سكان الصحراء، وزناتة «تشبه العرب في كثير من الشعائر من بينها : سكنى الخيام واتخاذ الأبل، وركوب الخيل، والقيام بالرحلتين»<sup>(٦)</sup>. ومواطن زناتة بشكل عام ببلاد النخيل مابين غدا مس والسوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، وأكثرهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة،

(١) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠.

(٢) بحر من الأرض الصلبة يتجه من الشمال الشرقى إلى ناحية الجنوب الغربى من تلال الـ Ahchar وتلال الـ Amathich، ويصل منطقة ادرار بساحل المحيط الاطلنطي إلى ناحية نواكشوط Noukchut نفس المرجع De la chapelle ص ٢٩، هامش ٢.

(٣) متخفص بفصل الادرار وتاجنت، نفس المرجع السابق، ص ٢٩، هامش ٣.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٩.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ٢٩ - ٥٠.

(٦) ابن خلدون، العمر، ص ٧، ص ٢.

ومنهم بالمغرب الأقصى أم أخرى<sup>(١)</sup>

ويوجد بطون منهم في واحات الصحراء، مثل : بنو واركلا، في واركلا (على بعد ثمان مراحل جنوب يسكوه في جنوب المغرب الأوسط)، وسكانه في عصر ابن خلدون (القرن ٨ هـ / ١٤ م)، إلى جانب بني واركلا، أعقاب أخوانهم من بني يفرن ومغراوة<sup>(٢)</sup>.

وفي قصور توات (على بعد ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة)، وتمنطيت، وتيكارين، وتاسيبيت، وتيكندارارين<sup>(٣)</sup>، يوجد بنو يامدس (وهم بطن من بطون بني وماتوا من زناتة)، ووتطغير، ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عدد زعدة كما يقول ابن خلدون، وفيهم الرجالة والخيالة، ويعتمدون في معاشهم على بلح النخيل<sup>(٤)</sup>، وتوجد قبائلهم أيضا في تافيلالت (سجلماسة) حيث توجد قبائل مكناسة<sup>(٥)</sup> وفي هذه القبائل التجار إلى بلاد السودان.

## اليهود :

إلى جانب صنهاجة اللثام، وزناتة، وجد اليهود أيضا في الصحراء. وتاريخ اليهود في بلاد المغرب غير واضح تماما. ونعرف عن طريق المصادر الرومانية وجود بعض الجماعات اليهودية في برقة على وجه الخصوص بين القرنين الأول والثاني للميلاد<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٥١.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٥٩.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٥٧.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١٢.

(6) Fage. An introduction to the history of west Africa, Cambridge, 1962, p. 13.

وعندما فتح العرب شمال أفريقيا في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، وجدوا الجماعات اليهودية في جادوا<sup>(١)</sup>، وفي قابس<sup>(٢)</sup>، واجد ابيه وأهلها الغالب عليهم اليهود كما يقول الأدرسي<sup>(٣)</sup>، وفي أغمات إيلان<sup>(٤)</sup>، وفي سجلماسة<sup>(٥)</sup>.

ونجد في الروايات التاريخية، مكان مرموق لليهود، إذ اهتم الرواة والمؤرخون باليهود فجعلوا لهم مكانة كبيرة في الصحراء، في واحات توات، وتمنطيت (تمنظطة لدى أحمد بابا)<sup>(٦)</sup> وفي وادي درعة، ووادي نون<sup>(٥)</sup>.

### صنهاجة (أهل اللثام) :

أشرنا فيما سبق إلى أن يرير صنهاجة من أقدم سكان الصحراء، وقد تعددت قبائلهم من كندالة (جدالة)، ولتونة<sup>(٦)</sup>، ومسوفة<sup>(٧)</sup>، وتريكة وناوكا وزغارة ثم لمطة<sup>(٨)</sup>، مسرائه<sup>(٩)</sup>، وسمسطة، وشرطة<sup>(١٠)</sup>، وأزواد وبنى وارث،

(١) الاستبصار، ص ١٤٤.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٧٠.

(٣) الأدرسي، صفة المغرب، ص ١٣٢.

(٤) الأدرسي، نفس المصدر، ص ٦٩، أبو الفداء، تقويم البلدان، ج١، ص ١٢٤.

(٥) البكري، المغرب، ص ١٤٨، الاستبصار، ص ٢٠٢.

(6) De la chapelle, Histoire du sahara occidental, p, 52.

وقام بحركة الجهاد ضد اليهود في توات وتمنطيت في القرن التاسع الهجري / ١٥ م الإمام العالم محمد بن عبد الكريم المنجلي، وأمر جماعة فلبسوا الأث العرب، واتجهوا إلى كتانس اليهود فهدموا، وكان من يقتل منهم يهوديا يحط به سبع مثاقيل.

أحمد باب. التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، هامش لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، طبع مصر، ١٣٢٩ هـ، ص ٣٣٠-٣٣١.

(6) De la chapelle, Histoire du sahara occidental, p, 52.

(٧) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ١٨١ (ابن حوقل يكتبها في شكل لوتوننا) صورة الأرض ج١ ص ١٠٥.

(٨) البكري، المغرب، ص ١٠٩، ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠١ (يكتبها في شكل بنو سوطا).

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة التجارية، ج٨، ص ٧٤.

(١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠١-١٠٥.

وجزولة<sup>(١)</sup> . وبنى نيتسر<sup>(٢)</sup> .

وقبيلة لمتونة أهم هذه القبائل، وفيهم بطون كثيرة، منهم بنو ورتنطق وبنوصولان وبنوناسجة<sup>(٣)</sup>، وهم ظواعن رحالة، وكانت مواطن لمتونة الأولى في أقاليم تاجنت ومنطقة أودغست (أودغشت)<sup>(٤)</sup>. وعن هذا الطريق قامت هذه القبائل بعد سنة أربعين وأربعمائة بجهاد السودان المجاورين وحملهم على الإسلام<sup>(٥)</sup>. وكانت قبيلة جزولة ولطة، تسكن المنطقة التي تمتد من وادي سوس إلى مدينة نول لمطة<sup>(٦)</sup>. ويسدو أن مجالانهم كانت تمتد على الطريق الموصل من تامدلت إلى أودغست<sup>(٧)</sup> في الصحارى المجاورة للبحر المظلم (المحيط الأطلنطي)<sup>(٨)</sup>

وكانت قبيلة جدالة رحالة سابين ادرار مورطانية الاطلنطي (البحر المحيط)<sup>(٩)</sup>، ولذلك فهي أقرب القبائل إلى غانة وصنغانة<sup>(١٠)</sup>.

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠١-١٠٥

(٢) البكري، المغرب، ص ١٥٧، ابن حوقل، ج١، ص ١٠٥.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٦٤.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ١٨١.

M. Delafosse, les Noirs de L'Afrique, p. 46.

(٥) البكري، المغرب، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٢٠٠.

(٦) البكري، ص ١٦١، الاستبصار، ص ٢١٢، مدينة نول لمطة من بلاد السوس، وهي مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط، وسميت نول لمطة لان قبيلة لمطة يسكنوها، ومنها إلى وادي درعة نحو ٢ مراحل. الاستبصار ص ٢١٢، البكري، المغرب، ص ١٦١-١٦٢، الادريسي، صفة المغرب، ص ٦٠.

(٧) البكري، المغرب، ص ١٥٧.

(٨) الادريسي، صفة المغرب، ص ٥٨.

(٩) البكري، المغرب، ص ١٦٤، Delafosse, les Noirs de L'Afrique, p. 46.

(١٠) البكري، المغرب، ص ١٧٢.

وأما قبيلة مسوفة فتمتد مواطنها بين أودغست في الجنوب وسجلماسة في الشمال<sup>(١)</sup>، في صحراء موحشة مقفرة<sup>(٢)</sup>، قليلة الماء ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة<sup>(٣)</sup> والملثمون كانوا يعتمدون في معاشهم على الأبل، يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها مقددة ومطحونة<sup>(٤)</sup>، إلى جانب تمر الواحات حتى أنهم «لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق»<sup>(٥)</sup>، ولا يعرفون حرثا ولا زراعا. وهم بفضل جمالهم يجوبون الصحراء من أدناها إلى أقصاها طولا وعرضا، يتقلون المتاجر والحضارة إلى قلب الصحراء والسودان أو يبحثون عن موارد المياه البعيدة. وحتى أيامنا هذه لوحظ أن الطوارق (حفدة الملثمين) يقودون قطعانهم من الجمال من الحدود المراكشية من إيجيدي Igiudi ومن ريودي أورو (Rio de Oro) للسقيا من نهر النيجر<sup>(٦)</sup>.

وأهم ما تتميز به هذه القبائل هو اتخاذ اللثام. وكان لا يرى من وجوههم غير عيونهم<sup>(٧)</sup> وأصبح اللثام علما عليهم «تميزوا بشعاره»<sup>(٨)</sup>، ويبدو أنهم كانوا يتلثمون في الصحراء لاتقاء الحر والبرد كما يفعل العرب<sup>(٩)</sup>. وقبائل

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠١، ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩٢، الترجمة الإنجليزية لجب، ص ٣١٧، ص ٣٢٠، السدي تاريخ السودان، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤٢.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٤٩، الاستبصار، ص ٢٠١.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٤٩، الاستبصار، ص ٢٠١.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠١، البكري، المغرب، ص ١٧٠، الاستبصار، ص ٢١٣-٢١٤، ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩٢، الترجمة الإنجليزية، ص ٣١٧.

(٥) ابن حوقل، نفس المصدر، ج١، ص ١٠١.

(٦) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٥٠.

(٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠٢.

(٨) ابن خلدون، البر، ج٢، ص ١٨١.

(٩) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٧٦، دمشق، نحة الدر، ص ٢٦٧.

صنهاجة ترفع نسبها إلى العرب إلى حمير<sup>(١)</sup>.

توغل صنهاجة في بلاد السودان :

وكثير من قبائل صنهاجة الملثمين زحفت نحو الجنوب، ولقد دفعهم إلى ذلك البحث عن أراض أقل جفافاً، وجابوا أكثر المواضع الصالحة للرعى التي كانت تستوطنها الجماعات السودانية، بل ربما أن بعض صماليك الرمال هؤلاء (كما يسميهم جوليان) قد وصل إلى السودان في القرن الرابع الميلادي ليؤسس دولة غانة<sup>(٢)</sup> والروايات السودانية تؤكد ذلك وتقول أن أصل ملوك غانة من صنهاجة<sup>(٣)</sup>.

وتمكن بربر قبيلة لمطة الوثنيون في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي من فرض السيطرة السياسية على السفنى المزارعين على ضفاف النيجر الأوسط<sup>(٤)</sup>. ولما كان هؤلاء الغزاة من البربر عادة أقل عبداً من الشعوب التي غزوها فانهم امتصوا وعبر الزمن ذابت دماؤهم في دماء أهل البلاد<sup>(٥)</sup>.

وقبائل صنهاجة من الملثمين كما تقول النصوص «الغالب على أوانهم السمرة»<sup>(٦)</sup> إما لعامل البيئة، وذلك لانهم كانوا كلما توغلوا في الجنوب ازدادوا سواداً «لأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ... فيكثر الضوء

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٧٤.

(٢) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠.

(٣) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ٤٢.

(4) Fage, an introduction to the history of west Africa, p, 27.

- ابن خلدون، ج٨، ص ١٤١، يقول عن هواره «... وكانوا ظواهن وأهلين ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوز لمطة من قبائل الملثمين مما يلي كوكو من السودان تجاه افريقية».

(5) Fage, op-cit, p, 9.

(٦) ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٧٦.

لأجلها ويلج القبط الشديد عليهم وتسود جلودهم لأفراط الحر<sup>(١)</sup>.

وإما لامتزاجهم بالسودان، عن طريق الزواج، ويؤكد ابن عذاري ذلك عندما يقول عن ابراهيم بن الأمير ابي بكر بن عمر «أما ابراهيم فلم يعرف أمه وكان أسود الجلد»<sup>(٢)</sup>. كما يقول أيضا عن ابراهيم بن الأمير يوسف بن تاشفين «... وهو المشتهر بابن تاغيشث وهي أمة سوداء»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الدمشقي عن قوم من لمطة أنهم «أنسبه بالبربر وبالسودان»<sup>(٤)</sup>. والواقع أن قبائل صنهاجة (زناجة) الصحراء، قبائل انتقال، وليس من الغريب أن يكون فيهم الدم الأسود، كما يلاحظ الكتاب المتقدمون. وقد أثبتت نتائج الأبحاث الحديثة صحة هذا القول<sup>(٥)</sup>.

وقد أدت الصلة الوثيقة بين قبائل البربر (أهل الشام) وبين السودان إلى اختلاط الأمر على الكتاب، فهم يعتبرون بعض القبائل بربرية في رواية، وسودانية في رواية أخرى، وخاصة من كان يعيش منهم في مناطق الانتقال بين الصحراء والسودان. ولقد ترتب على ذلك ظهور نظرية عكسية لتحول

---

(١) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٤٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ١٠٣، ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٤، الترجمة الإنجليزية لروزنثال ج ١، ص ١٧٠.

(٢) ابن عذاري، الجزء الخاص بالمرابطين، نشر Huici Miranda, Hespépris Tamuda. Vol II, Fax I, p. 53.

(٣) ابن عذاري، نفس المصدر السابق، ص ٩٠.

(٤) يذكر جوتييه في كتابه ماغيب شمال افريقية، ص ٤٢، أن من بين الاصول التي يرجع إليها البربر الاصل الفرنسي.

(٥) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة A. Mehren، ليزج، ١٩٢٨، ص ٢٤٠.

البيض إلى سودان تعبر عن إمكان تحول جماعات من السودان إلى قبائل من البربر البيض. فيذكر ابن حوقل أن بنى تانماك ملوك تادمكة : «يقال أن أصلهم سودان أبيضت أبقارهم وألوانهم لقربهم من الشمال وبعدهم عن أرض كوكوه»<sup>(١)</sup>.

أما في رواية البكري والاستبصار فإن أهل تادمكة بربر مسلمون وهم ينتقبون كما ينتقب بربر الصحراء<sup>(٢)</sup>.

ويضع اليعقوبي والمسعودي، زغاوة، بين قبائل السودان «الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب»، وهم من أبناء كوش بن حام<sup>(٣)</sup>.

ويضع ابن خلدون زغاوة بين قبائل صنهاجة الملتصمين، في إحدى الروايات، وفي رواية أخرى نقلا عن ابن سعيد يعتبرهم سودان<sup>(٤)</sup>.

وكذلك أهل بغامة يقول عنهم الأديسي أنهم «سودان بربر احقرت الشمس جلودهم، وغيرت ألوانهم، ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رجالة»<sup>(٥)</sup>.

## ب- سكان السودان

### التسمية (السودان):

كما تقدم يتضح أن مساكن صنهاجة الصحراء هي مناطق انتقال بين

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٠٥.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٨١، الاستبصار، ص ٢٢٢.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، ج١، ص ١٩١ - ١٩٢، المسعودي، مروج الذهب، طبعة التجارية، ج٢، ص ٤.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ١٨١، ص ١٩٩.

(٥) الأديسي، صفة المغرب، ص ١٠، الترجمة الفرنسية، ص ١٢.



العناصر البيضاء من البربر والعناصر الزنجية من السودان.

ولقد عرف العرب سكان الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء بنفس اسم السودان أى الأسود أو السود<sup>(١)</sup>، فأصبحت الكلمة اسما للمكان فى نفس الوقت.

### الأيوبيون :

يسمى هيروdotus "Herodotus"، سكان الأقاليم الواقعة جنوب ليبيا، بمعنى (شمال أفريقية) بالأحباش (الأيوبيين)<sup>(٢)</sup>.

ويطلق ابن عذارى على سكان غانة اسم حبش غانية<sup>(٣)</sup>، وهى نفس التسمية القديمة التى أطلقها هيروdotus، ويطلق ابن خلدون أيضا على سكان مالى اسم الأحباش<sup>(٤)</sup>. والأيوبيين الذين تكلم عنهم هيروdotus كانوا سودان Negrés، ولم يكونوا بأى حال من الأحوال أجدادا للحبش الحاليين الذين نطلق عليهم بصفة عامة لفظ الأيوبيين.

---

(١) انظر سابق الفصل الخاص ببلاد السودان.

(٢) من الكلمة اليونانية، وتعنى «أصحاب البشرة المحروقة» وهى مرادفة لكلمة السودان العربية.  
A Greek English Lexicon, A new edition. Oxford University Press, 1939, Oxford classical dictionary, p, 339.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب، القسم الثالث، (تاريخ الموحدين)، تحقيق امبروس هوبس ميرلندة، ومحمد بن تايوت ومحمد ابراهيم الكتانى، تطوان ١٩٦٣، ص ١٨٠، والترجمة الاسبانية لهوبس ميرلندة، ج١، ص ١٥٠.

(٤) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، نشر محمد بن تايوت الطنجى القاهرة ١٩٥٧، ص ٧٦. يقول تير كريفيد يخطب بها السلطان ابي سالم المرينى عند وصوله عنده ملك السودان وفيها الحيوان الذى يسمى بالزواقة، جاءك فى وفد الاحباش لا يرجون غيرك مكرم الوقت.

وهيرودت نفسه يحدد هذا التفصيل بعد ذلك بقليل ( نفس الكتاب، LXX)، عندما وصف الأحباش تحت تعبير الأثيوبيين الشرقيين Ethiopiens orientaux وجعلنا نلاحظ أن هناك فرقا بينهم وبين الأثيوبيون الآخرين حيث أن شعورهم مرسله، بينما السودان أو الأثيوبيون الغربيون الذي يطلق عليهم «أثيوبيون» فقط أو «أثيوبوليبيا» كانت شعورهم أكثر تجعدا من الناس الآخرين، وهو يضيف أن كلا منهما كان يتكلم لغة مختلفة<sup>(١)</sup>.

### أصل السودان :

تتفق رواية ابن عبد الحكم (توفي سنة ٢٥٧هـ / ٨٧١م)، واليعقوبي (توفي سنة ٢٨٤هـ / ٩٨٧م) والطبري (توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، ومن نقل عنهم أو حذا حذوهم من الكتاب المغاربة مثل ابن خلدون (وهو ينقل عن ابن سعيد)، على أن حام بن نوح أبو السودان<sup>(٢)</sup> (أى أنهم يكونون الجنس الحامى) وهو أبو كل أسود جمع الشعر<sup>(٣)</sup>.

وفى روايات أخرى أن أصل السودان أبناء كوش بن حام<sup>(٤)</sup>. كما تذكر بعض الروايات أن السودان من أبناء كنعان بن حام<sup>(٥)</sup>، وأنهم «أختصوا بلون السودان لدعوة كانت عليه (أى على كنعان) من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما

(1) M.Dclafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 22.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، نشر عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٠ - ١١، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، طبع ليدن، ج١، ص ٢١١، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبع ليدن ١٨٨٩، ابن خلدون، المعر، ج٢، ص ١٩٨.

(٣) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ٢٢٣.

(٤) المسعودى، مروج الذهب، ج٢، ص ٤، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٢، دمشق، نخبة الدهر، ص ٢٢٦.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٠.

جعل الله الرق في عقبه. وينقلون في ذلك كما يقول ابن خلدون حكاية من خرافات القصص التي يفندوها، فيقول أن دعاء نوح على ابنه قد ذكر في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لاغير<sup>(١)</sup>.

وربما اعتبرت هذه الدعوة تبريرا لاسترقاق السودان، واتخاذهم عبدا، وهو يبين أن سبب سوادهم جاء نتيجة للحرارة المتضاعفة في الجنوب<sup>(٢)</sup> هذا عن الروايات المشرقية والمغربية. أما الروايات السودانية فيذكر محمود كمت صاحب «تاريخ الفتاش» أن جد قبيلة «سفي وجد عكري وجد ونكر (ونكر)، كانوا أخواثا شقائق، وأبوهم كان ملكا من ملوك اليمن اسمه تراس بن هارون...»<sup>(٣)</sup>. والنسبة الأخيرة إلى اليمنية تعنى أن السودان أصلهم بيضان، وأصلهم من المشرق وأنهم هاجروا إلى أرض السودان في ظروف تاريخية معينة، وهذا ما تقولوه الرواية «لما مات أبوهم تولى على المملكة من بعده أخوه فضيق على أبناء أخيه أشد التضييق، فهاجر الأبناء من اليمن إلى ساحل البحر المحيط...»<sup>(٤)</sup>.

ويقول دلافوس Delafosse «أنه قد حدثت هجرات في جميع الاتجاهات، وجاءت عقب حروب محلية، وأوبئة ومجاعات، ودائما في عصر لاحق للعصر الذي ترجع إليه الجماعات محل الدرس بداية تاريخها. وإذا شددنا في

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٣-٨٤، الترجمة الإنجليزية لروزنتال، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٣-٨٤، الترجمة الإنجليزية لروزنتال، ج ١.

(٣) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ٢٤-٢٥، الترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ٤٠-٤١.

(٤) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤١.

سؤال الوطنيين (أهالي البلاد) فإنهم سيشيرون دائما إلى مشرق الشمس كمثل للنقطة التي خرج منها أقدم أجدادهم<sup>(١)</sup>. ويمكن إذن وحتى إثبات العكس، قبول النظرية التي تنادي بأن سود أفريقيا ليسوا وطنيين "autochtones"، ولكنهم جاءوا في هجرات كانت نقطة بدايتها ناحية حدود المحيط الهندي والهادي وأما عن تحديد العصر أو العصور التي تمت فيها هذه الهجرات فمن الأسلم أن نمتنع عن تحديدها. وكل ما يمكن أن نؤكد هو أنه عندما اكتشفت شعوب الشرق القديمة وشعوب البحر الأبيض المتوسط وجود هؤلاء السود الأفريقيين، فإن هؤلاء السود الأفريقيين كانوا يقطنون حينذاك، ومنذ وقت طويل بدون شك، نفس المناطق التي نجدهم فيها في أيامنا هذه، ويبدو أنهم قد فقدوا الذكرى الدقيقة لمكان موطنهم البدائي<sup>(٢)</sup>.

وقد وجد الغزاة السود "Nègres" الذين تقدموا إلى أبعد نقطة في اتجاه الشمال، أنفسهم على اتصال مع الوطنيين البدائيين "autochtones primitifs" من الجنس الأبيض في حوض البحر الأبيض المتوسط الذين كانوا ابتداء من الصحراء الوسطى، في البلاد التي أصبحت فيما بعد مصر وليبيا، معاصرين لنجريل Negrilles<sup>(٣)</sup>، الصحراء الجنوبية وباقي أفريقيا.

(1) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 7.

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 7.

(3) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٦. والنجريل Negrilles، كانوا في لون أوضح وقامة أصغر من قامة السود، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك كانوا يختلفون عن هؤلاء بمجموعة من الصفات الأخرى الجسدية، خصوصا في عدم التناسب بين أحجام الرأس والجذع والأطراف. وقد رفض العلماء أن يسموهم «بالاقزام» وهو الاسم الذي يصلح للأفراد الذين يكونون استثناء في جنس معين وليس لمجموع هذا الجنس، كما أنهم رفضوا تعبير «قرم» Pygmées، الذي يمثل في أذهاننا الحجم الصغير جدا للقامة كصفة أساسية، بينما كان هؤلاء الرجال الذين ناهوا مايتعدون ١,٥٥ سم لا يقل طولهم عموما عن متر وأربعين سم ١,٤٠ سم. ولذا أطلقوا عليهم اسم النجريل Negrilles دلافوس، نفس المرجع، ص ٨.

ولم يكن هذا الاتصال ليتم أوليستر دون أن ينتج عنه اختلاط وارتباطات بين الشعوب البيضاء فيما قبل التاريخ في شمال أفريقية والمهاجرين السود الذين خلفوا النجريل Négrilles أو كانوا قد ذابوا معهم جزئياً في ذلك الوقت<sup>(١)</sup>.

ويظهر امتزاج الأسود بالبيضان في قبائل (السنفي، سركله Sarakollé (الونكري)، تكولور (تكورور)، الولف Oulofs (الجلف)<sup>(٢)</sup>.

وأثار هذا التخلط métissage تبدو لنا تارة في المظهر الجسماني أو الفسيولوجي وتارة أخرى في الكفايات العقلية، وتارة في اللغة، أو في هذه العناصر الثلاثة في نفس الوقت<sup>(٣)</sup>.

### تقسيم وتوزيع جماعات السودان في السودان الغربي :

لاشك أنه من الصعوبة بمكان إعطاء صورة مفصلة لتوزيع قبائل السودان في السودان الغربي، من خلال المصادر القديمة، وذلك لأن الكتاب المشاركة والمقاربة لم يمدونا بمعلومات كافية عن القبائل وتوزيع مواطنها - باستثناء بعضها مثل التكرور - بل تكلموا عنها بشكل عام، لا يبين أماكن وجودها بالتحديد، وبعضهم أشار فقط إلى بعض اسمائها. أما الكتاب السودان فقد أوردوا أسماء هذه القبائل دون أن يهتموا بإعطاء معلومات تفصيلية عنها. ووجهوا معظم عنايتهم إلى الكلام عن الأحداث السياسية للبلاد على أيامهم. وقد استجيب ذلك الاعتماد على المراجع الحديثة.

(١) M. Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p. 36.

(٢) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٧.

(٣) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٧.

شعوب شمال السودان :

الفلان :

والفلان هم الشعب الوحيد الذى هو من أصل أبيض (أحمر) فى بلاد السودان، وهم رعاة (بقر)، يتجولون فى أكبر أجزاء أفريقية اتساعاً منذ أكثر من ألف عام وهم يكونون احد المجتمعات البدوية النادرة فى أفريقية السوداء<sup>(١)</sup>.

أصل الفلان :

اختلفت الآراء فى أصل الفلان، ومن الجوهري أن نعرف من أين أتى هؤلاء الرعاة الذين لعبوا دوراً هاماً فى تكوين الممالك السوداء ابتداءً من السنغال حتى الكمرون الأوسط؟ ويمكن جمع هذه النظريات وهى غالباً من قبيل القصص فى نوعين، الأصول غير الأفريقية والأصل الأفريقى.

الأصل العربى البهرى :

ويرى F. Dubois أن الفلان، قد يكونون احفاد الهنيهن الذين ذكر

---

(١) وكلمة (بول - فلان)، كما يقول، بارث Barth، تعنى «اسمر واضح»، احمر «متافضا للولوف (الجلف)، وتعنى أسود»، ency de l'islam , Nouvelle édition, tome II, p. 1967. ويعلق عليهم السعدى صاحب تاريخ السودان اسم فلان، والنسبة اليها فلاتى وفلاتية. ويقول التونسى صاحب كتاب «تسجيد الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، وأهل دارفور يسمونهم الفلاة وفلاتا فى الآخر أصبح، التونسى، تسجيد الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، نشر وبمحقق دكتور خليل عساكر، ودكتور مصطفى مسعد، القاهرة ١٩٦٥م، (مجموعة تراث)، ص ٦٣.

ويسمون فولا Fula فى جايبيا وسيراليون، والتسمية الشائعة فى الفرنسية بول Peuls وفى الانجليزية فلاتى Fulani، وسميهم المعرب والمور فولانى "Fulani".  
S.Trimingham, I.W:A... p. 11, note 2.

البكرى أنهم « من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية انفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام .. فهم بيض الألوان حسان الوجوه » ، ويذكر البكرى أن بسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان<sup>(١)</sup> .

وأیضا هناك النظرية التى تقول أن أصلهم من اليهود السوريين ، وقد أيدها منذ نهاية القرن الثامن "Mathews"، "Winterbottom" وهما مكتشفا سيراليون . وقد أضاف إليها M.Delafosse ، فى كتابة عن السنغال الأعلى والنيجر Haut Sénégal-Niger آراء محتملة قبلت لمدة طويلة فى كل مكان ، تقول أن الفلان قد يكونون أحفاد يهود طرابلس وبرقة الذين نعلم أن جزءاً منهم قد هرب إلى الصحراء بعد الاضطهاد الرومانى الكبير سنة ١١٥ م ، عن طريق فزان والأير وماسنة حتى وصلا إلى المنطقة بين السنغال الأعلى والنيجر التى شغلتها مملكة غانة القديمة<sup>(٢)</sup> . وأخيراً فان Etienne Richet فى دراسته عن الفلان فى Adamaoua قد أثبت أوجه الشبه الأثنوبولوجية والاجتماعية بين الفلان والإيرانيين القدامى<sup>(٣)</sup> .

### الأصل النوبى الأثيوبى :

والأصل النوبى الأثيوبى يبدو أكثر جدية ، وقد أيده فى الواقع عبد كبير من المؤلفين أولهم Molien فى رحلته داخل أفريقية فى منابع السنغال وجامبيا سنة ١٨١٨ م ، حيث يرى أوجه الشبه فى الملامح والطابع والعادات بين الفلان وبرابرة النوبة ، وجعل من الأثيوبيين جنسا أحمر . ويربط F. Muller

(١) البكرى ، المغرب ، ص ١٧٩ . دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية ، الطبعة الجديدة ، ج ٢ ، ص ٩٦١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، بالفرنسية ، ج ٢ ، ص ٩٦١ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

الفولفولدى Foulfoulde (لغة الفلان) ، بلغة نوبة كردفان، ويرجع الفلان إلى الجنس التوبى أو النوباغولا (Nouba Foula).

وبارث سنة ١٨٥٥ أبدى استعداده للقبول بأن الفلان قد سكنوا أفريقية الشمالية قبل توسع الشعوب البربرية، وهو يشبههم بالـ Pyrthi Aethiopes عند بطلميوس وهم أثيوبيون (أحباش) أصحاب لون أحمر نحاسي. وأن الفلان الذين أتوا من الشرق الأفريقي قد مروا عن طريق جنوب مراكش (حوالي سنة ١٥٠ ق.م) ثم، تحت ضغط العرب ابتداء من (٧٣٢-٧٥٠م) وصلوا السنغال حيث سكنوا منطقة فوتا طورو Fouta Toro .

وهذه النظرية يؤكدتها عام ١٨٦٨م F.Muller ويفترض أن الفلان قد سبق أن شغلوا شمال أفريقية مكان البربر<sup>(١)</sup>.

وتوجد جماعات الفلان في ماسنة، وتاجنت وفوتاطور و فوتاجالون Fouta Diallon وتوجد جماعات منها أيضا في الشرق والجنوب الشرقي في منطقة ثنية النيجر والحوصا Haousa والـ Adamaoua والبلاد المجاورة لتشاد<sup>(٢)</sup>.

### جماعات السنغال :

وتتضمن التكرور والجلف.

وتقول رواية البكري عن التكرور أنهم سودان<sup>(٣)</sup>، أو التكرور من أبناء كوش بن حام بن نوح، وتكرور اسم للأرض التي يسكنونها وقد سمي الجنس باسم البلد<sup>(٤)</sup>.

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثاني، ص ٩٦٦ - ٩٦٢.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٩٦٢.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٧٢.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٨٩١، (طبعة ومستغلد) - ابن خلكان وفيات الأعيان، طبعة التجارية، ج١، ص ١٤.



ويقول الدمشقي، أن اسم تكرور يطلق على طائفة يسكنون بلد يسمى بهذا الاسم وكلهم يرجعون إلى مفاوة وسفارة<sup>(١)</sup>. أي أن أصلهم بربر.

والرواية تحوى شيئا من الحقيقة فهي تعبر عن الاتصال الوثيق بين البربر والسودان، وتعبير أيضا عن هجرة البربر إلى بلاد السودان - وهذا الأمر تؤكد الأبحاث الحديثة التي تقول أن التكرور من أصل سوداني مخلط بالدم الأبيض<sup>(٢)</sup>. (وهم أجداد التكلور الحاليين).

وأهل تكرور (السنغال الآن)، جميعهم مسلمون، بل أنهم من أسبق الشعوب السودانية التي دخلت في الإسلام.

والتكرور يتجمعون أساساً في فوطة السنغالية، ويسكنون على جانبي نهر السنغال<sup>(٣)</sup>. وتنتشر منازلهم أيضا في أنحاء من أفريقيا الغربية، في منطقة كايس Kayes على السنغال الأعلى، وفي نيورو Nyro، في ساحل السودان، وفي سيجو Segu على النيجر، وفي بنجاكرة في ماسنة الشرقية، وفي دنكراى Din-giray إلى الشرق من فوتاجالون<sup>(٤)</sup>.

(١) الدمشقي، نوبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 17.

ويطلق على التكرور بالانجليزية Tuculor وبالفرنسية توكولور Toucouleur وتكرا Tuculor وهو شريف بسيط لاسم هذا الشعب كما تنطق به قبائل ولوف التي تقطن المجرى الأدنى لنهر الكنفو، فهم ينطقونه Takoror أو تكرا Tocolor، وقد ورد هذا الاسم في أخبار الرحالة وفي المصورات الجغرافية القديمة نوكورل Toucourol، وتوكورنى Toucourge بتقول العرب تكرور، والنسبة إليها تكوروى، والجمع تكاير. دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، ج ٥، ص ٤٢٧.

(3) Trimingham, I.W.A. p, 13.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ٤٢٧.

الجلف :

يقول عنهم السعدى أنهم سودانيون<sup>(١)</sup> (أى من أصل أسود) ، وهم خيار من فى الناس نعلا وطيبة ، وخصبهم الله سبحانه وتعالى بالأخلاق الحسنة والسيرة المحمودة ، ويتصفون بالنجدة والشجاعة والوفاء<sup>(٢)</sup> . وهم يقطنون مساحة كبيرة بين السنغال وغمبيا<sup>(٣)</sup> .

جماعات الونكارا (النجارة - الونقارة) الماندنج - الملكة :

وقد ذكرهم البكرى تحت اسم قنقارة (نجارة)<sup>(٤)</sup> (ومفردها جنجارى) أو ونقارة - ونجارة ، ويسمى ابن بطوطة ونجراته<sup>(٥)</sup> .

وونجارة يبدو أنه تحريف لاسم الإقليم الأصلى الجنجران Gangaran وجونجران Gwangan أو جبنجران Gbangan ، وأول هذه التسميات جنجران Gangaran ، يحتفظ به المور والسركلة ، والثانى Gwangan يحتفظ به السنغى والفلان فى ماسنة والحوصة .

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، استوطنوا جزءاً من موريتانيا الشمالية وتقابلهم فى منطقة الحوض<sup>(٦)</sup> .

وتوجد قبائل الونجارة (الماندنج) فى منطقة النيجر الأعلى ، وخاصة فى أعالى باماكو، وحتى سجيورى Siguiri ، وأيضاً فى داخل هذه المنطقة التى

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٧٨، (الترجمة الفرنسية) لهوطس، ج١٢٨، - ١٢٩ .

(٢) السعدى، نفس المصدر، ص ٧٨ .

(3) Trimmingham, Islam in West Africa, p, 13.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٦٤ .

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ١٩٦، الترجمة الإنجليزية، ص ٣٢٢ .

(6) Ency de L'Islam, Vol III, p, 254.

تحتوى على مناطق الذهب فى بيظ، وكذلك أيضا فى الأقاليم التى يوجد فيها الذهب فى منخفض فليمه Falémé، وفى إقليم بامبوك (بانيغو).

والونقارة (الماندنج) ينتشرون اليوم فى الإقليم الجبلى حيث يخرج فرعى السنغال، ويشغلون جنجران Gangaran إقليم بامبوك، حوض غامبيا فى الجنوب، بينما ينتشرون فى الشمال حتى الصحراء المغربية<sup>(١)</sup>. والماندنج (الونجارة) معا يكونون سلالة موحدة مميزة جداً.

ونستطيع أن نميز بين ثلاث فروع رئيسية (وهى بدورها تقسم إلى فروع عديدة) الملتكى - البنبر أو البمبر والديولا أو الجيولا<sup>(٢)</sup>.

وميز محمود كمت صاحب كتاب تاريخ الفتاش (يكتب فى سنة ١٩٢٥هـ بين ملنكى وونكر قال : «أن ملنكى هو الجندى، وونكر من يتجر ويسمى من أفق إلى أفق»<sup>(٣)</sup>. والملنكى أقل تقدما من الماندنج (الونقارة) من الناحية الاجتماعية، وظل كثير منهم مزارعين وياحين عن الذهب<sup>(٤)</sup>.

تفسير اسم الملتكى :

وقد اشتق أسمهم من فرس البحر ملى Mali أو مارى Mari وإذن كلمة ملنكى تعنى اتباع فرس البحر.

هذا التفسير فيه خطأ لأن مقطع الحرف الأخير «Ka» لا يمكن أن يضاف إلا إلى اسم بلد أو اسم قبيلة ولا يجوز اضافته إلى اسم حيوان، ومن

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤.

(٣) محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ٣٨، الترجمة الفرنسية لداقوس وهولس، ص ٦٥.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، مجلد ٣، ص ٢٥٤.

المحتمل أن يكون اسم الأقليم الذي كان مهد أصلهم.

لهذا فقد اشتق الاسم من ما Ma : أم، ودنج Deng أو ding : إبن، وعلى هذا الأساس فالكلمة تعنى إبن الأم، إشارة إلى النظام الأموى المتبع عند المانديج<sup>(١)</sup>.

البمير :

يقطن البمير، أودية النيجر وبنى Bâni حتى بحيرة دب Debo، وهم كثيرون على الساحل، زراع وأكثر تقدما من الملنكى. ويعتقون النظام الأبوى. تفسير اسم البمير :

ويقول بنجر Banger أن هذا الاسم مرادف للكلمة العربية كافر، وهم يطلقون على أنفسهم بمنه Bamana أو بمنكة Bamaneka وهو مشتق من بمه Bame ومعناها تمساح، وهو الحيوان الذى يتخطونه طوطما لهم<sup>(٢)</sup>.

بينما يذهب دلافوس إلى أن اسم بمير أو بنمنه ban-ma-na يعنى الانفصال عن الأم<sup>(٣)</sup>.

السيديولا :

الديولا أو الجيولا، يسكنون فى مراكز هامة، وهم غالبا تجار، ونراهم متجمعين فى جاليات صغيرة بين الوطنيين، فى شرق بنى وفى ثنية النيجر وفى قولتا العليا، وساحل الذهب، وقد اعتنقوا الإسلام منذ وقت مبكر<sup>(٤)</sup>.

(1) Delafosse, Les Noire de L'Afrique, p, 39, ency de L'Islam, Vol, 11, p, 254.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الأول، ص ١١٨.

(3) Delafosse, Les Noire de L'Afrique, p, 39.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤

وعشائر المانديج الأساسية هي : كيتا (وكان منهم حكام مالي) كينات  
Konate و Taraore دمبله Dembele ، كنت Kante ، (كانوا حكاما لسوسو)  
كولوبالي Kulubali كوروما Kuruma ، جارا Diara ، Samoka ، Mareko ،  
Bakayoko ، Kamara ، إلى آخره<sup>(١)</sup> .

### فولتا الشمالية :

إن الظاهرة التي تميز شعوب الفولتا (تتكلم لغة الجور) ، هي عدم تأثرهم  
بالإسلام<sup>(٢)</sup> . ويتضمن شعوب الفولتا : الموشي ، الداجومبا Dagomba ، الكرم  
"Gurma" "Senufo" بوبو BoBo . وهم يقطنون شرق المانديج ، بين السنغي  
في الشمال والغابات في الجنوب<sup>(٣)</sup> .

سنغي (سنغي) زرما - دندي :

الشعوب التي تعيش على حافة النيجر الأوسط تكون منطقة انتقالية بين  
عالم الماند والسودان الأوسط<sup>(٤)</sup> .

والسنغي يعيشون على طول نية النيجر من Mopti خلال منطقة  
البحيرات ، ومنطقة تنبكت إلى مدينة جاو (كاو) .

الزرما يقيمون جنوب كاو في (تياني - حوزو - تيلابري) Niamey,  
Doso, tilaberi وإلى الجنوب منهم يعيش الدندي<sup>(٥)</sup> .

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٥ .

(2) Trimingham, Islam in West Africa, p, 15.

(3) Fage , An introduction to the history of islam in west Africa p, 6.

(4) Trimingham, op-cit, p, 15.

(5) Trimingham, islam in west Africa, p, 15.

## التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد :

يفهم من الروايات التي أمدنا بها الكتاب السودان. أن السودان عرفوا النظام القبلي، وكانت كل قبيلة تنتسب إلى جد أو أب واحد<sup>(١)</sup>، بمعنى أن الرابطة بين أفراد القبيلة هي رابطة الدم.

ونستطيع تعريف العشيرة بأنها مجموع العائلات المنبثقة من نفس الجد (السلف) البعيد، أو مجموع الخلفاء (الأحفاد) لسلف مشترك يعيشون في أماكن متفرقة<sup>(٢)</sup>.

العائلة يطلق عليها المانديج (الونكاره)، لو أودو Loû ou doû وتعني (المسكن العائلي) أو gba أو goua وتعني (الموطن - الدار) والعشيرة وهي تتكون من عدد من العائلات يسميها نفس الشعب (الونجاره) Niagha أو Niâ، وتعني «عش»<sup>(٣)</sup>.

ولكل قبيلة رئيس. وبعض القبائل التي سبق أن ذكرناها كان يتجاوز شكل القبيلة إلى شكل الأمة أو الشعب، كما هو الحال بالنسبة للونكاره (المانديج). واسم القبيلة أو العشيرة كان يذكر دائما بعد اسم الشخص.

وهكذا نجد أن عند المانديج اشخاصا يسمون To diara (أي تو من عشيرة جار) وسن يمبا San Bamba وتعني سن من عشيرة يمبا وهكذا<sup>(٤)</sup>. واسم العشيرة يذكرنا دائما بأصل هذه العشيرة وظروف تكوينها، فمثلا جار Diâra

(١) محمود كمت - تاريخ الفتن، ص ٢٤ - ٢٥، ص ٢٨.

(2) Delafosse, Les Civilisations Nègro - Africaines, Paris, 1925, p, 60.

(٣) دلافوس، نفس المرجع السابق، ص ٦٠.

(٤) دلافوس، نفس المرجع السابق، ص ٦٣.

هو تصغير لجملة بوراجار (bo-ra diâ- Ra) (أو الذى أتى من ديا Diâ أو ماسة العربية)، التى تحتفظ باسم المكان الذى هاجر منه الجدد، وكولوبالى "Kouloubali" (اسم فعل عن طريق النفى)، وتعنى الذى لم يتقل بواسطة مركب. وتتضمن الإشارة إلى الطريقة العجيبة التى استطاع بها الجدد الذى يتبعه الأعداء، أن يضع نهرا بينه وبينهم بفضل سمكة كبيرة نقلته اخترقت به المياه وهو على ظهرها. وبمبا Bamba، وهو اسم التمساح، يذكرنا بأن الجدد الذى كان على وشك أن يخطفه التمساح فى أحد المغارات، قد هرب منه بفضل Grillon كانت قد حفرت ثقباً فى أعلى الغار، وهى حفرة استطاع الجدد بعد توسيعها أن يستعملها للهرب والنجاة.

وستلاحظ كما يقول - دلافوس - فى المثال الأخير حيث تحمل العشيرة اسم أحد الحيوانات فإن هذا الاسم ليس اسم الحيوان الذى تحترمه العشيرة Grillon، ولكنه على العكس اسم الحيوان الذى استطاع الجدد أن يهرب منه بواسطة الحيوان الأول<sup>(1)</sup>.

### نشاط قبائل السودان :

يتضح مما سبق (انظر الفصل الخاص بسكان الصحراء)، انه اذا كانت الحياة الرعوية: حياة الظعن والرحلة والتجوال، تمثل الحياة العادية المألوفة بالنسبة للبيضان (البربر)، خاصة صنهاجة الصحراء. فإن السودان كما يفهم من الروايات التى أوردها الكتاب يعتمدون فى معاشهم على الزراعة المقيمة. وإلى جانب الزراعة وجد الرعى فى البوادي، وكذلك الصيد عند المقيمين بجوار ضفاف نيل السودان (النيل والسنگال) ورواقدهما.

(1) Delafosse, Les Civilisation Négro - Africaines, p. 64

وتجد أربع أنماط من الزراعة طبقا للمناطق، فتوجد الزراعة التي تعتمد على الري الصناعي (الواحات الصحراوية - ضفاف النيجر والسنغال) التي هي حتى في الصحراء من عمل السود. وزراعة فصل الأمطار مع تربية الحيوانات، والأخيرة تعتمد على الفلان الرعاة. وزراعة فصل الأمطار بدون القطيع، وتوجد في السفانا السودانية والمراعى الرطبة. والزراعة الدائمة بوساطة الفأس والحفارة التي تمارس في منطقة الغابات<sup>(١)</sup>.

## الزراع

يذكر الادريسي (عن مملكة تکرور)، أن أهل المدن يزرعون البصل والقرع والبطيخ، ولا يعرفون من الحبوب الا الذرة وهي غذائهم الرئيسي<sup>(٢)</sup>.

ويذكر البكري ( يكتب في سنة ٤٦٠ هـ )، أن أهل غانة يزرعون مرتين في العام، وهم يعتمدون في الزراعة على ثرى النيل اذا خرج عندهم<sup>(٣)</sup>.

والى جانب مياه النيل يعتمد السودان في زراعتهم على مياه الآبار العذبة. ويذكر البكري أن حول مدينة المسلمين في غانة آبار عذبة منها. يشربون ويعتمدون عليها في زراعة الخضروات<sup>(٤)</sup>.

ويزرعون أيضا القطن (في مدينة ترنقة)، وهو ليس كثير في بلدهم، ولكن كما يقول البكري لا يكاد تخلو دار أحد منهم من شجرة قطن<sup>(٥)</sup>.

ويوجد أيضا في بلد طاقة شجر يسمونه تادموت (وهو شجر الأراك) وله

(1) Trimingham, I.W.A., p. 5.

(٢) الادريسي، صفة المغرب وارض السودان، ص ٥.

(٣) البكري، المغرب، ص ١٧٧

(٤) البكري، المغرب، ص ١٧٥

(٥) البكري، المغرب، ص ١٧٣



ثمر كالبطيخ. «يوجد بداخله شيء يشبه القند، وتشوب حلاوته حمضة»<sup>(١)</sup>

هذا عن التكرور وغانة، أما عن مالي، فيرجع الفضل إلى العمري الذي اعطانا صورة كاملة عن النباتات فيها، ومعلوماته تلك يستقيها من رجال ثقافة ممن خبروا البلاد مثل الشيخ سعيد الدكالي، ( وهو ممن يسكن مدينة بنى (حاضرة مالي) خمسة وثلاثون سنة واضطرب في هذه المملكة . . ) ففي مالي (ملي) انتشرت زراعة الحبوب، وأهمها الأرز، وهو أغلب قوتهم، (وأعمال الري في جمهورية مالي مكنت من زراعة كمية كبيرة من الأرز، حتى أن مالي قادرة على تصدير الأرز بدلا من استيراده، كما كانت الحال قبل الحرب العالمية الثانية)، وإلى جانب الأرز يوجد الغوبى يقول العمري في «مسالك الابصار»، وهو دق مزغب يدرس فيخرج منه شبيه حب الخردل أو أصفر، وهو أبيض، يغسل ثم يطحن ثم يعجن ويعمل منه الخبز، وعندهم الحنطة وهي قليلة، والذرة، (ويسمون الذرة الدخن، كما يقول ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٨٧)، وهي أكثر الحبوب لديهم ويعتمدون عليها في معاشهم وعليق خيلهم واطعام دوابهم، ومازال الدخن المحصول الغذائى الرئيسى في دولة مالي<sup>(٢)</sup>. ويضيف الحسن الوزان (القرن ١٦م)، إلى ما ذكره العمري انه يكثر في مالي القطن<sup>(٣)</sup>.

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٧.

(٢) العمري، مسالك الابصار، مخطوط دار الكتب رقم ٨، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديموبين، ص ٦١.

- Harrison church, west Africa, A study of the environment and of Man's use of it, London 1963, (Fourth edition) part three "the political division, chapter 15. Mali-land of Livestock and irrigation works, p, 251, economic resources" "Agriculture".

(٣) العمري، مسالك الابصار، مطرود، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديموبين ص ٦٢ ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ١٩٦، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ٢٨٨.

- Harrison church, op-cit, p, 251.

وعندهم من الفواكه البستانية الجميز وهو كثير لديهم.

وتنمو لديهم اشجار برية ذوات ثمار مأكولة مستطابة، ومنها شجر يسمى زيروز (زيروز عند القلقشندی)، تخرج ثمره مثل قرون الخروب، ويخرج منها مايشبه بدقيق الترمس حلو لذيد الطعم يشبه طعم الموز.

ويوجد أيضا لديهم شجر اسمه فاريتى يحمل شبيه الليمون، وطعمه يشبه طعم الكمثرى، وبداخله نوى يؤخذ وهو طرى ويطحن فيخرج منه شيء شبيه بالسمن، يجمد، يستعمل في تبيض البيوت، وتوقد منه السرج والقناديل، ويعمل منه أيضا الصابون<sup>(١)</sup>.

ويزرع لديهم أيضا من الخضروات اللوبيا، واللفت، والبصل، والياذجان، والكرنب، وتطلع الملوخيا برية عندهم.

ويزرع أيضا عندهم شيء اسمه القافى، وهو عنزوق رفاق تدفن في الأرض وطعمه شبيه بالقلقاس لكنه ألد من القلقاس وهو يزرع في الخلا<sup>(٢)</sup>. ويقول ابن بطوطة وهي عندهم «أى القافى»، مفضلة على سائر الطعام<sup>(٣)</sup>.

وفي مملكة سنغى (كوكوا) يزرع الأرز بكميات كبيرة، خاصة في مدينة كوكو (جوجو) العاصمة<sup>(٤)</sup>. وعليه يعتمدون في غذائهم.

(١) العمري، مسالك الأبيصار، المخطوط، ص ١٠٦، الترجمة الفرنسية لديومجين، ص ٦٢، القلقشندی، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٢) العمري، نفس المصدر السابق، ص ١٠٧، القلقشندی صبح الاعشى ج ٥، ص ٢٨٩.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ج ٢، ص ١٩٧.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج ٢، ص ٢٠٧، محمود كمت، تاريخ الفتاش، ص ٩٥، ليون الافريقي، وصف افريقية بالفرنسية، ج ٢، ص ٤٧٠.

## الرعاية:

ليست لدينا معلومات كافية عن الرعى في السودان الغربي، ويفهم من رواية أبي الفدا (ينقل عن ابن سعيد)، أن أهل تكروير ينقسمون إلى فريقين: حضر يقطنون المدن، وفريق آخر رحالة في البوادي<sup>(١)</sup>، وهم من قبائل الفلان التي تعيش على الرى وتسكن النجاد<sup>(٢)</sup>. وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي، ولهم في الجنوب أماكن قليلة - على عكس الملنكى والبمير الذين يشتغلون بالزراعة.

ويقول العمري في «مسالك الابصار» (ومعلوماته عن دولة مالي):  
« واغنامهم ومعزهم لامرعى لها وانما هي جلالات على القمامات والمزابيل»<sup>(٣)</sup>.

هذا بينما تعتبر تربية الحيوانات من مميزات السودان الشمالي - ونظرا لان العمل يتطلب الرحلة فان الفلان هم الذين يقومون به<sup>(٤)</sup>.

(١) ابو الفدا، تفهيم البلدان، ص ١٥٣.

(٢) ابو الفدا، ص ١٦٣، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (عن تكروير)، ج ٥، ص ٤٢٨.

(٣) العمري، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديبومين، ص ٦١.

(٤) Trimingham, I.W.A. p. 5.

- ويقول Harrison Church، عن الثروة الحيوانية في مالي. والثروة الحيوانية أكثر أهمية منها في أى بلد في غرب أفريقيا، ماعدا نيجيريا. ويوجد على الأقل ثلاثة مليون وتسعمائة ألف رأس ماشية ومعز.

ونظرا لوجود نهر النيجر، وروافده ووجد التسي التسي Tsetse بقربها، فان ماشية Ndama توجد في منطقة بامكو Bamako وفي الغرب والشرق منها، وتوجد ماشية زبو Zebu في شمال خط ١٥ - ١٦ درجة تقريبا، الزيادة في الثروة الحيوانية تعتمد أساسا على زيادة عدد الآبار والخزانات. وفي اليد الأخرى فان الأراضي المزروعة تتعارض غالبا مع الطرق التي يسلكها القطيع في الارتحال. ويوجد ارتحال كثيف بين المراعى على طول النيجر وروافده. (وبها كلاً ممتاز من نوع

## الصيادون:

يمتصن بوبو (وهم ينتشرون في جنوب غرب نية النيجر من جنى  
وسن San حتى Bobo Dioulasso ) صيد الأسماك، وأيضاً سرك Sorko  
(وهم من السنغى)، وينقسمون إلى عشرينين فرن Faran وفونو Fono  
صيادى أسماك وصيادى حيتان بالحرية<sup>(١)</sup>.

## المعتقدات الدينية قبل الإسلام:

يفهم من القطع المتناثرة التى أوردها البكرى عن معتقدات السودان الدينية  
قبل الإسلام، انهم كانوا يدينون بالمجوسية وعبادة الدكاكير (والذكور عندهم

<sup>==</sup> Gamarwei) ومناطق الرعى في الشمال والشمال الغربي.

ويجب الأنواع العادية من الغنم يوجد غنم ماسنة سيجو وتبكتو في منطقة الدلتا الداخلية. كما وجدت  
محاولة لتجهين غنم بخارى Astrakhan مع الاصناف المرباه مطيا ولكنها انتهت بالفشل.  
وتوجد حركة تصدير هائلة من الماشية إلى دكار Dakar، وساحل العاج Ivory Coast، وغانة،  
وعلى درجة أقل إلى ليبيريا Liberia ونيجيريا Nigeria ويرسل على الأقل ٣٠ ألف رأس  
ماشية وحوالى ١٠٠ ألف رأس معز وغنم سنيا إلى نيجيريا وحوالى ٣٠ ألف رأس ماشية و٩٠  
ألف رأس من الغنم والمعز إلى غانة، ١٤ ألف رأس من الماشية و ٢٥ ألف رأس من الغنم والمعز إلى  
ساحل العاج. والمراكز الكبرى لتجميع وتصدير الفراء والجلود وتوجد في باماكو Bamako  
وكايس Kayes .

Harrison Church, West Africa, A study of the environment and of  
Man's use of it, p, 252 - 253.

(١) محمود كمت، تاريخ الفتن، الترجمة الفرنسية لدلافوس، ص ٤٦، هامش ٣. والنص العربي ص  
٢٧ حيث يذكر رواية أسطورية يفهم منها أن هذه القبائل كانت تمتص صيد الحيتان يقول: ..  
«وولدت سور (أحدى جوارى نوح عليه السلام) بوبو وسرى ... ولدت سبط سرك ونار فلما كبر  
الأولاد اذن لهم نوح عليه السلام أن يرتحلوا مع أمهاتهم فنزلوا في ناحية البحر وصطادوا حيتانا  
بعيشوا بأنفسهم وأتوا له بشيء من ذلك الحيتان ...» والترجمة الفرنسية لدلافوس، ص ٤٦،  
هامش ٦.

Trimingham, A history of islam in west Africa, p, 84.

الصنم) (١) وربما كان لديهم أفكار عن مصير الإنسان، (يدل على ذلك طريقة دفن ملك غانة) (٢)، والاعتقاد في السحر والشعوذة (٣).

وفي وصف البكرى لمدينة غانة يقول: «انه كان يوجد حول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم في نفس الوقت كهنة الديانة، وفيها دكا كبيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس، ولا يمكن لأحد دخولها - محاطة بالسرية - ولا معرفة ما فيها» (٤).

وفيما يتعلق بالوثنية، يذكر البكرى، أن في بلد الدمدم، قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه (٥).

ويقول البكرى أن أهل بلد زافقوا، يعبدون حية كالشعبان العظيم لها عرف وذنب، وهي تسكن في مغارة بالمغارة وعلى مدخل المغارة عريش واحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية ويملقون نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب (٦).

ويقول صاحب تاريخ السودان أن أهل سنغى كانوا مشركين، وكانوا

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٢ - ١٧٦.

(٢) البكرى، المغرب ص ١٧٦، وفي ذلك يقول البكرى: ص ١٧٦ « وإذا مات ملكهم عقنوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا فادخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وأبيته أثنى كان يأكل فيها ويشرب وادخلوا فيها الأطعمة والأشربة وادخلوا معه رجلا ممن كان يخدم طعامه وشرا به واغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والاعتمة ثم اجتمع الناس فمدوا فوقها بالشراب حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم الا من موضع واحد.

(٣) العمري، مسالك الأبيصار، المخطوط، ص ١٠٧.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٧٥.

(٥) البكرى، المغرب، ص ١٨٣.

(٦) البكرى، المغرب، ص ١٧٣.

يعبدون الحوت الذى يظهر لهم فوق الماء فى البحر والحلقة فى أنفه فى أوقات معلومة، (وقته زا الأيمن)<sup>(١)</sup>.

وفهم من رواية السعدى (صاحب تاريخ السودان)، أن أهل مملكة موسى كانوا يقدسون أجدادهم الموتى<sup>(٢)</sup>.

والتنه Tana (المحرم Tabou الطوطم) كما يقول دلافوس، عموما هو أحد الحيوانات التى أنقذ أحد أفرادها جد العشيبة من ظرف عصيب، ولكنه يمكن أن يكون أيضا ولأسباب مشابهة اسم أحد أنواع النباتات (الأرز مثلا أو نوع معين من الأرز) أو نوع من الأشياء المصنوعة (الاقمشة ذات الالوان الزرقاء مثلا).

ويقول دلافوس أن جار Diara كمثال طوطمهم هو الاسد، لأن جدهم الذى كان رضيعا كان على وشك الموت جوعا نظرا لأن أمه لم يكن لديها لبن وقد رضع ثدى لبؤه.

والكوبالى، طوطمهم (محرمهم) السمكة التى انقذت جدهم، والبيبة Bamba الحشرة التى انقذت جدهم من فكى التمساح ... وهكذا<sup>(٣)</sup>.

وفيما يتعلق بالسحر وممارسة الشعوذة، فللسحرة فى السودان وعند النيجير بالذات (وكانوا تحت سلطان مالي)، مهابة كبيرة وهم فى الغالب من طبقة الحدادين ومنتظمون فى جمعيات سرية، - لانعرف عنها إلى الآن الا القليل - وهؤلاء السحرة يتكهنون بالمستقبل وذلك بفحص امعاء الحيوانات (المضحاة)

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٥٤، الترجمة الفرنسية ليهوداس، ص ٧-٨.

(٢) السعدى، نفس المصدر، ص ٢٤، الترجمة العربية، ص ١٢٢.

(3) Delafosse, Les Civilisation Négro-Africaines, p. 66.

ويلقون الرعب والفرع في قلوب السكان وذلك بأعمال الشعوذة والسحر التي يمارسونها، مثل خروجهم ليلا في مواكب خلال القرية، مرتدين الملابس الغريبة اللا معه وعلى رؤسهم قرعات فارغة بها نقوب، وهذه الاعمال كلها تجعل لهم نفوذا كبيرا بين السكان<sup>(١)</sup>.

### اليهودية والنصرانية:

إلى جانب المعتقدات الدينية الوطنية، عرف السودان اليهودية فالأفكار اليهودية دخلت مع المهاجرين اليهود الذين هاجروا إلى السودان الغربي.

ويرجع أول استقرار ثابت لجماعات (اليهود) من افريقية الشمالية، في بلاد السودان، كما يرى دلافوس Delafosse، ربما إلى سنة ١١٥ م، وذلك عقب ثورة اليهود ضد الحكم الروماني في قورينه<sup>(٢)</sup>. وقد اتخذ المهاجرون طريقين مختلفين: جماعة منهم رحلت جنوبا متخذة طريق اير وخلال النيجر الأوسط إلى السنغال وفوته. وهناك لحقت بهم فيما بعد الجماعة الأخرى التي اتخذت طريق جنوب مراكش (المغرب الأقصى) وأدوار مورطانية، وحدث في السودان أن ذابت دماء اليهود في دماء أهل البلاد الذين يمكن أن نلاحظ آثار لدماء اليهودية فيهم<sup>(٣)</sup>. ويذكر محمود كعت، أن تنسرم كان مسكن قوم بني اسرائيل واجدادهم وأبارهم هنالك إلى الآن (أى إلى أيامه، وهو يكتب في

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج٤، ص ١٨١.

(2) Bovill, The golden trade of the Moors London, Oxford University press, 1961, p, 53, Fage, an introduction to the history of west Africa, p, 14.

(3) Bovill, the golden trade of the Moors, P, 54.

وانظر فيما سبق الكلام عن قبائل الفلان.

سنة ٩٢٥هـ) (١).

أما عن النصرانية فتقول رواية أبو عبد الله بن يحيى الزهري التي ينقلها صاحب الحلل الموشية، أنه كان سكان السودان الذين كانت عاصمتهم مدينة غانة «متشرعين فيما سلف من الدهر بدين النصرانية إلى سنة (٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م)» (٢).

ولكن صحة النص كما ورد في كتاب الجغرافية لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري)، الذي قام بنشره وتحقيقه محمد حاج صادق في Bulletin d'études orientales, tome XXI, année 1968, "Damas", 1968.

هو وأهل هذه البلاد كانوا يتمسكون فيما سلف بالكفر إلى عام ستة وتسعين وأربعمائة (وصحتها عام ٤٦٩ كما هو وارد في مخطوط الخزانة العامة بالرباط) (٣).

وكما يقول دلافوس، «ويدون شك فإن التيار المسيحي لم يستطيع كسب السودان أنفسهم، ولكنه من الغريب أن نلاحظ أنه بين الكلمات التي أخذوها

(١) محمود كمت، تاريخ الفناش، ص ٦٢-٦٣، الترجمة الفرنسية لدلافوس، ص ١١٩-١٢٠ «وتندرم تعبير يعني الآبار الكبيرة».

Monteil, Problemes du soudan occidental. Juifs et Judaises Hespéris, tome XXXVIII, 3 et 4 trimestres, année 1951, p, 290.

وعن اكتشاف تندرم بحكي بونيل دوميزير انه رأى هناك مقبرة يقال أنها مقبرة اليهود، حيث كانت توجد عظام على مستوى الأرض أما بالنسبة للآبار فإن التقيضات المتوالية للنيجر قد غطتها، ولكنه فنى أحد هذه الآبار وبذلك تأكد من صحة ماورد في كتاب تاريخ الفناش.

Monteil, Problemes du Soudan occidental: Juifs et Judaises, p,290.

(٢) الحلل الموشية، ص ٧.

(٣) الزهري، كتاب الجغرافية، ص ١٢٥.



الباب الثاني  
الإسلام في بلاد السودان



الفصل الأول  
الإسلام في الصحراء وبداية تعرف  
العرب علي بلاد السودان



## الإسلام في بلاد السودان

### الفصل الأول

#### الإسلام في الصحراء وبداية تعرف العرب على بلاد السودان

لما كانت صحراء المغرب الكبرى - بفضل واحاتها وعيون مائها - هي وسيلة الربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان (انظر ماسبق ص ١٨٠ - ١٨٢) كان من الطبيعي أن يتعرف العرب على بلاد السودان عن طريق الصحراء. الفتوح العربية في الصحراوات الليبية وبداية التعرف على الأطراف الشمالية الشرقية للسودان:

ولما كانت فتوحات العرب الأولى في المغرب قد استهدفت الأقاليم الصحراوية وهي الأقاليم التي تشبه بيئتهم - لم يكن من الغريب أن يتعرفوا على تخوم السودان منذ وقت مبكر. فعندما وجه عمرو عقبة بن نافع سنة ٢٢ هـ<sup>(١)</sup>، إلى صحراوات برقة الجنوبية تقول رواية ابن عبد الحكم أن عقبة بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين<sup>(٢)</sup>.

(١) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الحارث بن عامر بن فهر، القريشي، الفهري، فهو من قريش، ولد على عهد رسول الله، قبل وفاة رسول الله ﷺ بسنة واحدة، دخل عقبة المغرب مع ابن خالته عمرو بن العاص، وكان في بداية مراحل الشباب، وعهد إليه معاوية بن أبي سفيان بولاية أفريقية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م، وتركز أهمية ولاية عقبة هذه في الحملة التي قام بها في تلك السنة والتي انتهت بتأسيس عاصمة عربية جديدة لولاية أفريقية هي مدينة القيروان. وبني المسجد الجامع وطر الامارة. وفي الوقت الذي أتم فيه عقبة بناء القيروان بني الأمر بعزله، وبعد عزله عن أفريقية سنة ٥٥هـ، اتجه نحو المشرق، ومضى إلى دمشق، والظاهر أنه ظل مقيماً بها فترة.. وبعد وفاة معاوية، ولاء يزيد أفريقية للمرة الثانية، استشهد في تهوده سنة ٦٣هـ / ٦٨٢/٦٨٢م.

الملكى رياض النفوس، ترجمة عمدة رقم (٢٩)، ص ٦٢-٦٣، ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ٤٢٢ طبعه القاهرة سنة ١٢٨٦هـ ابن عسار، البيان المغرب، ج ١، ص

ويحتمل انه تم تعرف العرب لأول مرة على السودان في زويله، فهي عند الكتاب العرب أول حد بلاد السودان، ويطلب إليها أكثر الخدم السود<sup>(١)</sup>.

وبعث عمرو بن العاص وهو محاصر لأهل اطرابلس بسرا بن أبي أرطاة إلى ودان عاصمة اقليم فزان<sup>(٢)</sup>، وفزان وودان من أطراف السودان.

غزو واحات الصحراء سنة ٤١، ٤٢هـ:

ظلت حملات العرب في صحراوات ليبيا المؤدية إلى السودان مستمرة ففي سنة ٤١هـ يذكر ابن الأثير أن عمرو بن العاص استعمل عقبة بن نافع ابن عبد قيس على أفريقية فانتهى إلى لواته ومزاته فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبي، ثم افتتح في سنة الثنتين وأربعين كورا من كور السودان. «وافتح ودان». والمقصود بكور من كور السودان في نص ابن الأثير، هو واحات الصحراء، ويفهم من هذه النصوص، أن واحات الصحراء، كانت معمورة بالسودان.

وفي نفس السنة أيضا ( سنة ٤٢هـ) افتتح غدامس<sup>(٤)</sup>، وهي مدينة في الصحراء في قبلة (جنوب) بلاد الجريد على الطريق إلى مملكة الكانم<sup>(٥)</sup>.

= ١٩. أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ١٣٤، ص ١٤٢، ١٤٦، ١٥٣، ص ١٦٩.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٣٠، البكري، المغرب، ص ١٠، الاستبصار، ص ١٤٦، ابن الأثير، الكامل، أحداث، سنة ٢١، ج ٣، ص ٩.

(١) الاصلحوى، مسالك الممالك، ص ٤٤، البكري، المغرب، ص ١٠.

(٢) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٦٢، أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٩٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، أحداث سنة ٤١هـ، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٤) ابن عشاري، البيان المغرب، ج ١، ص ١٥.

«وغماس مدينة لطيفة بالمغرب جنوبية، ضاربة في بلاد السودان، وأهلها يربر مسلمون وبندامس دواميس كانت سبغا للكاهنة التي كانت بأفريقية، وتلدغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أحواد الدباغ.»

البكري، المغرب، ص ١٨٢، ياقوت معجم البلدان، ج ٦، ص ٢٦٨.

(٥) القفشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٨.

## غزوات العرب في صحروات جنوب طرابلس:

وفي سنة ٤٦ هـ / ٦٦٦ م، خرج عقبة من مغلناس من أرض سرت<sup>(١)</sup>،  
ومعه اربعمائة فارس، وأربعمائة بعير، وثمانمائة قرية ماء ( لأنه سيعبر صحراء  
موحشة جرداء، ولا بد أن يتزود بالماء )، وكان يرفقته بسر بن أبي أرطاة وشريك  
بن سمي المرادي<sup>(٢)</sup>، ووصل ودان<sup>(٣)</sup>، وخضعت له، ولكن عقبة أخذ  
ملكهم وسلم أذنه، وأخذ عقبة الضريبة المفروضة على مدينة ودان وهي ٣٦٠  
رأساً (ثلاثمائة وستون) رأساً<sup>(٤)</sup> وربما كانت من العبيد، خاصة وأن بلاد  
فزان تعتبر باب السودان من حيث يجلب الرقيق<sup>(٥)</sup>. ويلاحظ الوصول إلى  
ودان هنا لثالث مرة؟ والهدف من مواصلة غزو نفس المنطقة هو: الاستقرار  
السياسي، ونشر الإسلام.

ثم سأل عقبة أهل ودان عما وراءهم من البلاد فقالوا جرمة (عاصمة  
الجرميين Garamantes القديمة). فسار متوجها إليها ووصلها بعد مشى ثمانى  
ليال، فلما اقترب منها وأصبح على مسافة ستة أميال، دعا أهلها إلى الدخول  
فى الإسلام فوافقوه، وخرج ملك المدينة كما تقول الرواية، راكباً للقاء عقبة  
الذى أرسل بعض فرسانه فأنزلوا الرجل من ظهر مطيته وأمشوه، فما وصل

(١) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ١٢٨، ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص

٢٦٢، البكرى، المغرب، ص ١٢ (يقول غنناس من أرض سرت)، وعن مغلناس، ص ٧.

(٢) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٦٢، وقارن البكرى، ص ١٢ (حيث يسميه شريك ابن  
سحيم المرادى).

(٣) ودان جزيرة (واحة) فى جنوب مدينة سرت وكانت مضمومة إليها، وهى جزائر نخل متصلة بين  
غرب وشمال إلى ناحية البحر ويشتهر بالشعور الرطبة. ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ٦٧.

(٤) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٩٢.

(٥) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ١٢٨، ١٣٩.

الزعيم الجرمي الناعم إلى عقبة حتى كان يصبق الدم. وعندما ما احتج الرجل على تلك المعاملة العنيفة مع أنه أتى طائعا، رد عليه عقبة بأن ذلك أدب له حتى لا يفكر في حرب العرب. كما فرض على الجرميين ضريبة مماثلة لما كان يدفعه أهل ودان أي ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) عبدا. (١)

وسأل عقبة عن الأقاليم الواقعة فيما وراء فزان فدلوه على أقليم كوار (٢)، وعاصمتها خاور وهي قصر عظيم على رأس المغازة (٣)، واستمرت الرحلة إليها خمسة عشر ليلة، وحاصروهم عقبة شهرا دون جدوى، ثم فاجأهم ليلا وأنزل بالمدينة عقوبة رادعة حيث استباح ما فيها من ذرايبهم ونسايهم واستولى على الأموال، وقتل المقاتلة (٤).

وهكذا انتهت أول جولة كبرى في صحراوات جنوب طرابلس، ورجع عقبة محملا بالمغانم والسبي إلى قاعدته الأولى في مخراس مارا يزويلة، بعد خمسة أشهر. وكان من نتائج تلك الغزوة تثبيت سلطان العرب في الصحراء، ونشر الإسلام بين قبائل البربر هناك (٥).

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٢ - ٢٦٣. أ.د. سعد زغلول تاريخ المغرب العربي، ص ١٢٩، وقارن البكري، ص ١٣ (حيث يقول النص عن الضريبة أنها ٣٦٠ عبدا وليس رأسا).

(٢) كوار ومنها يخرج الشب المعروف بالشب الكواري، ولا يمد له شيء في الطيب، وبلاد كوار يحويها بطن واد يأتي من جهة الجنوب، مارا إلى الشمال، لأماء به إلا أن الماء إذا حفر عليه وجد به معينا كثيرا، الأندلسي، صفة المغرب ص ٢٨.

(٣) المنار، والمغازة: البرية القفر، وتجمع المغازر، وسميت الصحراء مغازة لأن من خرج منها وقطمها فازه، ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت، ج ٥، ص ٣٦٣.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٢، ٢٦٣.



نشاط العرب في صحراوات المغرب الأقصى والأطراف الشمالية للسودان  
الغربي:

بعد أن تعرف العرب على صحراوات برقة وطرابلس حتى أعماقها الجنوبية  
كان من الطبيعي أن يواصلوا جولاتهم في صحراوات المغرب الغربية. ففي سنة  
٦٢ هـ / ٦٨١ م. بعد ولاية عقبة الثانية اجتاح صحراء المغرب الأوسط، ووصل  
إلى صحراوات بلاد مراكش.

ولما كان هدف عقبة هو الاحتساب والعمل في سبيل الله، فإنه اجتهد في  
نشر الإسلام لأول مرة في صحراوات بلاد مراكش<sup>(١)</sup>. وتوغل حتى درعة  
حيث بنى فيها مسجدا<sup>(٢)</sup>، ثم سار عقبة مع وادي درعة إلى الشمال بعد أن  
أرغل في الصحراء بعض الشيء - في اتجاه تاقللت - ثم دار حول الأطلس  
الكبرى، ووصل إلى هذه السلسلة المتهيلة من الجبال عند سفحها الشرقي،  
واستولى على بلدة أغمات ونفيس، ومن وادي نفيس سار عقبة حتى نزل  
يوادي سوس (السوس الأقصى)، واتجه إلى عاصمته وهي مدينة ايجلى التي  
بنى فيها مسجدا هي الأخرى<sup>(٣)</sup>. وهناك أرسل إلى قبائل جزولة فوصلوا إليه  
ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا ووقفوا إلى منازلهم<sup>(٤)</sup>، وترك فيها رجالا لينشروا  
الإسلام بين أهلها<sup>(٥)</sup>.

وهناك عدد من الروايات، تزعم أن حملة عقبة امتدت حتى بلاد السودان،

(١) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ١٦٣.

(٢) ليفي بروفنسال، نص جديد من فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصري بباريس، سنة

١٩٥٤، دراسة بروفنسال، ص ٢٠٨، ابن عشاري، البيان المغرب، ج١، ص ٢٧.

(٣) ابن عشاري، البيان، ج ١، ص ٢٧، النص الجديد، ص ٢٢٠.

(٤) بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، ص ٢٢٠، ابن عشاري، البيان، ج١، ص ٢٨.

(٥) النص الجديد، ص ٢١٢.

وتقول أنه «فتح التكرور حتى غانة»<sup>(١)</sup> لكن صممت المؤرخين الكبار الموثوق بهم (كما يقول De la chappelle)، بمنعنا من القول بأنه وصل إلى بلاد السودان<sup>(٢)</sup>، باستثناء رواية يذكرها ابن عذارى نقلا عن ابن عبد البر يقول فيها: «فتح عقبة بلاد البربر، إلى أن بلغ طنجة، وجمال هنالك، لا يقاقله أحد، ولا يمارضه حتى فتح كورة من كور السودان»<sup>(٣)</sup>. ويمكن قبول هذه الرواية على أن صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) مترامية إلى تخوم السودان، وكذلك المغرب يمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر<sup>(٤)</sup>. كما يمكن أن يقال أيضا أن مملكة غانة كانت تمتد داخل الصحراء في الشمال. إذ أن ملوك غانة كما يقول ابن خلدون كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب المغرب<sup>(٥)</sup>.

ونجد في البكري رواية تقول: «بلاد غانة قوم يعرفون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية انقلوه إلى غانة في صدر الإسلام، ويسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان»<sup>(٦)</sup>. وهذه الرواية يمكن أن تؤيد الروايات التي تشير إلى أن عقبة وصل إلى تخوم السودان المغرب الأقصى، وذلك أن فتوحات موسى بن نصير (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٤ م) رغم أنها اتهمت فتوح العرب في المغرب الأقصى - فإن الروايات لا تشير إلى أنه وجه جيوشا نحو بلاد السودان. هذا ومع أن خلفاء بني أمية المتأخرين انشغلوا بعد ذلك باضطراب

(1) De la chappelle, Histoire du Sahara occidental, p. 55.

(2) نفس المرجع، ص ٥٥.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٨.

(4) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٣.

(5) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ١٩٩.

(6) البكري، المغرب، ص ١٧٩، الترجمة الفرنسية لتسلان، ص ٣٣٤.

بلاد المغرب فيمكن أن تتفق رواية البكري مع النصوص التي تشير إلى أنه من ولاية عبيد الله بن الحجاج (١١٦ هـ/٧٣٥ م)، توغل قائده حبيب بن أبي عبيده الفهري في السوس الأقصى نحو الجنوب حتى بلغ أرض السودان<sup>(١)</sup>.

والمقصود بذلك الصحراوات الجنوبية من بلاد مسوفة ولتونه الصنهاجية المؤدية إلى مدينة أودغست (أولى بلاد السودان)<sup>(٢)</sup>. وانتهت الحملة بنجاح كبير، فخضعت القبائل في تلك الأقاليم وعاد حبيب بعدد وفير من السبي وبأحمال من التبر<sup>(٣)</sup>.

### هل فتح العرب السودان الغربي؟

وهكذا تم للعرب فتح المغرب ونشروا الإسلام حتى تخوم بلاد السودان. وهنا يمكن أن نتساءل لماذا لم يوجه العرب نشاطهم في هذا الوقت المبكر عبر الصحراوات الجنوبية إلى بلاد السودان الغربي (غانة - مالي - كوكوا)، وخاصة أن هذه الأقاليم تشبه تماما البيئة الصحراوية العربية.

ويمكن الرد على ذلك بأن العرب كانوا قد عرفوا بلادا غنية في الشام وفي مصر وفي أفريقية وأسسوا فيها قواعد راسخة للإسلام، وأنهم تبعوا لذلك فضلوا توجيه انظارهم نحو الأندلس وخيراتها الوفيرة بدلا من بلاد السودان التي كانوا يجهلون بها والتي تصوروا أنها كانت آخر المعمور من الأرض<sup>(٤)</sup>. وهكذا قدر للإسلام في المغرب أن ينتظر أكثر من ثلاث قرون قبل أن يتوغل

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٩٢، ان عفازي، البيان، ج ١، ص ٥١.

(٢) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٥٠.

(٣) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٩٢.

(٤) القلقشندي، صيغ الأقاليم، ج ٥، ص ٢٧٢، يقول عن بلاد السودان: «وهي بلاد متسعة الأرجاء، رحبة الجوانب، حدها من المغرب البحر المحيط بالنيل، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء...».

فى قلب بلاد السودان وذلك مع مطلع القرن الخامس الهجرى ويفصل قبائل  
صنهاجة أصحاب اللثام. هنا وأن ظل العرب يطرقون أطراف الصحراوات  
الغربية الجنوبية التى كانت بمثابة أبواب لبلاد السودان.

الفصل الثاني  
انتشار الإسلام في بلاد  
السودان



## الفصل الثاني

### انتشار الإسلام في بلاد السودان

على عكس بلاد المغرب التي بدأ الإسلام ينتشر فيها بسرعة مع انتشار القوات العربية الفاتحة، كان دخول الإسلام إلى بلاد السودان وتبدأ وبالطرق السلمية. والذي يفهم من المصادر العربية الأولى أن الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل التجار التي كانت تتردد ما بين المغرب وبلاد السودان. ولما كانت الصحراء هي وسيلة الربط بين البلدين كما بينا في الباب الأول (ص ٢٩) كان من الطبيعي أن يقوم أهل الصحراء بالدور الرئيسي في إقامة العلاقات التجارية فيما بين شمال صحرائهم وجنوبها وفي نشر الإسلام في نفس الوقت.

وهكذا كان فضل دخول الإسلام إلى السودان الغربي من نصيب قبائل صنهاجة أهل اللثام بصفة خاصة.

والعلاقات التجارية بين البلدين قديمة ترجع إلى ما قبل الفتح العربي للمغرب - إلى أيام قرطاجة. فقد كان القرطاجيون على علاقة وثيقة بأفريقية السوداء عن طريق الصحراء الكبرى<sup>(١)</sup>. وكان حجم مدينة لبس ماجنا *Leptis Magna* الرومانية وازدهارها الواضح الملموس والتي كانت تلاصق طرابلس الحالية يمكن تفسيره في ضوء موقعها عند نهايات طرق التجارة التي كانت تعبر الصحراء الكبرى مختربة جنوب فزان. وكذلك يقال أن مدينة *Lixus* القرطاجية الواقعة على الساحل المراكشي المطل على المحيط الاطلنطي يعكس أيضا موقعها عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا. ولقد كتب هيروdot في القرن الخامس قبل الميلاد تقريرا يقول أن جماعات الجرمنت

(١) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصوري، ص ٧٠.

Germantes وهي جماعات بربر فزان قد نمودوا على الاغارة على الأنثيوبيين (وكان يقصد بالطبع الزوج) بعرباتهم التي يجر الواحدة منها أربعة خيول وهذا التفسير يوضح بما لا يقبل الشك صحة ماترويه الرسوم العديدة على الصخور التي وجدت مرسومة على طريقين رئيسيين كلاهما يقود إلى ثنية النيجر العظيم. وكانت عبارة عن عربات تجرها الخيول وكان الطريق الأول من فزان والثاني من جنوب مراكش. وهذه الطرق بدورها تؤيد الفروض العلمية التي أثيرت بشأن كلتا المدينتين السابق ذكرهما. كما ترتبطان بأنتتين من طرق القوافل الرئيسية في الأزمنة التاريخية.

ومنذ أن حل الجمل محل العجلات في الصحراء الكبرى صار من المؤكد أن هذه الرسوم ترتبط بالأزمنة القديمة. ولو ربطنا ذلك بملاحظات هيرودوت لتوصلنا إلى دلائل واضحة تشير إلى وجود علاقات منتظمة بين شعوب البحر المتوسط وزنوج أفريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل.

ولقد كانت القبائل البربرية الرعوية تمثل العامل الوسيط بطبيعة الحال في مثل هذه العلاقة عبر الصحراء<sup>(١)</sup>.  
العلاقات بين السودان وأفريقية:

وعقب الفتح استمرت العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان، بل وازدهرت نتيجة للجهود التي قام بها الولاة العرب. فقد قام والي (عامل) المغرب عبد الرحمن بن حبيب<sup>(٢)</sup>، ببناء مجموعة من الآبار يحددها لنا

(١) رولاند أوليفر جون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق، القاهرة ١٩٦٥ (سلسلة دراسات أفريقية ٢)، ص ٦٦، ص ٦٧.

(٢) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبده بن عقبة بن نافع الفهري - حفيد عقبة - تغلب على



البكرى على طول الطريق الموصل من تامدلت إلى مدينة أودغست والتي ذكرناها في وصف الطرق الموصلة إلى السودان (ص) من بحر الجبالين، وبيرو ويطوفان. ولاشك أن العناية بالطريق أكد الصلة بين أفريقية وبين السودان وعمل على التقليل من المشقة والاختار التي كانت تتعرض لها القوافل التجارية التي كانت تقطع الطريق إلى بلاد السودان، وازدهرت تبعا لذلك حركة التجارة. وعمل أيضا على انتشار الإسلام في بلاد الملثمين حتى أودغست أولى بلاد السودان. وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتم ما بدأه جده عقبه من حوالي نصف قرن.

### العلاقات بين السودان وأفريقية والمغرب الأوسط:

وقد لاقت التجارة مع السودان اهتماما كبيرا من أباضية الرستميين في تاهرت (سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م إلى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م)، يقول نص ابن الصغير: «واستعلمت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»<sup>(١)</sup>.

ونشطت تجارة المغرب مع بلاد السودان على أيام الفاطميين، وكان بين الزبيريين (بنو زبيرى بن مناد خلفاء الفاطميين في حكم المغرب)، وبين ملوك

<sup>١١</sup> أفريقية سنة ١٢٧ هـ واستقل بها عن الخلافة العباسية سنة ١٢٧ هـ، نجح في تكوين ما يمكن أن يشبه بأسرة ملكية في أفريقية سنة ١٢٧ هـ - قتل في أوامر سنة ١٢٧ هـ.

ابن عبد الحكم، فتح مصر والمغرب، طبعة عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٠٠ - ٣٠١، ابن عذري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب نشر وتحقيق ج. من كولان، أليفي بروفنسال، ليدن ١٩٤٨، ج ١، ص ٦٠ - ٦٨، الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص ٢٩٩، Ch.A. Julian, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1952, p. 31.

(1) Ibn Saghir, chronique sur les imams rostomides de Tahert, par motylinski, extrait du tome IV des actes du XIV e congrés internationale des orientalistes, paris, 1907, p. 13, trad Franc, p. 68.

السودان علاقات طيبة، بدليل وصول هديه في سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م من بلد السودان (غانة) لابي مناد باديس بن أبي الفتح المنصور فيها زرافة<sup>(١)</sup>.

ووصلت أيضا إلى المعز في سنة ٤٢٣هـ / ١٨ ديسمبر ١٠١٣م، هدية جليلة من ملك السودان، كانت تتضمن رقيق كثير وزرافات، وأنواع من الحيوان غريبة<sup>(٢)</sup>.

### العلاقات بين السودان والمغرب الأقصى:

أما عن العلاقات بين السودان والادارسة في المغرب الأقصى فليست لدينا نصوص صريحة عنها. ولكن نسبتين من الرواية التي يوردها الادريسي، والتي تقول أن ملك غانة من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أنه كان ثمة علاقات بين السودان والادارسة.

### مسالك التجارة أو الطرق المؤدية إلى السودان:

كانت التجارة المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان تسلك ثلاث مسالك رئيسية: في الشرق كان الطريق الذي يربط افريقية بالسودان يبدأ من طرابلس، ومنها إلى فزان وكوار، ثم يتجه إلى مملك البرنو، وهو الطريق الجرمتمى القديم<sup>(٣)</sup>.

وفي الوسط (أي مع المغرب الأوسط)، طريق غدامس غات إلى اير ومنها إلى ممالك الحوصة.

(١) ابن عشاري، البيان المغرب، ج١، ص ٢٤٦، الترجمة الفرنسية لغانيان Fagnan الجزائر ١٩٠١م، ج١، ص ٣٦٢.

(٢) ابن عشاري، نفس المصدر، ص ٢٧٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤١٠.

(3) Bovill, The golden trade of the Moors, P.235.

وفي الغرب مع المغرب الأقصى طريق سجلماسة اودغست غانة (أو سجلماسة - تغازى - ايالاتن) زمن ابن بطوطة (في منتصف القرن الثامن الهجرى / ١٤م) - وفيما بعد (في القرن ١٦م، على أيام ليون الأفريقي)، أصبح الطريق ينحدر من سجلماسة إلى تغازى ثم إلى أروان ومنها إلى تنبكتو<sup>(١)</sup>.

وفي كل من هذه الطرق كانت توجد مناطق كبيرة خالية من الماء، بحيث لا تستطيع القوافل الثقيلة الحمل عبورها الا في خطورة بالغة بالرغم من ذلك فان تجربة الزمن اثبتت انها آمن وأقصر الطرق بالنسبة للتجارة. ومن وقت إلى آخر فان طرقا أخرى قد استعملت ولكنها اهملت لعدم وجود الآبار أو المراعى. وعلى الطرق الثلاث القديمة كان يوجد الضمان الأكثر لوجود الماء والكلال<sup>(٢)</sup>.

ولم يظهر طريق فزان كوار الا قليلا جدا في السجلات التاريخية، ولكنه لا يوجد شك انه هو أسهل طرق القوافل عبر الصحراء، كان استعماله دائما. وبالرغم من أن طريق فزان كوار كان يحمل كمية كبيرة من الملح في اتجاه الجنوب من واحة بلمه فانه كان أساسا طريقا للعبيد<sup>(٣)</sup>، الذين كانوا يمثلون حينذاك سلعة من أهم السلع ونسبتين ذلك من وصف ابن بطوطة فقد قفل

---

(١) انظر مابوق الفصل الخامس بالصحراء والسودان Raymond Mauny, Note sur Les grands Voy ages de Léon L'Africain, Hespéris, tome XLI, année 1954, p. 389.

(2) Bovill, op-cit, p, 235.

(3) Bovill, The golden trade, p, 243.

- ويقول اليعقوبى (كتاب البلدان، ص ٣٤٥)، ورواه زويه على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياء أكثرهم بربر وهم يتون بالسودان

من تكدا إلى المغرب في رفقة مكونة من ستمائة (٦٠٠) خادماً<sup>(١)</sup>.

وقد كان العرب يقتنون الاساود المستجلبين من بلاد السودان ويتخذون منهم عسكريا، وحرما وخداما، وخصيانا ليقوموا بالخدمة وسط الحرير<sup>(٢)</sup>.

وابراهيم بن الاغلب (حكم افريقية من سنة ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١٢ م) أول من استخدم السودان في عسكريه، وبلغ عددهم في أيامه عشرة آلاف<sup>(٣)</sup>.

وتقول رواية ابن عذارى عن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، في أحداث سنة ٢٧٩ هـ، انه استخدم السودان في عسكريه بعد قتله للفتيان الصقالبة، «وقرب السودان من قصره وقد كان جمع منهم خمسة الاف أسود»<sup>(٤)</sup>.

وفي أحداث سنة ٣٧٣ هـ يقول ابن عذارى: «اشترى عبد الله بن محمد الكاتب عامل افريقية العبيد السودان وجعل على كل عامل من ثلاثين عبدا إلى مادون ذلك...»<sup>(٥)</sup>. ويقول (في سنة ٤٦٤ هـ). «وفيها قوى الأمير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان...»<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ٢١٠.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ١٢٣، فيرون، الصحراء الكبرى، ص ٨٤.

(٣) عن استخدام ابن الاغلب للسودان انظر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٣٦٦، حسن حنفي عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس طبعة تونس ١٣٧٣ هـ (الطبعة الثالثة)، ص ٦٥.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ١٢٣.

(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ٢٢٨.

(٦) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ٥٧.

وتقول رواية ابن القبطان صاحب «نظم الجحمان»، في اخبار سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وفي هذه السنة وصل إلى علي بن يوسف خبير من مدينة بلنسية أن ابن ردمير عازم على الخروج إلى بلاد المسلمين، فخشي أن تكون حركته كالتى كانت فى سنة عشرين فقسط على الرعية سودانا يغزون فى العساكر، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وملاحهم ونفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا<sup>(١)</sup>.

واستمر استخدام السودان فى الجيش وكجرس على أيام الموحدين ( ٥١٥ هـ - ٦٦٨ هـ) ويقول العمري فى «مسالك الابصار»، عند كلامه عن ركوب سلطان الموحدين لاداء صلاة العيدين وقدامهم جماعة يقال لهم جناوة، وهم عبيد سود بأيديهم حراب فى رءوسها رايات من حرير، وهم لايسون جيايا بيضا ومقلدون بالسيوف<sup>(٢)</sup>. وهؤلاء الخدم كانوا يجلبون كما تقول الروايات من بلاد للمم (وهى فى جنوب النيل نهر النيجر)<sup>(٣)</sup> وهم كفار والجهل يغلب عليهم، ويجلب الرقيق أيضا من قبائل موسى (وهم من الكفار)، وبعض فلان

(١) ابن القبطان، نظم الجحمان، تحقيق الدكتور محمود على مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، ص ١٠٩.

(٢) العمري، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية للهيوميين، ص ١١٤، القلقشندي، صبح الاعشى، جزء ٥، ص ١٤٦، (ينقل عن العمري) ولكنه يسميهم «جناوة».

(٣) الادريسي، صفة المغرب، ص ٤، ابن خلدون، المقدمة، طيمة التجارية، ص ٥٤. وللم يسميهم البكري «الندم»، على نهر النيجر بين كوكو وتادمكة، وهوليس اسم قبيلة معينة. وفى لغة الفلان أصبحت نيام nyam-nyam من الكلمة الفلانية نيام nyam وتعنى يأكل، والتي نقلتها الكتابة العربية محرقة إلى نتم وبعيد. وأبو الفدا ينقل عن ابن سعيد «أن نتم هم أخوة للمم فى النسب».

البكري، المغرب، ص ١٨٣، الاستبصار، ص ٢٢٥، وأبو الفدا، تقويم البلدان، جزء ١، ص ١٥٣، جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطة ص ٣٧٩ هامش ١٥.

(الفلاته)، وهي قبائل من كفار السودان<sup>(١)</sup>. وبعد خطفهم من قراهم كما يفهم من الروايات، كانوا يساعون للتجار الاتين إلى بلاد السودان، وهؤلاء بدورهم كانوا يجمعونهم لنقلهم عبر الصحراء، وعلى حين كانوا يشدون وثاق الرجال، كانت النساء والفتيات يمتطين الابل، وبعد أن تقف القافلة قليلا في فزان تستأنف الرحلة في اتجاه طرابلس، حيث يساع الذين لايزالون من العبيد احياء بثمان مرتفع<sup>(٢)</sup>.

وبذكر لنا ابن بطوطة انه اشترى خادم «معلمة»، بخمسة وعشرين مثقالا<sup>(٣)</sup>، وهو بلا شك ثمن كبير. ويقول ابن بطوطة في موضع آخر «ان أهل مالي وايبواتن (ولات) لا يبيعون المعلمات (من الخدم)، الا نادرا وبالثمان الكثير<sup>(٤)</sup>».

وربما لم يكن طريق غدامس اير<sup>(٥)</sup> أقل قدما من طريق تغازي. حيث يمر

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٥٤ يقول عن المم «وهم كفار ويكتون في وجوههم واصداغهم الايريس، صفة المغرب، ص ٤، الترجمة الفرنسية، ص ٤، السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٦٤ ينقل عن أحمد بابا في معراج العمود «ومن الفلان انظر ماسبق الفصل الخامس بسكان السودان».

(٢) يفهم ذلك من رواية ابن خلدون الخاصة بلعلم اذ يقول: «وأهل غانة والتكرور يبيعون عليهم ويسبونهم ويجمعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم. المقدمة، طبعة التجارية، ص ٥٤. Bovill, The golden trade of the Moors, p, 244.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة ج ٢، ص ٢٠٨.

(٥) اير أو اسين إقليم جبلي في الصحراء الكبرى بين خطي عرض ٢٠ و ٢٦ شمالا، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٢٨٠ ميلا، وعرضه في جزئه الأوسط من الشرق إلى الغرب ٦٠ ميلا، وتقدر مساحته بنحو ٥٨٠٠ متر مربع وتراوح عدد سكانه بين ٦٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة.

وهو الآن من الاقاليم الافريقية التي لا يعرف عنها الا القليل، وقد اكتشفه بارث Barth عام ١٨٥٠، ثم زاره د. باري E. De barry الذي منه الاصل من التوغل فيما وراء اجير.

بالأرض الصخرية. فإن الآثار العميقة (في الصخر) تؤكد قدمه والحمولة الكبيرة لحركة التجارة التي حملها. ولا يبدو أن مجرى الطريق قد تغير ابدا والطريق بين غدامس وغات خلال النصف الأول من القرن الماضي، كان يسيطر عليه طوارق أزجر المتوحشين<sup>(١)</sup>. وبين غات واير، حيث يمر على جزء من أسوأ المناطق الصحراوية في العالم ويقع منتصفه في بلاد « Kelowi » وفي أزواة أو ازوي يلحق به طريق نوات إير الذي يخترق سلسلة جبال الحجار ويتحكم فيه طوارق الحجار<sup>(٢)</sup>.

وكان أكبر الطرق الثلاثة هو طريق سجلماسة تغازي (تغاز - تغازة) تنيكت، الهام بالنسبة لتجارة الذهب والأهم كمعبر ثقافي<sup>(٣)</sup>.

وتعد سجلماسة أهم موانئ الصحراء، وبينها وبين بلاد السودان وسائر البلاد. تجارة غير منقطعة<sup>(٤)</sup>، وقد ازدادت أهمية سجلماسة بعد ترك الطريق

= ويرجع مكانة إير في الحياة الاقتصادية للصحراء الكبرى أولا وقبل كل شيء إلى أنه على ملتقى طرق القوافل المستندة بين سكت وإقليم النيجر من ناحية وتوات وغات وخدامس وملاحات بلمة من ناحية أخرى، ولذلك تتنازع قبائل إفريقية مختلفة هذا الإقليم بيد أنه لا يصلح كثيرا لقيام حكومة قوية فيه. وذكر الحسن ابن محمد الوزان الزياني إير لأول مرة في القرن ١٦ ويظهر أن اسم هذا الإقليم القديم هو اسين ولا يزال يعرف به عند السكان السود. دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، ج ٣، ص ١٨٨، ص ١٨٩، ص ١٩٠.

(1) Bovill, The golden trade, pp, 237-238.

(٢) وعن طوارق الحجار انظر ابن بطوطة الرحلة، ج ٢، ص ٢١٠، والترجمة الإنجليزية لجب، ص ٢٢٧ - ٢٢٨. Bovill, op-cit, p, 238.

(3) Bovill, op-cit, p, 235.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ج ١، ص ٩٩.

وسجلماسة (بكسر السين والجيم وسكون اللام) مدينة قديمة بحرية، في أقصى جنوب المغرب (مراكش) بالقرب من الريسني الحالية، وكانت العاصمة التاريخية لمنطقة تافيلالت - وأسست في سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨ م)، والذين بنوها هم الخوارج، وصفها ابن حوقل (في القرن

الموصل بين مصر وبلاد السودان وغانة على ظهر الواحات (كما سبق القول في الفصل الخاص بالصحراء) فانتقلوا عنه إليها<sup>(١)</sup>. وأصبحت القوافل تعبر الطريق بالمغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق، وتجار البصرة والكوفة، والبيداديون الذين كانوا يجتازون ذلك الطريق<sup>(٢)</sup>. «وقد عظمت المدينة في عهد المرابطيين (٤٣٠هـ / ٥٣٩م) الذين وجهوا جهودهم نحو بلاد السودان التي كانت سجلماسة بابها ولهذا السبب اعتبرها صاحب الاستبصار من أعظم مدن المغرب<sup>(٣)</sup>. وهي مقصد للوارد والصادر كما يقول الإدريسي<sup>(٤)</sup>، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولاهلها جرعة على دخولها<sup>(٥)</sup>».

<sup>١</sup> (الربع الهجري) والبكري في القرن الخامس الهجري، قال عنها: «وهي كثيرة النخل والاعناب وجميع الفواكه.. ويستورد فيقول أن أرض سجلماسة كانت تزرع عاما وتحمض من تلك الزريعة ثلاثة أعوام لأنه بلد مفرط الحر فاذا يسر زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة فيرفع ما تناثر منه في تلك الشقوق فاذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في الثالث... ويتميز نساؤهم كما يقول باقوت بالحنق في عزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب يبيع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ لمن الأزار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر كارتفاع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك... ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٩١، البكري، المغرب، ص ١٤٨-١٥١، الإدريسي، سلسلة المغرب، ص ٦٠-٦١، الترجمة الفرنسية، ص ٦٩-٧٠ باقوت، معجم البلدان، طبعة وستفالد، ج٢، ص ٤٥-٤٦، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ١٦٣ وما يليها، ency de l'islam, vol IV, p, 633, Tafilat et vol IV, p, 419, "Sidjilmasa"

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٩١، ص ١٥٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ٦١.

(٣) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٤٠٣.

(٤) الإدريسي، صفة المغرب، ص ٦١، الترجمة الفرنسية لدوزي ودجويه، ص ٧٠.

(٥) باقوت، معجم البلدان، طبعة وستفالد، ج٢، ص ٤٦، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، ص ٤٢.



وظلت سجلماسة تحتفظ بأهميتها إلى أن خربت في أواخر سنوات القرن الثامن عشر، وكانت قد بدأت في الاضمحلال منذ عصر ليون. وحلت محلها مدينة Abuam المجاورة الموجودة في إقليم المغرب الأقصى. ولكن أغلب التجارة تركت تافيلالت وبعضها ذهب إلى عين صالح عاصمة نوات التي كان الوصول إليها سهلا من مراکش على طول وادي سواره "Saura"، وذهب بعض التجار غربا إلى "Lektawa" في وادي درعسة، وإلى وادي نون<sup>(١)</sup>. وكان التجار الذين يتاجرون مع السودان من وادي نون Abuam يسافرون عن طريق Akka التي حلت محل سجلماسة في تزويد وتجهيز القوافل عبر الصحراء. ومنها على طول الطريق القديم عبر تغازي و Taodeni<sup>(٢)</sup>. إلى تنبكتو بدلا من الاتجاه غربا عند تنورد إلى ولات (مثل ودان في اضمحلال الآن ولكنها لازالت مشهورة بكفاءة صناع الذهب)، فإن الطريق قد تبع المسار المباشر خلال أروان<sup>(٣)</sup>.

ومعدن الذهب والفضة سمي معدن لانبات الله فيه جوهرهما وإياه إياه في الأرض حتى عند أي نبت فيهما.

وقال الليث المدين مكان كل شيء يكون فيه أصله ويميدوه نحو معدن الذهب والفضة والأشياء. وفي الحديث فمن معادن العرب تمالوني قالوا نعم أي أصولها التي يسيرون إليها ويتفاحرون بها وفلان معدن للخير والكرم إذا جيل عليهما على الثلث. ابن منظور، لسان العرب، ج ١٧، ص ١٥٠ - ١٥١.

(1) Bovill, The golden trade, p, 235.

(٢) غلق معدن تغازي، واصدار اسكى سنى امرا بالآ يذهب إليه أحد كباره بالنسبة لشعب النيجر الأعلى، نظرا لأنه إلى جانب الساحل، كان مصدرهم الوحيد للحصول على الملح، لكن ذلك الحدث دفعهم إلى اكتشاف معدن ملح جديد نهر عند تنورد Taodeni في سنة ١٩١٤ هـ / ١٥٨٥ م، وهو يقع بين تغازي وتنبكتو. السعدى، تاريخ السودان، ص ١٢١، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ١٩٤، Bovill, op-cit, p, 144.

(٣) أروان، ناحية تقع على بعد ٢٥٠ كيلو متر في شمال تنبكتو، على طريق هذه المدينة إلى Taodénit وإلى تدراف. دلافوس وهوداس، ترجمة تاريخ الفتاش بالفرنسية، ص ٣٧، هامش

وهناك فقد التحق به طريقان اخران، احدهما يجرى عبر نواب وميروك إلى تنبكتو (تنبكت)، والاخر يأتي من سنسندنج "Sansanding" على التينجر الأعلى.

وكان هذا الطريق تسيطر عليه قبيلة مسوفة (أصحاب اللثام)، ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل، ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان، كما يقول ابن حوقل، (التاجر النصيبي)<sup>(١)</sup>، وظلوا يسيطرون عليه حتى زمن ابن بطوطة ( القرن الثامن الهجري ، ١٤ م). ويتحكم فيه الان عرب البيرايش، وهم عرب مستبررين من المحتمل أنهم من أصل حميري.<sup>(٢)</sup>

ولم يقلل من أخطار طريق تغازي تنبكتو، اتخاذه للتجارة لعدة قرون. ففي عام ١٨٠٥م هلكت قافلة مكونة من الفين رجل، وألف وثمانمائة جمل من العطش، وكانت قافلة من تنبكت عبر هذا الطريق، فلم ينج منها انسان ولاحيوان<sup>(٣)</sup>.

ومعظم الروايات التي امدنا بها الكتاب تتكلم عن تجارة الذهب ومبادلته بالملح. وبالنسبة للافريقي، فان الملح كان الأهم بحيث لايجاوز القول بأن الذهب كانت ترتكز قيمته بالنسبة للسودان أساسا على أساس قوته الشرائية للملح، فقد كان دعامة تجارتهم الداخلية، كما كان أساس تجارتهم الخارجية، ولايمكن أن نفهم أيا منهما دون أن نعرف الأهمية القصوى التي كان عليها لاستمرار الإنسان<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص ١٥١

(2) Bovill, The golden trade of the Moors, p. 52.

(3) Bovill, op-cit, pp. 235-236.

(4) Bovill. The golden trade of The Moors, p, 236.

وملاحات الملح الطبيعي في جنوب السودان بأكمله لم تكن فقط ضئيلة بل أيضا مركزه في منطقة صميرة في مركز الاقليم. وهي ملاحات ملح "Dallui Fogha" في دندي و Fadama أو سبخة Birnin Kebbi المجاورة، التي كانت تربتها مشبعة بالملح بحيث كان ممكنا الحصول عليه عن طريق التبخير. ولكن هذه كانت منابع ضئيلة ومناسبة فقط للاحتياجات المحلية البحتة. وفي الأماكن الأخرى فان الملح لم يكن من الممكن الحصول عليه الا عن طريق التجارة.

وعند ما لم يكن ذلك ممكنا كما كان الحال غالبا بين القبائل الضعيفة والمنعزلة فانه كان يستخلص بكميات ضئيلة جدا من رماد الاعشاب، ومن سيقان نبات الدخن، وبعض الشجيرات وروث البهائم<sup>(١)</sup>.

ورواية البكري التي تقول ان القرويين كانوا قد اعتادوا على تبادل الذهب بوزن مساو له من الملح لم يكن مبالغا فيها<sup>(٢)</sup>. وتوجد رواية مماثلة عن مالي يذكرها العمري في كتابه «مسالك الابصار» تقول: «ان هناك بعض الناس كانوا يصلون بالملح إلى أناس من السودان يدلون كوم الملح يكوم مواز له من الذهب»<sup>(٣)</sup>. وروى لنا ابن بطوطة أن حمل الملح كان يباع بمدينة مالي سنة (٧٥٣هـ / ١٣٥٢م) بثلاثين مثقالا بل ويرتفع ثمنه إلى أربعين مثقالا<sup>(٤)</sup>.

ويقول الحسن الوزان، (ليون الأفريقي)، (في رحلته الثانية إلى السودان سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م)، عن مدينة تنيكتو.... لكن ينقصهم الكثير من

(1) Bovill, The golden trade, p. 236 - 237.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٧٤.

(٣) العمري، مسالك الابصار (الترجمة الفرنسية لديومين، ص ٨٢، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص ٢٩١.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة التجارية، ج٢، ص ١٩٢، الترجمة الإنجليزية لجب، ص ٢١٨.

الملح نظرا لانه يحمل من تغازى (تغازة) التي تقع على مسافة حوالي خمسمائة ميل من تنيكت وقد تواجدت في هذه المدينة في وقت كان حمل الملح فيها يقدر بثمانين دوكات Ducats<sup>(1)</sup> وارتفاع الثمن جاء نتيجة لندرة وجود الملح في السودان من ناحية، ومن ناحية أخرى لتعرض التجار الداخلين إلى بلاد السودان للمشقة والاختطار، وارتفاع الثمن هذا يؤكد أيضا أهمية الملح لدوام الحياة لدى السود.

ومن قرن مضى فقط فان رحالة أوربي في هذه الجهات وهو الفرنسي Raffenei وجد نفسه بدون كمية الملح المطلوب، حتى انه كان على اتم استعداد ليعقد مثل تلك الصفقة. وهؤلاء الذين شاهدوا ذلك فقط هم الذين يستطيعون أن يلمسوا مدى عمق الشهوة إلى الملح بالنسبة لهؤلاء الذين لا يملكون زادا مناسباً منه. وفي السودان الغربي فان الملح كان من الترف بحيث لا يتمتع به بصفة منتظمة الا الأغنياء فقط<sup>(2)</sup>.

وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يكون الملح على رأس الأشياء التي تهدي. كما نستبين من رواية صاحب الفتاس التي تقول... ويرسل اسكى لرئيسهم (أى لرئيس عبيده)، مع الرسول الذي يأتي منه لحمل صنونه الف كوربة والكمالية الواحدة من الملح والقميص الأسود والملحفة الأسود لزوجته ذلك الرئيس...<sup>(3)</sup>.

(1) Jean-Léon L'Africain, description de L'Afrique, tome p, 467.

(2) ولعل ارتفاع الثمن هذا هو الذى دفع البيروني (توفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) إلى القول بان أهل مجلماسة يتاجرون السودان مفاينة. البيروني، القانون المسعودى، الطعة الأولى، حيدر اباد الدكن، الهند، سنة ١٢٧٤هـ / ١٩٥٥م، ج٢، ص ٥٥٤. (المقالة الخامسة).

(2) Bovill, The golden trade, p, 236.

(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٩٥، الترجمة الفرنسية لدلافوس وهرداس، ص ١٨٠. ويقول في موضع آخر عن اسكى داود فقال اسكى داود وأنا كذلك احمل لك لابتغاء عفو الله تعالى

وتدين تبيكت للذهب والملح، كما يدين الطريق القديم الذي كانت تقع عند نهايته الجنوبية، ولم يكن أيهما يزرع أو يصنع بل كان يعتمد على الاستيراد في طعامه وعلى تجارة الترانسيت في رخائه.

وكانت تبيكت تستمد أهميتها من موقعها في نقطة على طريق النيجر الكبير، وكان هناك طريق يربطهما من الشرق مع مصر، وكان هذا الطريق يدخل اير من in Gall من حيث يمر خلال عين ازأوة Azawa وغات ومرزق، وأوجلة وسيوة إلى القاهرة، كما كان الوصول إليها سهلا من المغرب وأول مناطقه الصحراوية واحة نوات. وكان يأتي إليها طريق تنغازي بالملح وتجارة بضائع البحر المتوسط، وأرز النيجر، والدخن، والذهب والعبيد والعاج وجوز الكولا من سنسندنج وجنى<sup>(1)</sup>.

وهكذا كانت القوافل التجارية، تجتاز هذه الطرق السالفة الذكر، عبر الواحات ومعادن الملح نحو بلاد السودان. ورغم أن هذه المهمة كانت شاقة وصعبة وتكتنفها الاخطار - وذلك لشدة الغرر بالطريق ومشقة اختراق الصحراء التي لا يوجد فيها الماء الا في أماكن معلومة - الا أنها كانت مجزية من حيث كثرة الارباح التي كانت تعود على التجار، والتي جعلتهم بالتالي يولعون بالدخول إلى بلاد السودان وهؤلاء التجار كما يقول ابن خلدون «أرقة

<sup>1</sup> وغفراته غرامة تاخديه منى رأس كل سنة، وهي الكمية الواحدة، والملحفة السوداء لله تعالى. وأمر بذلك في ساعته وأعطاهما لياها، أى الكمية الملح والملحفة السوداء. محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٠٦، الترجمة الفرنسية، ص ١٩٦.

ولأبأس من الاشارة هنا إلى ماوردته ابن الأثير في نفس المعنى .. «لما فرغ ظفر لبيك من العرب مار إلى ديار بكر التي هي لابن مروان وكان ابن مروان يرسل إليه كل يوم الهدايا والملح .. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٧٨، أحداث سنة ٤٤٨.

(1) Bovill, The golden trade, p, 238.

الناس وأكثرهم اموالا لبعدهم طريقهم ومشقتهم ، وذلك لان نقل السلع إلى البلد البعيد المسافة الذي يحيط بطريقه الاخطار يكون أكثر فائدة وأعمم أرباحا لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها فيقل حاملوها ويعز وجودها وإذا قلت وعزت غلت أثمانها<sup>(١)</sup>. وهكذا عمل معظم سكان الصحراء في التجارة.

ونستبين من الاشارات التي امدنا بها الكتاب العرب، انه منذ نهاية القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) - عقب الفتح العربي للمغرب مباشرة - لاحظ التجار المسلمون من المشرق والمغرب - بدورهم - الموارد التي يمكن أن تكفلها لهم المبادلات مع السودان، الذين كانوا يقطنون فيما وراء الصحراء الجدبة في مناطق غنية بالرجال وغنية بالذهب، فنظموا القوافل التي كانت تذهب إلى بلاد السودان، للبحث عن الخدم، والتبهر، والعاج، والابنوس، وانياب الفيلة<sup>(٢)</sup>.

ويشترى أكثر التبهر أهل وارقلان (وارجلان) وأهل المغرب الأقصى، ويرسل التبهر إلى دور السكك ويضرب دنائير يتعاملون بها في التجارة وغيرها<sup>(٣)</sup>.

وكانت العير القادمة إلى بلاد السودان تحمل إلى جانب الملح، الذي يعد أهم سلعة يتجهز بها إلى بلاد السودان. وارفح ما يحمل اليهم<sup>(٤)</sup>، ضروب

(١) ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص، ب «نقل التاجر للسلع»، طبعة التجارية، ص ٣٩٦.

(٢) ابن خلدون، السيرة، ج ٦، ص ١٩٩، يقول: «ولما فتحت افريقية المغرب دخل التجار إلى بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب المغرب، الزهري، كتاب الجغرافيا، ص ١١٨.

(٣) الاهرسي، صفة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩.

(٤) الاستبصار، ص ٢١٤، الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق ص ٢٢، ابو حامد الانلسي، تحفة الالباب، ص ٤٢، الترجمة الفرنسية، ص ٢٤٢، ياقوت معجم البلدان، ج ١، ص

٨١٢، المعري، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديموبين، ص ٨٢.

الأمثلة من السلع مثل: النحاس المسبوك وآلات الحديد المصنوع، وخرز الزجاج، وهو يستعمل كثيرا في هذه البلاد<sup>(١)</sup>، والودع والاصناف والاحجار التي تشبه العقيق، واسبور نحاس وحلق وخواتم نحاس<sup>(٢)</sup>، والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر<sup>(٣)</sup> وضروب من الافاوية والعطر<sup>(٤)</sup>.

الجماعات التجارية في غانة (انتشار الإسلام عن طريق التجارة):

وكان هؤلاء التجار لا يكتفون بمصاحبة قوافل جمالهم، ولكنهم كانوا يقيمون في جماعات - اقامة مؤقتة في بعض الأحيان ودائمة في أحيان أخرى، في المدن التجارية شمال السودان مثل: غانة ومالي (العاصمة) وجنى وتنبكت وكوكو. ويفهم من رواية ابن حوقل (كان موجودا بأودغست سنة ٣٤٠هـ) أن هذه الجماعات كان لها نظام خاص بها فرئيسهم مسلم ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة الامن في دعوتهم<sup>(٥)</sup>. ووصف البكري لمدينة غانة، يبين أنه كان هناك مدينة (يقصد

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٩، الأدرسي، صفة المغرب، ص ٣، ص ٦٦، الاستبصار، ص ٢٢٤-٢٢٥، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٨١٢، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت ١٩٦٠، ص ١٩، القلقشندي صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٨٦ (ينقل عن الروض الممطر الذي ينقل الأدرسي بدور).

(٢) البكري، المغرب، ص ١٨٢، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٨١٢.

(٣) الأدرسي، صفة المغرب، ص ٦٦، وكلمة ازار تعني كل ما سترك، وكلمة برده وكلمة ازار تستعملان في نفس المعنى. Dozy, *nomes des vêtements chez les arabes*. Amsterdam, 1845, p. 24-25.

(٤) الأدرسي، صفة المغرب، ص ٦٦، الترجمة الفرنسية لدجوه، ص ٧٦.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ج ٢، ص ٣٢٠، يقول: .. وكذلك المادة وجدتها في كثير من بلدان الأطراف التي يئلب عليها املاك الكفر كالخرز والسرير واللان وغانة وكوغه والمسلمون لا يقبلون أن يحكم عليهم الا مسلم منهم ولا يقيم عليهم شهادة الا من في دعوتهم.

حي)، يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة تتضمن اثنا عشر مسجداً، أحدها يجمعون فيه، ولهذه المساجد الأئمة والمؤذنون ويوجد بها فقهاء وعلماء<sup>(١)</sup>.

ومن نص البكري لانستين أن كان المسلمون من التجار (أى أجنب) أم من أهل البلاد الذين تأثروا بالمسلمين ودخلوا في دعوتهم، ولكن أغلب الظن أنهم أجنب، لأن البكري ينص في موضع آخر على أن ديانة أهل غانة المجوسية وعبادة الدكاكير<sup>(٢)</sup>.

وعدد المساجد التي تحويها المدينة - وهذا العدد مبالغ فيه من غير شك - أن كان يدل على شيء فانما يدل على كثرة عدد الجاليات التجارية الإسلامية (الأجنبية) الموجودة وقتئذ في غانة والى هذه الجماعات الإسلامية التجارية يرجع الفضل الأول في نشر الإسلام بين السودان. ولكن رغم هذا لا بد أن يكون بين هؤلاء المسلمين من هم من أهل البلاد وأن كانت التصوص لانستين ذلك. ونص الاستبصار أكثر تحديداً من البكري (رغم أنه ينقله في كثير من المواضع خاصة فيما يتعلق بالكلام عن بلاد السودان). يقول صاحب الاستبصار (وهو يكتب على أيام الموحدين). مدينة غانة مدينتان أحدهما يسكنها الملك، والأخرى يسكنها الرعية والتجار والسوقة. وفي مدينة الرعية جامع كبير ومساجد كثيرة وفيها الأئمة والمؤذنون والفقهاء والعلماء<sup>(٣)</sup>. والرعية في نص الاستبصار يقصد بهم العامة، أى أهل البلاد من الوطنيين، والتجار يعنى بهم تجار المسلمين من الأجنب، هؤلاء استهواهم ما وصل إلى سمعهم عن غنى البلاد الاسطوري - غانة أرض الذهب كما يصر على ذلك

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٥.

(٢) الاستبصار، ص ٢٢٠.

(٣) الاستبصار، ص ٢٢٠.



كل الكتاب - فقطنوها - والسوقة ويعنى بهم أما العامة أيضا أو أهل الأسواق من الوطنيين ممن يقومون بعمليات البيع والشراء البسيطة.

ومن نص الاستبصار يبدو أن التجار المسلمون رغم أنهم كانوا يعيشون في جماعات لها نظمها الخاصة كما سبق القول إلا أنهم كانوا يستوطنون مع الوطنيين في مدينة واحدة ولم يكونوا بمعزل عنهم. ويفهم من هذه النصوص أن ملوك غانة كانوا يحسنون معاملة التجار المسلمين، ويتركونهم يمارسون بحرية شعائر دينهم، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل تقول رواية صاحب الاستبصار أنه كان في مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من تجار المسلمين<sup>(١)</sup>.

ولقد اتت هذه السياسة أكلها بطبيعة الحال فعن طريق الاحتكاك السلمى بين التجار المسلمين وبين الأهالى من الوطنيين تسرب الإسلام شيئا فشيئا إلى بلاد السودان.

#### انتشار الإسلام عن طريق التبشير:

ولايأس من الإشارة هنا إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الاباضية في بلاد السودان: في غانة ومالى - وأن كان مالدينا من أمثلة قليل - هؤلاء نفر من الشيوخ لم يكن هدفهم هو الطمع في الدنيا وجمع الكثير من الثروات فقط بل كان أمامهم هدفاسمى هو: التبشير بالإسلام والدعوة إليه والعمل على توطيد أركانه في هذه البلاد النائية.

والمثل لذلك أحد شيوخ الاباضية الذى قام بدعوة ملك السودان إلى الإسلام، ونجح فى حركته وانتهى الأمر بدخول الملك فى الإسلام.

(١) الاستبصار، ص ٢٢٠

تقول رواية الشماخي (توفي سنة ٩٢٨ هـ / ٥٢١ د ١٥٢٢ م)، صاحب كتاب السير أو سير مشايخ جبل نفوسة (وتاريخها غير محدد).<sup>(١)</sup> وسافر أبو يحيى إلى بلاد السودان فوجد ملكهم دقيق الجسم خائر القوى، وسأله عما به قال خوف الموت، فأخبره الشيخ عن الله وصفاته سبحانه وكلمه عن الجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصي، ولكن الملك كذبه وقال «لو صح عندك ماتقول مابلغت إلينا لطلب الدنيا»،.... ولكن الشيخ ظل في تبشيريه للملك ذاكرا له نعم الله حتى أسلم وحسن إسلامه، ومنحه الإسلام قوة عظيمة<sup>(٢)</sup>.

هناك مثل آخر لأحد شيوخهم، وهو يسمى علي بن يخلف. تقول الرواية: «ومن أعظم كراماته ما اشتهر عند الموافق والمخالف وذكر ذلك البكري في المسالك والممالك الا أنه لم يسمه وسماه غيره - وهو أنه سافر إلى دواخل غانة تاجرا (في مدينة مالي)، فقام بها، وكان يتمتع بمكانة كبيرة لدى ملكها، وحل الجذب ببلادهم، واشتكت الرعية إلى السلطان وقاموا بصلاة الاستسقاء، وكان الشيخ علي بن علي سفر (كما تقول الرواية)، فطلب منه الملك أن يدع ربه لعله يفرج عنهم كربتهم، فقال له الشيخ «أيها الملك لو أمنت بالله تعالى وأقررت بوحدياته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت رسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما انت فيه»، واستمر الشيخ يصف له الإسلام حتى انتهى الإسر بإسلامه وإخلاص نيته، وقام الشيخ بتعليمه ما تيسر من القرآن وعلم الفرائض والسنن، وانتظر إلى ليلة

(١) الشماخي، السير، طبعة الجزائر، ص ٣١٢

(٢) الشماخي، السير، ص ٣١٢

فأمر الملك بالتطهر فتطهر وألبسه ثوب قطن كان عنده وخرج معه إلى كدية فقام الشيخ يصلى والملك يتبعه والمسلم يدعو والملك يقول آمين، فما قدم الصباح الا وسقط المطر<sup>(١)</sup> (ربما نتيجة لحلول فصل الامطار وقتئذ) وتقول رواية البكرى، أن الملك أمر بعد ذلك بكسر الدكاكير واخراج السحرة (وهم كهنة الديانة القومية)، من بلاده، ودعا الملك أهل بيته والمقرمين إليه إلى الإسلام فلبوا الدعوة، تقول رواية البكرى، وصح اسلامه واسلام عقبه وخاصة، وأهل مملكته مشركون<sup>(٢)</sup>، وأخذ الشيخ كما تقول رواية الشماخي، يعلمهم الصلاة وفرائض الدين والقرآن<sup>(٣)</sup>، ويعلق الشماخي على تلك الرواية بقوله: «وهذا سبب دخول الإسلام بلاد السودان بغانة وما يليها»<sup>(٤)</sup>. وبرغم الطابع الروائي الذي يغلف القصص، لا بأس من قبولها. ويحق التساؤل ما مبلغ صحة روايات الشماخي؟ وهل كان مارمى به أهل السنة الخوارج من الخروج سبياً في أن يحاول كتابهم أن يصفوا عليهم أمجاداً وبطولات تبين جهودهم في نشر الإسلام كرد فعل لما رموا به؟ ومع ذلك لا بأس من الإشارة إلى أن الخوارج ظهروا بمظهر المحافظين على الشرع الذي يرغبون في العودة بالإسلام إلى نقاته الأول، ووصفوا بأنهم أهل صيام وقيام.

وظهر الإسلام بوضوح في المدن التجارية: (غانة، مالي، جنى، كوكو، تنبكت) لأن موقع هذه المدن الجغرافي هياً لها فرصة اتصال أكبر بالعالم الخارجي، ولهذا السبب تعرفت على أفكار حضارات مستجبة من الخارج واستقبلت تيارات فكرية وثقافية خارجية، وعرفت مظاهر حضارة أرقى.

(١) الشماخي، السير، ص ٤٥٧، البكرى، المغرب، ص ١٧١

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٧١

(٣) الشماخي، السير، ص ٤٥٧

(٤) الشماخي، السير، ص ٤٥٧

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدرلهما في القرون التالية أن تؤثرا تأثيرا قويا في تقدم الإسلام في بلاد السودان الغربي.

المدينة الأولى، مدينة جنبي (وهذه المدينة تقع على نهر بنى في وسط السهل الفيضي لدلتا النيجر الأوسط، وعلى بعد ٣٦٠ كيلو متر من جنوب غرب تيبكت، و٣٠٠ شرق وشمال شرق سيجر<sup>(١)</sup>).

التي تقول الرواية أنها تأسست سنة (٤٣٥هـ / ١٠٤٣ - ١٠٤٤) (٢) وهي سوق ومركز تجاري هام، وفيها يلتقى أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب من معدن بيط كما يقول السعدي<sup>(٣)</sup>.

والمدينة الثانية، مدينة تيبكت، التي أسسها «توارق مغيرن»، حوالي سنة ٤٩٠هـ / ١١٠٠م (بعد موت أبي بكر بن عمر بعشر سنوات)، وهي مدينة مغربية في قلب السودان، وكانت تيبكتو منذ نشأتها مدينة اسلامية خالصة «مادنتها عبادة الأوثان، ولا سجد على اديمها قط لغير الرحمن» كما يقول السعدي صاحب تاريخ السودان<sup>(٤)</sup>.

وقد صارت هذه المدينة فيما بعد «مأوى للعلماء والعابدين»<sup>(٥)</sup>، ومركزا للعلم والفكر والثقافة في السودان الغربي.

(1) Trimmingham, A history of islam in west Africa, p. 63, ency de l'islam Nouv. édit, vol II, p. 259.

(2) Arnold, the preaching of islam, second édition, London, 1913,

ينقل عن Meyer الذي ينقل بارت بلوره p. 318.

(٣) السعدي، تاريخ السودان، ص ١١، الترجمة الفرنسية ليهوداس، ص ٢٢.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١.

(٥) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١.

وهكذا خلال مئات من السنين كان لا بد أن تحدث أشياء أخرى، غير تبادل التجارة والبضائع، فقد صحب ذلك تبادلا للأفكار والثقافات، وهو أهم لنمو الحضارة من مجرد تبادل البضائع.

**العلاقات السياسية: انتشار الإسلام عن طريق الحرب والسياسة**

قامت قبائل صنهاجة من الملثمين<sup>(١)</sup> الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان<sup>(٢)</sup>، بدور عظيم في نشر الإسلام بين السودان.

ويبدو أن إسلام قبائل صنهاجة أهل اللثام، قد بدأ منذ البداية، فقد سبق القول أن قبائل جزولة أتت إلى عقبة ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا وعادوا إلى منازلهم (٦٢-٦٥)(٣).

أما لتونة فقد أسلموا - كما تقول النصوص - «بعد فتح الأندلس» وكانوا على دين المجوسية<sup>(٤)</sup>.

ولأبأس من الإشارة هنا إلى أن زنانه سبقت صنهاجة في الإسلام، وتقول رواية ابن خلدون أنهم أسلموا منذ أيام عثمان بن عفان (٢٣هـ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م) وذلك عند ما ذهب أمير مغراوة صولات بن وزمار إلى المدينة، وقابل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه «فمن عليه وأسلم فحسن إسلامه»<sup>(٤)</sup>.

ويمثل صنهاجة اللثام في أيامنا هذه - المور في الغرب، والطوارق في

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٧.

(٢) انظر فيما سبق الفصل الخاص بالإسلام في الصحراء

(٣) ابن خلدون، البر، ج٦، ص ١٨١

(٤) ابن خلدون، البر، ج٧، ص ٢٤

وسط الصحراء<sup>(١)</sup>. ونستدل من الروايات على أن بذور الإسلام التي وصلت إلى الصحراء - إلى صنهاجة الرمال - وجدت أرضاً صالحة، وعملوا بدورهم على نشر الإسلام فيما وراء صحرائهم في بلاد السودان، مواصلين بذلك حركة المد الإسلامي التي غمرتهم. وكان أصحاب اللثام (كما سبق أن رأينا في الفصل الخاص بسكان الصحراء، قد وصلوا في سبيل البحث عن أرض صالحة لرعى قطعانهم إلى قلب الصحراء المغربية وجولوا في معظم الأماكن الملائمة للرعى التي كانت تقطنها الجماعات السودانية)<sup>(٢)</sup> وأصبح السودان بدورهم يدفعون الجزية.

واحتفظ لنا ابن خلدون بصدى ذلك الصراع: «ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أم السودان، وحملوهم على الإسلام فدان به كثير واتقاهم آخرون بدفع الجزية»<sup>(٣)</sup>.

والذي يستحق الملاحظة لأول وهلة، في العلاقات بين الملثمين والسودان، أنه على عكس العلاقات الطيبة التي كانت تربط بين السودان وبين أباضية الرستميين من الخوارج في تاهرت والفرع الآخر من صنهاجة (صنهاجة الشمال، أهل الحضرة) (بنو زيري، بن مناد الصنهاجي بأفريقية)، كانت العلاقات سيئة وفاترة تكاد تتمزق في كثير من الأحيان بين صنهاجة الرمال وبين جيرانهم في الجنوب (كما سنرى فيما بعد في الفصل الخاص بمملكة غانة)، وكانت تصل إلى حد قيام الحرب بين الطرفين.

وكانت رئاسة قبائل صنهاجة للمتونة كما يفهم من رواية ابن خلدون،

---

(1) Trimingham, A history of islam in west Africa, p, 20.

(٢) انظر ما سبق الفصل الخاص بسكان الصحراء

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ١٨١

وأول دولة ظهرت عند صنهاجة اللثام - كانت معاصرة للبرستيميين في ناهرت (في المغرب الأوسط - الجزائر الحالية) للأدارسة في فاس (المغرب الأقصى) - وتبالغ الروايات في وصف ملك حاكمها ثبولوتان اللمتوني (مات سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ - ٨٣٧م)، فتقول أنه كان يركب في مائة الف تجيب، وأن عمله كان مسيرة شهرين في شهرين، وتحت امره، حقق الصنهاجة انتصارهم على القبائل السودانية التي كانت تابعة لمملكة غانة الوثنية، وفرضوا الجزية عليهم<sup>(١)</sup>.

وتولى الملك بعده يلتان (وكانت دولته معاصرة للأدارسة في فاس)، وماس أسورهم وتوفي في سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠م. وخلقه أبنته تميم، وقام بتدبير الأمور، وانتهى الأمر بمقتله على يد شيوخ صنهاجة سنة (٣٠٦ هـ / ٩١٨ - ٩١٩م)<sup>(٢)</sup>، وكانت دولته معاصرة لخلافة عبد الرحمن الناصر في الاندلس، وخلافة عبيد الله المهدي في المغرب. وعقب مقتل تميم استعادت الممالك السودانية بدون شك استقلالها، ولكن ظل صنهاجة اسياذ الصحراء<sup>(٣)</sup>.

وبين سنة ٣٥٠ سنة ٣٦٠ هـ (٩٦١ - ٩٧١م)، كسان حاكم أودغست الصنهاجي يدعى تين يروتان بن ويسنو بن نزار، وطلب منه تعرين (يعرين؟) ملك ماسين المدد في حربه ضد ملك أوغام فأمدته بخمسين ألف تجيب (وهو عدد مبالغ فيه بلا شك، والهدف من ذلك هو اظهار عظم

(١) ابن خلدون، المعبر، ج٦، ص ١٨١. ويكتب ابن أبي زرع اسمه في شكل ثبولوتان، روض القرطاس، ص ٨١. ويسميه ابن الخطيب بولوفان (ابن الخطيب، أعمال الاعلام (القسم الثالث) تحقيق أ.د. أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٢٢٥.

(٢) ابن خلدون، المعبر، ج٦، ص ١٨٢.

(3) Terrasse, H. du Maroc, tome II, p. 213.

ملكه) دخلت مدينة أوغام، واستولى على البلد وأحرقها.

ولما رأى أوغام ما حدث هان عليه الموت وخرج. ورمى بندقته إلى الأرض وقا تل حتى قتل، فلما رأته النسوة قتيلا، قتلن أنفسهن بطرق مختلفة «أسفا عليه وأنفة من أن يملكهن البيضان»<sup>(١)</sup> وهذه الرواية تشير إلى النزاع مع غانة، أو أعمالها التابعة لها، لأن البكري في موضع آخر يذكر أن أوغام هذه كانت منطقة تقع شرق غانة<sup>(٢)</sup>.

وعقب مقتل تميم اختلف أمر صنهاجة أصحاب اللثام لمدة مائة وعشرين عاما إلى أن تولى أمرهم الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بتارسنا اللمتوني<sup>(٣)</sup>، وكان من أهل الفضل والدين والحجج والجهاد. ذهب إلى مكة لاداء فريضة الحج، وقد ظل أميرا على صنهاجة مدة ثلاثة أعوام، واستشهد أثناء جهاده السودان بموضع يدعى قنقارة من بلاد السودان<sup>(٤)</sup>. حوالي سنة (٤٢٨ - ٤٢٩ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٣٧ م)، واستعاد السودان مدينة أودغست<sup>(٥)</sup>، حاضره صنهاجة وثغرهم.

وبعد أن توفي الأمير محمد اللمتوني، تولى أمره صنهاجة من بعده، صهره يحيى بن ابراهيم الكدالي وكان يحيى مصاهرا بيت ورتنطق (ورتانطق) وفيهم كانت رئاسة لتونة<sup>(٦)</sup>.

(١) البكري، المغرب، ص ١٥٩.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٨٠.

(٣) تارسني لدى البكري، المغرب، ص ١٦٤، روض القرطاس، ص ٨١، ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ج٣، ص ٢٢٦، (يسميه محمد بن تيفات اللمطي)، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ١٨١.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٦٤، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٢، يذكر انه استشهد في غزا؛ له بموضع يقال له بقدرة.

(5) Terrasse, H. du Maroc, tome II, p. 214.

(٦) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ١٨٢.



وبذلك انتقلت الزعامة من لتونة إلى جدالة وهو رجل يتصف بالصلاح والورع وبعد أن آل إليه الملك، رأى أن يصلح قومه عن طريق اصلاح دينهم إلى جانب اعتماده على عصبية لتونة التي كان يرتبط بها برباط المصاهرة كما سبق القول. فاستخلف ولده ابراهيم بن يحيى فى الرياسة، وتوجه هو وبمر من رؤساء قبيلته إلى المشرق بغرض اداء فريضة الحج، وزيادة قبر الرسول ﷺ. قبل عام ٤٣٠هـ، (وان كانت رواية ابن خلدون تحدد حجة بسنة ٤٤٠هـ) (١) وبعد أن قضى فرضه، قفل راجعا وأصحابه إلى بلدهم، وفى الطريق توقفوا فى القيروان، وقصدوا الفقيه أبا عمران الفاسى (توفى سنة ٤٣٠هـ) شيخ المذهب المالكى (٢)، وسأل الفقيه يحيى عن قبيله، وعن مذهبهم فرد عليه الأخير بقوله «مالنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب لأننا فى الصحراء منقطعين لا يصل إلينا الا بعض التجار جهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم (٣)، وطلب منه أمير جدالة أن يرسل معه من تلاميذه من يتق بعلمه ودينه ليعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين.

وتقول الرواية: أن الشيخ دعا تلاميذه إلى ذلك الأمر فرفضوا وأشفقوا من دخول الصحراء، وعندئذ كتب الفقيه أبو عمران إلى الفقيه وجاج بن زلو

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٦، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٢، ابن خلدون، المعر، ص ١٨٢.

(٢) وهو أبو عمران موسى بن الحجاج الفاسى، ولد بفاس ثم ارتحل إلى القيروان واتخذ بها العلم عن أبى الحسن الفاسى، ثم رحل إلى بغداد فحضر بها مجلس الفقيه أبى بكر بن الطيب فأخذ عنه علما كثيرا، ثم عاد إلى القيروان فلم يزل بها إلى أن توفى فى ١٣ رمضان سنة ثلاثين وأربعمائة، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٢.

(٣) الحقل الموشية، ص ٧

اللمطى (وهو أحد تلامذته)، وكان مقيما في مدينة نفيس، وجمع الفقيه تلامذته، وانتهى الأمر بأن اهتدى الفقيه اللمطى إلى أحد تلاميذه، وأصله من قبائل المثلثين وهو عبد الله بن ياسين بن بك الجزولي، وهو من قرية تسمى ناماناوت في طرف صحراء مدينة غانة (كما يقول البكري)<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم اللقاء بين يحيى بن إبراهيم، وابن ياسين في نفيس، وعاد الأمير الجدالي إلى صنهاجة اللثام وبصحبته عبد الله بن يس، واستقبلت قبائل كدالة ولتونة الفقيه بالترحيب.

ولانعرف الكثير عن ابن ياسين، وينفرد صاحب الحلل الموشية بذكر رواية لاندرى مبلغها من الصحة تقول أن ابن ياسين. كان قد دخل الاندلس في دولة ملوك الطوائف اقام بها سبع سنين يلازم القراءة فحصل علما كثيرا وعاد إلى المغرب الأقصى<sup>(٢)</sup>. وبدأ عبد الله بن ياسين حركة الاصلاح، بتعليم صنهاجة الرمال أصول الإسلام، مبينا لهم الشرائع والسنة، أمرا لهم بالمعروف وناهيهم عن المنكر<sup>(٣)</sup>، وكانوا يوافقونه ولكنهم أخذوا عليه بعد ذلك أشياء فخرجوا عليه، وتعرض ابن ياسين لكثير من العنت والشدة، وتزعّم الثورة ضده فقيه من الخليلين اسمه الجوهر بن سكم - ربما دفعه إلى ذلك حقه على ابن ياسين فكلا الرجلين كانا من الفقهاء، وبعاونه اثنين من أعيانهم أحدهما يسمى ابار، والآخر ايتتكوا، وطردوه، وهدموا داره ونهبوا ما كان فيها كما تقول رواية البكري<sup>(٤)</sup>.

(١) البكري، المغرب ص ١٦٥، روض القرطاس، ص ٨٢-٨٤، ابن خلدون العبر، ج١، ص ١٨٢.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٠.

(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٤.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٦٥ - ١٦٦.

وابن خلدون، يمددا برواية يفهم منها أن أهل اللثام اختلفوا على ابن ياسين بعد موت يحيى بن ابراهيم، ونص هذه الرواية: «... ثم هلك يحيى بن ابراهيم واقترب أمرهم وأطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف...»<sup>(١)</sup>. هذا ينص رواية ابن أبي زرع على أن الاختلاف حدث على أيام يحيى بن ابراهيم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا انتكست حركة الاصلاح، وأصبحت الإقامة في ديار الملثمين غير مستطاعة، ولم يكن أمام زعماء الاصلاح الا الهجرة. وعندئذ رحل عبد الله ابن ياسين وبصحبه يحيى ابن ابراهيم، وصحبتهما بضعة نفر من لتونة وجدالة، وأسسوا رباطا يقع في جزيرة عند مصب السنغال الأدنى<sup>(٣)</sup>، وظل عبد الله وصحبه في الجزيرة يعبدون الله، وتسامع الناس في أرجاء الصحراء بهذه الجماعة الصالحة، وذهب الكثيرون إليهم في رباطهم ودخلوا في دعوتهم، وسماهم عبد الله بن ياسين المرابطين للزومهم رابطة كما يقول ابن أبي زرع. ولما كمل عددهم ألف رجل، قرر عبد الله بن ياسين، أن تترك الجماعة الرباط وتبدأ الجهاد. وكان الرباط قد مر بمرحلة حرجة، عندما مات الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي، واستعرت الأهواء حول من يخلفه في رئاسة صنهاجة، وحدث فيما يبدو - نوع من التنافس بين رجال قبيلتي لتونة وجدالة، وانتهى الأمر باختيار ابن ياسين ليحيى بن عمر اللمتوني ليخلف الأمير الراحل يحيى بن ابراهيم الجدالي. والحقيقة أن لتونة هي أقوى قبائل

(١) ابن خلدون، المعبر، ج٦، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٤.

Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p. 46.

(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٤ - ٨٥، ابن الخطيب، اعمال الاعلام ج٢، ص ٢٢٨.

المثمين، وكان اختيار ابن ياسين ليحيى بن عمر وصيها المنيء في موضعه الصحيح<sup>(١)</sup>.

وطلب ابن ياسين (مهدي المرابطين)، من تلامذته العودة إلى قبائلهم وعشائرتهم والعمل على دعوتهم إلى الحق<sup>(٢)</sup>. وبعد أذعان قبائل لمشونة ومسوفة ولمطة، تم الاتحاد السياسي بين صنهاجة الرمال، وبدأ الجهاد الفعلي. وكان الهدف منه هو تحقيق غايتين: أولاهما: غزو بلاد السودان وادخال القبائل السودانية في الإسلام، وثانيهما: السيطرة على بلاد المغرب والقضاء على قوة زناته، وعلى الزندقة الدينية التي كان المغرب فريسة لها منذ عدة سنوات<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، بدأ الصراع العنيف ضد ملوك الونجارية في غانة الذين كانوا يمثلون الوثنية، واتسالت عساكر المرابطين ناحية الجنوب، وافتتحت أودغست سنة (٤٤٦هـ / ٥٤ - ١٠٥٥م) كما سئرى بالتفصيل فيما بعد في الفصل الخاص بدولة غانة.

واستشهد الأمير يحيى بن عمر سنة ٤٤٨هـ، وتولى زعامة صنهاجة من بعده اخوه أبوبكر ابن عمر، الذي فتح بابا من جهاد السودان كما يقول ابن خلدون<sup>(٤)</sup>، واستولى على غانة في سنة ٤٦٩هـ - ١٠٧٦م، وأدخل أهلها في الإسلام.

وفي نفس الوقت كان عبد الله بن ياسين وتلامذته يقومون بدعاية دينية حية بين السود القاطنين حينذاك على ضفة السنغال، وكذلك الشعوب

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٥ - ٨٦، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ج٣، ص ٢٢٨.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٥ - ٨٦.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٨٥ - ٨٦، ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص وفي أن الدعوة الدينية تزيد

الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، طبعة التجارية، ص ١٥٨.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ١٨٣.

النيجرية. وفي الحقيقة كانت الدعوة دائما تقابل بمقاومة كانت تنتهي حين لم يكن هناك وسيلة أخرى لظهارها بخروج السكان. وبهذه الطريقة فان أغلبية السرر<sup>(١)</sup> هاجروا إلى الضفة الشمالية من النهر في التكرور (السنغال الآن)، ومن التكرور خرج عدد كبير للتجمع في السين حيث لانزال مجدهم حتى اليوم، وهكذا تركوا الميذان حرا للبربر فيما صار من ذلك الوقت موريطانيا، يطاردهم في نفس الوقت الرغبة في الهرب من ضغط المرابطين والاهتمام بالبحث عن أراض أكثر خصوبة وأقل جفافا.

وبدا الفلان (الفلاتة) أيضا في ترمس وتاجنت، في الرحيل مع قطعانهم ناحية التكرور (السنغال)، مدفوعين بأسباب مماثلة. ومع ذلك فان بعض العائلات الملكية قد جذبتهم إلى الديانة الجديدة الهيبية التي تلحق بمعنتيها قد اصطفوا برغبتهم تحت راية محمد (ﷺ)<sup>(٢)</sup>. وهكذا كان حال الأمراء الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة في التكرور، تحت الولاية البعيدة لأباطرة غانة، والذين كانوا ينتمون مثل هؤلاء الأخيرين لجنس المركلة.

وقام أحد تلاميذ عبد الله بن ياسين الذي تنتشر عنه اساطير كثيرة والذي انتقلت ذكراه اليها تحت عدة أسماء مختلفة منها ابا درداء - بادخال امراء وأعيان التكرور في الإسلام<sup>(٣)</sup>.

وتقول رواية البكري أن وارجابي ملك التكرور (وزجاي بن ياسين عند صاحب الاستبصار) أسلم هو وأسرته في بداية القرن الخامس الهجري (١١م)، سنة ٤٣٢هـ. وتبعه في إسلامه أهل مدينته، وعمل وارجابي بدوره

(١) دلافوس، السود في افريقية، بالفرنسية، ص ٤٨

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 48.

(٣) دلافوس، نفس المرجع، ص ٤٨، دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، ج٤، ص

على جهاد كفرة السودان، وادخل الإسلام إلى مدينة سلى<sup>(١)</sup>. هذا بينما تذكر رواية ابن حزم (توفى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م).

أن إسلام ملوك سلى والتكرور كان سنة ٤٣١ هـ ونص الرواية : «بلغت في عام احدى وثلاثين واربعمائة أنه اسلم أهل سلا وتكرور، وهما أمتان عظيمتان من بلاد السودان، أسلم ملوكهم وعامتهم»<sup>(٢)</sup>.

وليس من الغريب أن عبد الله بن ياسين حين رأى أعراض صنهاجة أصحاب اللثام واتباعهم أهواءهم، فكر في الرحيل عنهم «إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام (تكرور) إذ كان الإسلام بها قد كثر» كما تقول رواية ابن أبي زرع<sup>(٣)</sup>.

وأحد بربر لتوتة الذي لم يكن تبعاً لليونان الأفريقي (الحسن الوزان)، إلا والد يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر المشهور قد ذهب حتى الماندنج (مالي)، ونجح في ادخال ملك هذه البلاد المسمى برمندانة في الدين الجديد وجعله يقوم بالحج إلى مكة. ويحدد دلافوس ذلك الحدث بسنة ٤٤٢هـ<sup>(٤)</sup>. وليس هناك أى دليل على قسرن برمندانة بملك ملل الذي ذكره البكري (المسلماني) ٤.

ولأبأس من الإشارة إلى أن طبعة كتاب «وصف افريقية» للحسن الوزان، التي رجعت إليها لا توجد بها تلك الرواية لكن الحسن يقول عند كلامه عن

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٢، الاستيعار، ص ٢١٧.

(٢) ابن حزم، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق د. احسان عيسى، د. ناصر الدين الاسد، مجموعة تراث الإسلام، طبعة دار المعارف، مصر، ص ٣٥٠. (الرسالة الرابعة)، جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ.

(3) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 48.

مالى . هم (أى أهل مالى) فى الواقع أول من ارتبطوا بالديانة الإسلامية (بديانة محمد) ، كان يحكمهم فى عصر اعتناقهم الإسلام أعظم امراء ليبيا الذى كان عم يوسف ملك مراکش<sup>(١)</sup> .

ويقول دلافوس ، ويتعين علينا بالرغم من ذلك ألا نغالى فى أهمية ادخال السود إلى الإسلام عن طريق المرابطين ، ولأن نقول كما فعلوا فى بعض الأحيان أن هؤلاء قد ادخلوا كل السودان فى الإسلام .

وفى الحقيقة لم يكن الإسلام صحيحا الا عند الأمراء وكبار الموظفين والمحيطين بهم بصورة مباشرة أما جماعة الشعب ، فإنها أما صمدت للإسلام بواسطة الخروج كما سبق أن رأينا فيما يتعلق بالسرر والفلان ، أو أنها لم تترك نفسها تتأثر بجهود الدعاة المرابطين كما هو حال الولى Quolofs (الجلف) ، والماندنج (الونجارة)<sup>(٢)</sup> .

ولم يدخل الإسلام بعمق وبقوة وبامتداد الا عند التكرور وعند السنغى وشيء غريب عند السركلة والديولا وانتهى الأمر بالسركلة الذين كانوا يمثلون العنصر الوثنى فى أقصى قوته إلى الاقتداء بغالبهم واعتناق ديانتهم وأصبحوا فيما بعد أفضل المسلمين فى كل السودان الغربى . ونقلوا معهم الدين الإسلامى إلى مناطق عديدة كثيرة من السنغال والساحل وماسة حيث استقروا بعد سقوط غانة وتفرق سكانها كما أنهم نقلوها إلى شعب الديولا الذى نقل بدوره الإسلام حتى الحدود الشمالية للغابات الاستوائية<sup>(٣)</sup> .

(١) ليون الافريقى ، وصف افريقية ، بالفرنسية ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, pp, 48, 49.

(٣) دلافوس ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٩ .

## أثر الهجرة الهلالية على انتشار الإسلام في الصحراء والسودان:

كان للهجرات العربية التي استقبلتها بلاد المغرب في القرنين الخامس والسادس الهجري (الحادي عشر والثاني عشر الميلادى) ، نتائج بعيدة المدى في السودان المغربى . فقد وصلت بعض القبائل العربية جنوب الصحراء ، مثل بنى حسان<sup>(١)</sup> ، فانهم بعد أن اجتاحتوا جنوب المغرب الأقصى ، وغزوا ادرار ، وصلوا إلى اسافل السنغال فى نهاية القرن السادس عشر ، ثم توجهوا شرقا (شرقوا) ، إلى تاجت والحوض . ويفهم من رواية ابن خلدون انهم كانوا على اتصال بمملكة مالي<sup>(٢)</sup> .

---

(١) ذوى حسان بطن من بطون العنقل ، وكان دحولهم إلى المغرب مع الهلاليين فى عهد قليل (منتصف القرن الخامس الهجرى) ، يقال انهم لم يلبثوا المائتين وكانت مواطنهم تمتد من درعة إلى البحر المحيط ، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس ، فيستولون على السوس الأقصى وما اليه ويجمعون كلهم فى الرمال إلى مواطن الملتس من كدالة ومسوفة ولتونة ، ويخيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بأخر مواطنهم مايلي ملويه ورمال تافيلالت وحاروا زنانه فى القفار وكثروا فى صحارى المغرب الأقصى ، وكانوا هناك احلافا لزنانه ، ابن خلدون ، المعبر ، ج٦ ، ص ٥٨ .

(٢) ابن خلدون ، ج٧ ، ص ٣١١ .



القسم الأول  
المصادر والمراجع العربية



المصادر والمراجع العربية:

- ١ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م.  
- الكامل في التاريخ، طبعة التجارية، ج ٥.
- ٢ - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، توفي سنة ٤٥٦ هـ /  
١٠٦٤ م.  
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبع بيروت، ٤ أجزاء.
- ٣ - ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين  
الثونسي الحضرمي الإشبيلي المالكي، توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦  
١٢  
- مقدمة ابن خلدون، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة  
الثالثة، سنة ١٩٦٧ م.  
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، نشر محمد بن ناويث  
الطنجي، القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م.
- ٤ - ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م.  
- الفهرست، طبعة التجارية.
- ٥ - أحمد أمين.  
- ضحى الإسلام، طبع بيروت، ج ٣.
- ٦ - آدم متر.  
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة في  
الإسلام)، ترجمة عبد الهادي أبو رييدة، في جزئين.  
٧ - الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، توفي سنة ٢٥٥ هـ / ٨٧٨ م  
- كتاب الحيوان.  
٨ - خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠ هـ / ٩٥١ م.  
- تاريخ خليفة بن خياط ( رواية بقي بن مخلد ) تحقيق سهيل  
زكار، في قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي،

دمشق ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م

٩- ديموبيس (جودفروا)

- النظم الإسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١ م.

١٠- الدينوري، محمد بن علي بن الحسن العلوي، توفي سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥ م.

- الأخبار الطوال، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٠ م.

١١- السبكي، عبد الوهاب بن علي، تاج الدين، توفي سنة ٧٧١هـ / ١٣٧٠ م.

- طبقات الشافعية، تحقيق محمود محمد الطناحي، عيسى عبد

الفتاح محمد الحلوي، طبعة الباني الحلبي، مصر، سنة ١٩٦٧ م، ج ٥.

١٢- سعد زغلول عبد الحميد.

- محاضرات في الحضارة الإسلامية، طبع دار النهضة العربية،

بيروت.

- سياسة تامة لنظام الملك، تراث الإنسانية، المجلد التاسع (٢).

١٣- الشهر ستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م.

- الملل والنحل، طبع القاهرة ١٣١٧هـ، في ٥ أجزاء، هامش علي

كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل في ٤ أجزاء.

١٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣ م.

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار

المعارف مصر (مجموعة ذخائر العرب)، ج ٨.

١٥- عمر عبد العزيز عمر.

- دراسات في تاريخ العرب الحديث (٢) الشرق العربي من الفتح

العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، طبع دار النهضة العربية،

بيروت، ١٩٨٠ م.

١٦- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، توفي سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م.

- كتاب الولاية والقضاء، نشر رفن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨ م.

- ١٧ - المازدي، أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصري، توفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠١٥ م.  
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طعة البياي الحلبي، مصر،  
الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٦ م.
- ١٨ - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، توفي سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م.  
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد  
الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨ م.  
- طبعة بيرة دي مينار وبافيه دي كرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية،  
قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٢ .
- ١٩ - النويختي، أبو محمد الحسن بن موسى، توفي سنة ٢٣٢ هـ / ٨١٧ م.  
- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف سنة ١٣٥٥ هـ ،  
١٩٣٦ م.
- ٢٠ - ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي، توفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م.  
- معجم الأدباء، تحقيق محمد فريد الرفاعي، طبع مصر، ج ١٥ .

القسم الثاني

المصادر والمراجع العربية



## أولاً: المصادر المراجعة العربية

- ١- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني:  
- المؤنس في أخبار إفريقية ونونس، طبع تونس، ١٢٨٠ هـ.
- ٢- ابن أبي زرع، أبو الحسن أحمد بن علي بن أبي زرع الفاسي توفي سنة ٧٢٦ هـ /  
١٣٢٦ م.  
-الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة  
فاس، فاس، طبع حجر.
- ٣- الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي، توفي سنة ١١٦٦ / ٥٦٠ هـ.  
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس - مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في  
اختراق الآفاق - نشر: دوزي، دجوهه R.Dozy , M.Y. De Coeje ،  
ليدن ١٨٦٦ .
- ٤- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٢٣ م  
- الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة، ١٢ جزء.  
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة  
١٢٨٥ هـ.
- ٥- ابن الأحرر، أبو الوليد، توفي سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م  
- نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان.  
(مخطوط دار الكتب رقم ٧١١٣ أدب).
- ٦- الاستبصار، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ( وصف مكة والمدينة، ومصر،  
وبلاد المغرب) لكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس  
الهجري (١٢م).  
- نشر وتعليق الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد مطبعة جامعة  
الاسكندرية، ١٩٥٨ .
- ٧- الاصطخرى، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، توفي سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م.  
- كتاب المسالك والممالك نشر دجوهه De Coeje ، ليذن ١٩٢٧ .
- ٨- أحمد بابا، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت ابن عمر بن علي



بن يحيى التكروري الصنهاجي المسوفي التمسكتي (التبكتي) توفي  
سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، هامش لكتاب الديباج المذهب في  
معرفة اعيان علماء المذهب، طبع مصر ١٣٢٩ هـ.

٩- أنجيل جنثالث بالثيا.

- تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة،  
١٩٥٥.

١٠- رولاند أوليفر وجون فيج.

- موجز تاريخ افريقية، ترجمة الدكتور دولت أحمد صادق، القاهرة  
١٩٦٥، (سلسلة دراسات افريقية).

١١- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، توفي سنة  
٧٧٩هـ / ١٣٧٧م.

- تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، طبعة التجارية  
١٩٦٤، في جزئين.

- ترجمة جزئية خاصة بأسية وافريقية، بالانجليزية، لندن ١٩٣٩،  
وانظر جب.

١٢- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، توفي سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشره سنان De Slane  
باريز ١٩١١.

١٣- بروفنسال E. Lévi-provencal.

- نص جديد عن فتح العرب للمغرب، مجلة المعهد المصري بمطريد،  
سنة ١٩٥٤.

- ندوب تاريخية جامعة لاجبار المغرب الأقصى، باريز ١٩٤٨. وانظر  
ابن عوفى المراكشي.

١٤- ر. بلاشير، منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى.

Extraits des principaux Géographes arabes du moyen age, paris,  
1932.

- ١٥- البيروني ، ابو الريحان محمد بن أحمد، توفي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م.  
- القانون المسعودي، ٣ أجزاء، الطبعة الأولى، حيدر اباد الدكن الهند  
سنة ٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م.  
- الجواهر في معرفة الجواهر، الطبعة الأولى، حيدر اباد الدكن سنة  
١٣٥٥ هـ.  
١٦- التحفة السنية في اخبار الدولة المرينية (لمؤلف مجهول).  
١٧- التونسي، محمد بن عمر، توفي سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م).  
- تشييد الازهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق دكتور خليل  
محمود عساكر، دكتور مصطفى محمد مسعد ، (توانا) القاهرة،  
١٩٦٥.  
١٨- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، توفي سنة ٢٥٥ هـ / ٨٧٨ -  
٨٦٩ م.  
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع القاهرة  
١٩٦٤ الجزء الأول.  
- الرسالة الرابعة وعنوانها : «كتاب فخر السودان على البيضاء» .  
١٩- أبو حامد الإندلسي، الفرناطي، محمد بن عبد الرحمن بن سليمان القيسي، توفي  
سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م.  
- تحفة الالباب ونخبة الاعجاب، نشر Gabriel Ferrand مع ترجمة  
فرنسية.. Journal Asiatique, Juillet- Septembre 1925.  
٢٠- جود فروا ديمومبين Gaudefroy-Demombynes .  
- مسالك الابصار في مسالك الامصار (افريقية عدا مصر)  
L'Afrique moins L'Egypte  
ترجمة فرنسية مع مقدمة وهوامش، باريس ١٩٢٧ .

٢١- جونز وديفيد وليامز.

- المعادن والرواسب المعدنية، ترجمة الدكتور فخرى موسى، الدكتور  
عبد العزيز عثمان، راجعه الدكتور نصرى متري شكرى (مجموعة  
الالف كتاب) رقم (٣٥٢).

٢٢- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد  
ابو الفضل الكنانى المسقلانى القاهرى الشافى، ولد سنة ٧٧٣هـ /  
١٣٧١م، توفى سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م.

- الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، طبعة حيدر اباد  
الباك، ١٣٥٠هـ.

- اتباع الفمر بأبناء العمر، نشر وتحقيق الدكتور حسن حبشى، الجزء  
الأول، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م (لجنة احياء التراث الإسلامى).

٢٣- الحريرى، أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن الحريرى، ولد فى سنة ٤٤٦هـ  
، وتوفى سنة ٥١٦هـ.  
- مقامات الحريرى.

٢٤- ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى، توفى سنة ٤٥٦هـ /  
١٠٦٤م.

- جوامع السيرة وخمسة رسائل اخرى، تحقيق الدكتور احسان  
عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر  
(مجموعة تراث الإسلام).

٢٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.  
- كتاب صورة الأرض، نشر J.H. Kramers بلندن ١٩٢٨. فى  
جزئين.

٢٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، توفى سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م.  
- المسالك والممالك، نشر دجوه De Goeje، ليدن، ١٨٨٩.

٢٧- ابن الخطيب السلماني، لسان الدين محمد بن عبيد الله، ولد ٧١٣هـ /

١٣١٢ م، توفي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م.

- كتاب أعمال الأعلام (القسم الثالث)، نشر وتحقيق، الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني تحت عنوان: المغرب العربي في العصر الوسيط، طبعة الدار البيضاء، ١٩٦٤.  
- الاحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، طبع دار المعارف، القاهرة.

٢٨- ابن الخطيب.

- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أ.د أحمد مختار العبادي (تراننا)، القاهرة، سنة ١٩٦٠ م.

٢٩- ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس أحمد بن محمد، توفي سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محمد يحيى الدين عبد الحميد، في ٦ أجزاء، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م.

٣٠- ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي الاشجيلي المالكي، توفي في سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤ هـ.  
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارفة.

- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، نشر محمد بن تايوت الطنجي، القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م.

٣١- الخوارزمي، ابو جعفر محمد بن موسى (قرن ٣ هـ / ٩ م).

- صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار، نشر هانس فون ثوبك، طبع فينا ١٩٢٦.

٣٢- دمشق، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الانصارى، ولد في سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، توفي سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م.

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر من M.A.F. Mehren  
ليزج، ١٩٢٣.

٣٣- الدميرى، محمد بن موسى بن عيسى كمال الدين، ولد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م  
توفي سنة ٧٧٥هـ / ١٣٤٩م.

- حياة الحيوان الكبرى، في جزئين، طبعة القاهرة ١٩٦٣.

٣٤- الدوادارى، أبو بكر بن عبيد الله بن ايوب، من مؤرخى القرن الثامن الهجرى  
(انتهى من تأليف كتابه سنة ٧٣٦هـ).

- كثر الدرر وجامع الدرر، الجزء التاسع وهو، الدر الفاخر فى سيرة  
الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت روبر، القاهرة ١٩٦٠م.

٣٥- الزهرى، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، توفي فى أواسط القرن السادس الهجرى.

- كتاب الجغرافية وماذكره الحكماء فيها من العمارة ومافى كل  
جزء من الفرائب والعجائب تحتوى على الاقاليم السبعة ومافى الأرض  
من الأميال والفراخ، تحقيق محمد حاج صادق.

I.F.D. Bulletin d' études orientales, tome XXI, année 1968, Damas  
1968.

٣٦- السخاوى، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى  
الشافعى، توفي سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧.

- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع فى ١١ جزء، القاهرة  
١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ.

٣٧- السعدى، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى، توفي بعد سنة  
١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م.

- تاريخ السودان.

Texte arabe édité par O. Houdas avec la collaboration de M. Benoist,  
Paris 1898 (Publications de L'école des langues orientales vi-  
vantes, IVe Série volume XII).

- ٣٨- السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى السلاوى، توفى سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م.  
- الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، ٤ أجزاء، القاهرة،  
١٣١٢هـ.  
- طبعة الدار البيضاء ١٩٥٤ - ١٩٥٦ فى تسعة أجزاء.
- ٣٩- السيوطى، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى الشافعى ولد  
سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، توفى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م.  
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، فى جزئين، طبع القاهرة.  
٤٠- ابن شاکر الكتبى، محمد بن شاکر الصلاح الكتبى الدمشقى، توفى سنة ٧٦٤هـ  
/ ١٣٦٣م.  
- فوات الوفيات، طبع القاهرة.  
٤١- الشريشى، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، توفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م.  
- شرح المقامات الحريرية، طبع بولاق، طبعة ثانية، سنة ١٣٠٠هـ.  
٤٢- الشماخى، أبو العباس أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى  
اليفرنى، توفى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م.  
- كتاب السير (سير مشايخ جبل نفوسة)، طبع حجر القاهرة.  
٤٣- ابن الصغيرة (قرن ٣ هـ / ٩م).  
- اخبار الائمة الرستميين نشر وترجمة موتيلينسكى.  
Chronique d'ibn Saghir sur les imams Rostemides de tahert, ed. et  
trad par Motylinski, dans actes du XIVE congrés international  
des orientalistes, paris 1907.
- ٤٤- ابن صود، ولد سنة ١١١٢هـ / ١٧٠٠م.  
- تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان.  
Texte arabe édité par O. Houdas avec la collaboration de E. Benoist,  
paris 1899, (Publications de L'école des langues orientales vi-  
vantes IVe série, volume XIX).
- ٤٥- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، ولد سنة ٢٢٤ - ٢٢٥هـ / ٨٢٩م توفى

سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.

- تاريخ الأمم والملوك، نشر دجوييه، طبع ليدن ١٨٩٧ / ١٨٩٨ م.

- طبعة القاهرة في ثلاثة عشر جزءا سنة ١٣٢٨ هـ.

- طبعة دار المعارف في ١٠ أجزاء (مجموعة ذخائر العرب).

٤٦- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن اعين ليث ابو

القاسم القرشي، ولد حوالي سنة ١٨٧ هـ، توفي سنة ٢٥٧ هـ /

٨٧١ م.

- فتوح مصر والمغرب والاندلس، نشر شارل تورى، طبعة ليدن

١٩٢٠.

- نشرة جزئية جديدة بمعرفة عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.

٤٧- الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد.

- تاريخ المغرب العربي، دار المعارف، ١٩٦٥.

- الاستبصار في عجائب الامصار، طبع جامعة الاسكندرية ١٩٥٨.

- ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة

مجلة كلية الآداب، ١٩٥٤.

٤٨- حسن حسنى عبد الوهاب.

- خلاصة تاريخ تونس، طبع تونس ١٩٥٣.

٤٩- ابن عذارى، المراكشى، أبو العباس أحمد بن محمد، كان حيا سنة ٧١٢ هـ /

١٣١٢ م.

- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، (الجزء الأول)، تاريخ

افريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجرى). نشر وتحقيق ج

من كولان. أ. ليفي بروقتال، ليدن ١٩٤٨ م.

- وفي سنة ١٩٦١ نشر الاستاذ ايمروسى ونشى ميراندا في مجلة

هيسبر من ثمودا التي تصدرها كلية الآداب بجامعة الرباط قطعة

متعلقة بتاريخ المرابطين مبتورة الأول.

- وفيما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٣ نشرت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط الجزء الثالث المتعلق بتاريخ الأندلس والمغرب العربي من انتهاء المرابطين إلى عام ٦٦٧ هـ ، وذلك بعناية اميروسي وبشي ميراندا والاستاذين محمد بن تاويت النطواني ومحمد ابراهيم الكتاني .

٥٠- العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله توفي سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م .

- مسالك الابصار في ممالك الامصار، طبعة دار الكتب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ (ح ١) .

- ترجمة جزئية خاصة ببلاد المغرب والسودان، بساريز ١٩٢٧ انظر جود فروا ديمومبين .

- التعريف بالمصطلح الشريف، طبع القاهرة سنة ١٣١٢ هـ .

٥١- ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم بن علي اليعمري المدني المالكي، توفي سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م .

- الديباج الذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، طبع مصر ١٣٢٩ .

٥٢- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد، توفي سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م .

- كتاب البلدان، نشر De Goeje ليدن .

٥٣- أبو الفداء اسماعيل بن علي، توفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

- تقويم البلدان، نشر دسلان ورينو De Slane, Reinaud ، باريز ١٨٤٠ .

٥٤- ريمون فيرون .

- الصحراء الكبرى، الجوانب الجيولوجية - مصادر الثروة المعدنية - استغلالها، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصوري، القاهرة ١٩٦٣ .

٥٥- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، ولد سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م، وتوفي سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م .



- آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠م.
- ٥٦- ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتامي القاسي، توفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م.
- نظم الجمال في أخبار الزمان.
- نشرت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط الجزء السادس منه، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.
- ٥٧- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المصري، توفي سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في ١٤ جزءاً، طبع دار الكتب المصرية ١٩١٣ - ١٩١٩، نسخة مصورة عن الطبعة بالإميرية، القاهرة ١٩٥٩.
- ٥٨- الاستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف.
- مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠.
- ٥٩- محمد ابراهيم الكتاني.
- مؤلفات علماء غرب افريقية في المكتبات المغربية، وهي المحاضرة التي القاها في لجنة الشرق الأدنى والعالم الإسلامي بجامعة أن آربر ميشيغان بالولايات المتحدة يوم ١٧ غشت ١٩٦٧.
- ٦٠- ابن كثير، اسماعيل بن عمر عماد الدين أبو القدا ابن الخطيب القرشي البصري الشافعي، ولد سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م، توفي سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م.
- البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءاً، القاهرة ١٣٥١هـ - ١٣٥٨هـ.
- ٦١- كراشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوختش.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،

مراجعة ايضور بليانيف، القاهرة ١٩٦٣ م، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر). القسم الأول.

٦٢- محمود كمت، الفع محمود بن المشوكل كمت الكرمنى الشبكنى الوعكرى، يكتب فى سنة ٩٥٢هـ / ١٥١٩.

- تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامور وتفريق أنساب العبيد من الاحرار.

Texte arabe édité par O. Houdas M.Delafosse, paris 1913,  
(Publications de L'école des langues orientales vivantes IVe série, volume IX).

٦٣- الكندى، أبو عمر محمد بن يوسف، توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م.

- كتاب الولاة والقضاة، نشر وفن جست، طبعة بيروت، ١٩٠٨ م.

٦٤- ليون الافريقى، الحسن بن محمد الوزان الزياتى، يوحنا الأسد الفرناطى، ولد سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥ م.

Description de L'Afrique, Nouvelle édition traduite de l'italien par A. Epaulard, paris, 1958. 2 vol.

٦٥- المالكى، ابو بكر عبد الله بن أبى عبد الله، (توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى).

- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونسآكهم وسير من اخبارهم وفضائلهم واوصافهم نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١.

٦٦- المحبى، محمد الأمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين الدمشقى، ولد سنة ١٠٦١هـ / ١٦٥١ م.

- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، طبع مصر سنة ١٢٨٤هـ، ٤ أجزاء.

٦٧- المراكشى، عبد الواحد (قرن ٧هـ).

- المعجب في تلخيص أختيار المغرب، من لدن فتح الاندلس إلى آخر  
عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أختيار الشعراء واعيان  
الكتاب.

نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٣٦٨ هـ /  
١٩٦١ م.

٦٨- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين - توفي سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد  
الحميد، ٤ أجزاء طبع التجاربية ١٩٥٨ .

٦٩- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، توفي سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م.

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر De Goeje، لندن ١٩٠٦ .

٧٠- المقرئزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني تقي الدين  
المقرئزي، توفي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م.

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزئين، طبعة بولاق  
١٢٧٠ هـ.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى  
زيادة، الجزء الأول قسم أول وثاني وثالث، والجزء الثاني، قسم أول  
وثاني وثالث، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

الجزء الثالث - القسم الأول والثاني، تحقيق الدكتور سعيد عبد  
الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧١، (مطبعة دار الكتب).

- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك.

تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥ .

٧١- المقرئ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، توفي سنة ١٠٤١ هـ  
١٩٣١ م.

- نفع الأريب، من غصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين  
بن الخطيب، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة، في  
١٠ أجزاء.

٧٢- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبوريدة، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٧، في جزئين.

٧٣- ابن عثمي، الاسعد بن عثمي، توفي سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م.

- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.

٧٤- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخرجي الأفرقي ولد عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م وتوفي سنة ٧١١هـ / ١٣١١م.

- لسان العرب، طبع بيولاق عام ١٢٩٩ - ١٣٠٨هـ، في عشرين مجلدا.

٧٥- حسين مؤنس.

- الجغرافية والجغرافيون في الاندلس من البداية إلى الحجاري، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدرسة المجلدان السابع والثامن، مدريد ١٩٥٩، ١٩٦٠.

٧٦- مؤلف مغربي مجهول (من القرن الثامن الهجري).

- التحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، نشر علوش (مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السادس)، الرباط ١٩٦٩.

٧٧- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفي ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

- الفهرست، طبعة التجارية.

٧٨- النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين توفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والاندلس، مخطوط مصور، مكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية رقم ٢٢م.

٧٩- ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر بن أبي الفوارس محمد الوردي القسري البكري الشافعي، ولد سنة ٦٨٩هـ توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م.

- تاريخ ابن الوردي المسمى تسمة المختصر في أخبار البشر، طبع  
القاهرة ١٢٨٥ هـ.

٨٠- ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي، توفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م.

- معجم البلدان، في ٦ أجزاء، نشر وستفالد Wustenfled ليزج  
١٨٦٦ - ١٨٧٣.

- ونشر محمد الخانجي، القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

- مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، نشر Yuynboll،  
ليدن ١٨٥٠ - ١٨٦٤ م.

- المشترك وصفا والمفترق صقعا، نشر وستفالد، جوتنجن ١٨٤٦.

٨١- اليفرنى، أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد بن عبد الله الصغير، ولد  
سنة ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ - ٧٠ م توفي سنة ١١٤ هـ / ١٧٢٧ م أو سنة  
١١٥١ هـ.

- نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، نشر هوداس، باريز  
١٨٨٨ م.

٨٢- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب، توفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م.

- كتاب البلدان، نشر De Goeje، ليدن ١٨٩٢.

- تاريخ اليعقوبى، فى جزئين، طبعة بيروت ١٩٦٠.

المراجع الأجنبية

## ثانيا:المراجع الأجنبية

- 1- Al Edrissi:  
Description de L'Afrique et de L'Espagne (texte arabe et traduction francaise par R. Dozyet DeGoeje),Leyde 1866.
- 2- Actes du VIIe congrés de l'institu des Hautes-études Marocaines (compte rendu des seances) Hespéris tome XI. 1930 ,Fascicules 1-11.
- 3- Adam (André):  
Le costume dans quelques tribus de L'Anti-Atlas Hespéris, tome XXXIX, Année 1952, 3e et 4e trimestres .
- 4- Arnold, T.W:  
The preaching of islam , A history of the propagation of the muslim faith, second edition, London, 1913.
- 5- Arnold, T.W.: Arab travellers and Merchants. travel and travellers A.P.Newton, London, 1949.
- 6- Barth's travels in Nigeria, extraits from the journal of Heinrich Barth's travels in Nigeria 1850-1855 Selected and edited by A.H.M Kirk Greene, London, Oxford University press, 1962.
- 7- Blachère, R.: Extraits des principaux géographes arabes du moyen age, paris, 1932.
- 8- Bovill, E.W.: Caravans of the old Sahara, an introduction to the history of the Western Sudan, London.
- 9- Bovill, E.W: The golden trade of the Moors.
- 10- Brockelman, Carl: History of the islamic peoples.

الشعوب والدول الإسلامية، ترجمة انجليزية بمعرفة.





- bridge University press, 1962.
- 23- Gautier F F : Le passé de L'Arique du Nord, les siècles obscurs, paris 1942.
- 24- Gautier E.F.: Le Sahara, payot, paris, 1928.
- 25- A Greek English Lexicon, A new edition Oxford University press, 1939.
- 26- Harrison Church R.J.: West Africa: A Study of the environment and of man's use of it, Longmans, 1961.
- 27- Hodgkin, Thomas: Nigerian Perspectives, Oxford University press 1960.
- 28- Hogben S.J.: An introduction to the histroy of the islamic states of Northern Nigeria, Oxford, 1967.
- 29- Houdas, O.: L'islamisme, Paris, 1908.
- 30- Houdas, O.: Documents arabes relatifs a l'histoire du soudan.
- ترجمة لكتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، مع مقدمة وهوامش، باريس، ١٩٠٠ (مطبوعات المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية).
- 31- Hudud al-Alam the regions of the world a persian geography A.H. 372-982 AD translated and explained by V.Minorsky, Oxford, 1937.
- 32- Ibn Batuta,: Travels in Asia and Africa 1325-1354, translated and selected by H.A.R. Gibb, London 1939.
- 33- Ibn Khaldun: The Muqadimah an introduction to the history translated from the arabic by franz Rosenthal, in three Volumes copyright 1958 by Bollingen Foundation Inc, New-York.

- 34- Julien A.: Histoire de L'Afrique du Nord Tunisie-Algérie Maroc de la conquête arabe a 1830 - paris, 1930.
- 35- Jean-Léon L'Africain: Description de L'Afrique, Nouvelle Edition traduite de l'italien par A. Epaulard, Paris 1956, 2 tomes.
- 36- Mahmoud Kati: Tarikh El Fettach ou chronique du chercheur pour servir a l'histoire des villes, des armées et des principaux personnages du tekrorur. traduction française par O. Houdas, M. Delafosse, paris, 1964.
- 37- kattani, Mohamed I.: Les manuscrits de L'occident Africain dans les Bibliothèques + Maroc, Hespères, Tamuda, Vol IX, Fas.one, année 1968.
- 38- Marcais, Georges: La berbérie musulmane et l'orient au moyen age, paris, 1946.
- 39- Miranda, Ambrosio Huici: Un Fragmento Inédito de Ibn Idari Sobre Los Almoravides , Hesperis Tamuda, Vol II Fasc I, 1961.
- 40- Monteil Ch.: Problèmes du soudan occidental Juifs et Judaises Hesperis tome XXXVIII, Année 1951, 3e et 4e trimestres.
- 41- Monteil Ch.: Les "Ghana" des géographes arabes et de Européen hespéris, tome XXXVIII, Année 1951, 3e et 4e trimestres, pp. 441 - 452.
- 42-Macoudi: Les prairies d'or Texte et traduction par G. Bai de Meynard et Pavet de Courteille, Paris. (Société Asiatique, Collection d'ouvrages orient Livre des prairies d'or et des mines de pierres précieuses.

- 43- Mauny, Raymond: Note sur les grands "Voyages" de Léon L'Africain, Hespéris, t. XLI, année 1954, 3e et 4e trimestres.
- 44- Mauny, Raymond: Découverte A Gao d'un fragment de poterie émaillé du Moyen age Musulman, Hespéris, t XXXIX, année 1952, 3e et 4e trimestres.
- 45- Norris, H.T.: Sanhajah Scholars of Tumbuctoo B.S.O.A.S. Vol XXX part 3, 1967, p, 634.
- 46- Oliver, Roland: The Dawn of African history, Oxford University press, 1963.
- 47- Palmer, Richmond: The Bornu Sahara and Sudan, London, 1936.
- 48- Provencal, Levi: Les Historiens de la chorfa, 1923.
- 49- Oxford Classical dictionary.
- 50- Sauvaget, J.: Introduction a l'histoire de l'orient musulman. Elements de bibliographie, paris, 1946.
- Historiens arabes, paris 1946 pages choisies, traduites et présentées.
- 51- Sauvaget, J.: Les épitahes royales de Gao (Al Andalus, Madrid, 1949, Vol XIV, F.I, pp. 123 - 141).
- 52- Sauvaget, J.: Notes Préliminaires sur les épitahes royales de Gao, revue des études islamiques, Cahier I, année 1948, (1 - 12).
- 53- Stamp L. Dudley: Africa: A study in tropical development United States of America, 1960.
- 54- Steingass: A Comprehensive english dictionary, second impres-

sion, London 1936.

- 55- „Terrasse Henri: Histoire du Maroc des origines a l'etabliissement du protectorat francais, deux tomes, Editions Atlantides Casablanca, 1949.
- 56- Trimingham, J. Spencer: A history of islam in West Africa, Oxford University press. 1963.
- Islam in West Africa, Oxford University press, 1968.
  - Islam in the Sudan, Oxford University press, 1949.
- 57- Wood H.J.: Exploration and discovery, First published, London, 1951.
- 58- Yver G.: Ency. de l'islam vol II. p. 182, Gogo.



	القسم الثاني:
١٢١ - ١٩٨	جوانب حضارية من السودان المغرب. المقدمة:
١٢٣ - ١٧٥	في هدف البحث ومصادره. الباب الأول:
١٧٦ - ٢٢٩	الصحراء والسودان.
١٧٩ - ١٩٣	الفصل الأول:
١٧٩ - ١٩٣	أ- الصحراء.
١٩٤ - ٢١٤	ب- السودان.
٢١٥ - ٢٥٠	الفصل الثاني:
٢١٧ - ٢٢٦	أ- سكان الصحراء.
٢٢٦ - ٢٣٩	ب- سكان السودان.
	الباب الثاني:
٢٥١ - ٢٩٨	الإسلام في بلاد السودان. الفصل الأول:
٢٥٣ - ٢٦٢	الإسلام في الصحراء وبداية تعرف العرب على بلاد السودان. الفصل الثاني:
٢٦٣ - ٢٩٨	إنتشار الإسلام في بلاد السودان. المصادر والمراجع العربية:
٢٩٩ - ٣٠٣	القسم الأول.
	المصادر والمراجع العربية:
٣٠٤ - ٣١٩	(القسم الثاني).
٣٢٠ - ٣٢٦	المراجع الأجنبية.
٣٢٧ - ٣٢٨	الفهرست.







To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)